



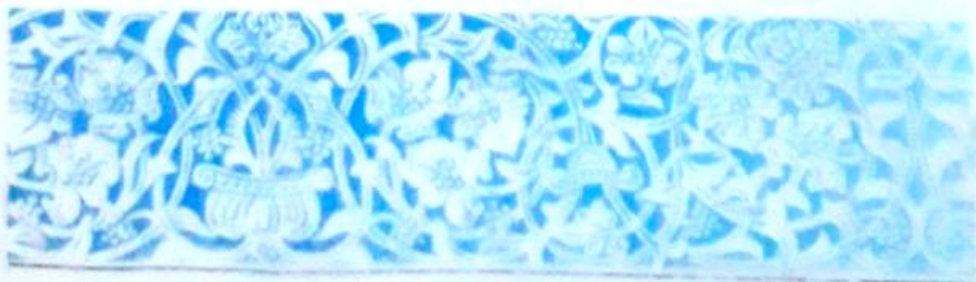
حاشية على كتاب التوجيه

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

المسقى

اتخلي عن التقليد واتخلي بالأصل المفيد

تأليف
عمر العرباوي



كِتَابُ التَّوْحِيدِ

المسمى

التخلي عن التقليد والتخلي بالأصل المفيد

تأليف
عمر العرباوي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رمضان 1404 هـ الموافق لجوان 1984

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

المَسْمُومِ

التَّخْلِي عَنْ التَّقْلِيدِ وَالتَّحْلِي بِالْأَصْلِ الْمَفِيدِ

تَأْلِيفُ

عَمَرَ الْعَرَبَاوِي

أهدي هذا الكتاب الى أرواح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين
جاهدو في هذا الوطن ، في سبيل العقيدة السلفية الصحيحة فنشروها فيه
وأزالو عنها ظلام الجهل المتراكم عليها عدة قرون وأخلصوها من شوائب
الوثنية والبدائع والخرفات فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا .

عمر العرباوي

دعاء الاستفتاح

ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فلك الحمد دائماً وأبداً حمداً يوافي نعمك ويكافيء مزيديك عدد خلقك ورضى نفسك وزينة عرشك ومداد كلماتك .

وصلّ يا رب وسلم وبارك أفضل صلاة وأزكى سلام وأعظم بركة على عبدك ونبيك ورسولك أشرف الخلق ، ورسول رب العالمين ، المؤيد بالحق والصدق سيدنا محمد وآله وأزواجه وذرياته الطيبين الطاهرين ، وأصحابه كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ..

آمين

كتب للمؤلف

- الإعتصام بالاسلام

- كتاب التوحيد المسمى بالتخلي عن التقليد والتخلي بالأصل المفيد

بسم الله الرحمن الرحيم نصائح أقدمها إلى الشباب المسلم

من الاشياء التي حار فيها المفكرون والعقلاء ، واندھش لها الجميع هو
إغراف بعض الشباب الجزائري من بعد الاستقلال عن مبادئ الاسلام .

كان الشعب متمسكا به ومعتدا عليه في حرب التحرير فبرزت
الخصائص الاسلامية فيها سلية لم تتأثر بما لابسها من سيطرة الاستعمار
طيلة قرن وربع ، فكان الايمان بالله يحدو المجاهدين الى ساحة القتال
فظهرت الشجاعة النادرة والبطولة الخالدة ، والوحدة الشاملة وكل المميزات
الاسلامية التي كانت لأسلافهم الأجداد من إقدام وتضحية في سبيل الله ،
وثبات ، ورحمة بالضعفاء أدى فيها كل مواطن واجبه الديني وهو الذي كان
سببا في نصرته على الاستعمار ..

ولما تم الانتصار على العدو وطُرد من البلاد ، أخذ الجزائريون زمام الحكم
بأيديهم ، ولكن سرعان ما تنكر بعض الشباب للدين ولعوائده وأخلاقه ،
وقطعوا صلتهم به ، لعبت المادة والشهوات بعقولهم فراجت موجة ناتجة من
الاحاد كادت أن تغم طبقات الشعب ، وأصبح الإسلام يتهم بالرجعية
والتأخر واختلط الذكور بالاناث في العمل والدراسة ، وفتحت على
مصراعها للأفكار الهدامة والاباحية المطلقة ، فتحول المجتمع الى مجتمع غربي في
عوائده ولغته وأخلاقه ، وأصبحنا في كل يوم نرى تدهور الشباب نحو
الرديلة والفساد ، لأنه لا يريد الا الهوى المضلل . واطلاق العنان لشهواته
العارمة التي لاتعرف الحدود .. وترك الأخلاق الفاضلة التي كانت لأجدادهم
وأسلافهم والتي حفظت المجتمع الجزائري منذ فجر التاريخ الى الثورة المظفرة
الكبرى فبهذه الأخلاق الحميدة برز المجاهدون الابرار ورأينا قانون الاسلام
هو السائد على البلاد كلها ..

الاستقلال معناه استرداد مقومات البلاد الأساسية ، من بعد ما غادرها الاستعمار ، ومقومات هذا الوطن هي الاسلام لاغير ، والشعب منطوي على كثير من هذه المقومات لأننا شاهدنا أيام حرب التحرير كيف برزت فيه هذه المقومات .

أيها الشباب ان أول حجر تبني عليه مستقبلك هو الايمان ، والايمان متعدد الجوانب :

أولا : الايمان بنفسك على أن فيك استعدادا لوغيبته لكنت ذا قوة فعالة ، فيك استعداد للتفكير والارادة .

الايمان بمجتمعك على أنك عضو منه ، وهو متكفل برعايتك ، يتطلب منك كيف تنظر الى غيرك ، على أنه شريك لك في الحياة ؟ الايمان بمجتمعك يتطلب منك أن تتعلم كيف توجه طاقة الحماس ، وقوة الشباب في سبيل الخير والعون لمجتمعك ، الايمان بالوطن على أنه الدار التي تسكنها ، لانه الحمى الذي تحتمي به من أحداث الزمن . الايمان بالله عز وجل ، فتعاليمه هي التي ترشدك كيف تؤمن بنفسك وبمجتمعك وبوطنك ؟ فبالايمان بالله تسير على هدى وبصيرة من أمرك . الايمان بالله يدفعك الى الأمام فتكتشف لك سبل الهداية .

أيها الشباب ، انك في بداية الطريق من هذه الحياة ، وفي بداية أمرك من تحمل المسؤولية ، فإن لم تستعن بالله فسوف يضعف أمرك ، وأنتك - بدون شك - ستطلع الى المستقبل كيف تكون ؟ وما يدريك لعلك أن تكون قائد جيوش ، أو مسئولا كبيرا في الدولة ، أو عالما متبحرا في العلوم والفنون ، أو فيلسوفا مقتدرا على حل المشاكل ، أو مخترعا ، الى غير ذلك من الطموحات ، ولكن هذه المناصب كلها اذا كانت بدون ايمان بالله فانها تضر أكثر مما تنفع ..

الشباب في كل زمان ومكان يضرب الأمثال الرائعة في الحياة ، فهذا أبو الانبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام يفتح قلبه على الايمان بالله في بداية شأنه ، فينكر عبادة النجوم والقمر والشمس ، وعبادة الاصنام التي كان

قومه يعبدونها من دون الله . قال تعالى متحدثا عنه : ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم : اني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ (سورة الانعام) .

ولما تمكن الايمان من سيدنا إبراهيم عليه السلام أبرز قوته في تحطيم أصنام قومه ، قال تعالى :

﴿ وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بالهتتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ (سورة الانبياء) .

وكان سيدنا يوسف عليه السلام شابا تعرض للمحن والتجارب القاسية الشديدة فخرج منها طاهرا نقياً ، ويقص علينا القرآن مجموعة من الشباب المؤمن وهم أهل الكهف فقال تعالى : ﴿ انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً ﴾ (سورة الكهف) .

يجب اصلاح الشباب عن طريق الدين والاخلاق الفاضلة ..

أيها الشباب ، اذا أردتم أن يرجع اليكم مجدكم وتصان كرامتكم ، فتمسكوا بفضائل أجدادكم وخذوا من كل أمة من أمم الأرض أحسن ما عندها من علم واتحاد وصناعة وأدب ، وانبذوا كل ما كان لها من رذيلة وفساد ، واعلموا أنه لابقاء لأمة مهما عظمت قوتها وعلت كلمتها ، واشتد سلطانها إلا إذا

تمسكت بالايان بالله والعدل والحق ، وحافظت على أخلاقها التي لابقاء لها
إلا بها ..

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ
لِمَا يَحْيِيكُمْ ﴾ (سورة الانفال) .

الحياة هي النهضة بأشمل معانيها ، فتشمل حياة الفرد وحياة الجماعة ،
انها حياة من واهب الحياة الخالدة. ان الدعوة الاسلامية دعوة عامة الى
الحياة الحقيقية ، فالدين هو الذي يدفع الأمة في اتجاه التقدم ، والدين هو
صانع الحضارات ، ما من حضارة قامت في الشرق أو في الغرب إلا على
أساسه ، وسيضل هذا شأن الانسانية في كل زمان ومكان ، ولهذا كانت
عقيدة المؤمن حياة بعد ممات ورزقا وفرحا بفضل الله ، ولم يكن الموت
عدما بل هو معبر الى رضوان ، ونعيم مقيم خالد ..

يجب على الشباب أن يحيا قلوبهم بمواعظ القرآن ويثيروها بالتفكير في
ملكوت السموات والأرض ، وفيما خلق الله من الأشياء التي لاتعد
ولا تحصى ، ويقووها باليقين ويذللوها بالموت ويشعروها بالفناء ،
ويذكروها بفواجع الزمن ..

أيها الشباب : ﴿ ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا
ولا يغرنكم بالله الغرور ، ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾
(سورة فاطر) .

الذين يؤمنون بالله ويعرفونه حق المعرفة كالملائكة قالوا :
﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ... ﴾ ، وانظروا الى خليل
الرحمن كيف يطلب ربه بأدب وتواضع : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي
خطيئتي يوم الدين ﴾ وقال الرسول « ﷺ » : « ما منكم من ينجي
عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا الا أن يتغمدي الله
برحمته » ، وانظروا كيف صاغ الايمان الشباب المسلم في صدر الاسلام ،
روى عن جابر رضي الله عنه ، قال : « قال رجل من مقاتلي غزوة

بدر : أين أنا يا رسول الله ان قتلت ؟ قال : في الجنة . فألقى
تمرات كن في يده ، وقاتل حتى قتل « ، فقد استطال الوقت الذي
يأكل فيه التمرات ..

وهذا أعرابي يحضر مع رسول الله « ﷺ » في إحدى الغزوات ثم
يعودون بالغنائم فيعطي للاعرابي نصيبه من الغنمة ، فيتعجب ويقول :
كلا ، ما على هذا اتبعتك ، أنا آمنت بك على أن أحارب في سبيل الله ،
فأرمى بهم هنا ، وأشار إلى نحره ، فأقتل فأدخل الجنة . فلما كانت
الغزوة المقبلة قاتل الاعرابي فيها فرمي بهم فقتل . فلما رآه الرسول ﷺ
قال « صدق الله فصدقه » !

وهذا سيدنا عبد الله بن جحش يرفع يديه الى السماء ، ويقول اللهم
اني أقسم عليك أن ألقى الاعداء غدا فيقتلونني ، ثم يبقروا بطني ويحدّوا
انفي وأدني : ثم تسألني : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك يارب . هذا الصحابي
الجليل لا يطلب السلامة من خطر الحروب ليركن الى المذلة بل يدعو مخلصا
إلى الاسلام ، فإذا تعذر السلم خاض غمار الجهاد ليقتل أبشع قتلة ليلقى
الله وهو قرير العين .

أما سيدنا نعيم بن مالك ، فقد جاء إلى الرسول ﷺ فقال : لا تحرمنا
الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها . قال رسول الله ﷺ : « وبم ؟ »
قال : بأني أحب الله ورسوله . ولا أفر يوم الزحف .. قال رسول الله ﷺ
« صدقت » . واستشهد يوم أحد .

وهذا سيدنا حنضلة بن أبي عامر رضي الله عنه الذي زُفَ اليه عروسه
ثم سمع المنادي : يا خيل الله اركبي . فانتزع نفسه من الفراش وقام ليأخذ
مكانه في صفوف المجاهدين ، وقاتل حتى استشهد ، فلما انتهت المعركة
طلب رسول الله ﷺ زوجته وقال : « حدثيني عن آخر عهد
بحنضلة » ، فأجابته المرأة : كان بيني وبين حنضلة ما يكون بين الرجل
وزوجه ، ولما سمع الهيعة نهض مسرعا قبل أن يغتسل ، فقال

رسول الله ﷺ : « لقد رأيت الملائكة تغسله في صحاف من الفضة بماء المزن بين السماء والأرض » .

هذه مبادئ الاسلام فعلت مفعولها في القلوب المؤمنة للصحابة وغيرهم من التابعين واللاحقين ، أما المسلمون الحاضرون فقد تنكروا للاسلام ونبذوا أوامره وراء ظهورهم ، وأصبحوا يلهثون وراء المبادئ الوضعية يطبقونها على مجتمعاتهم وسيطر على حياتهم الجهل ، وقد نسوا أنهم مطالبون بالتوحيد وتطبيق الشريعة الغراء بكاملها ، وان اختلفوا فواجب عليهم أن يردوه الى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فالمسلمون اليوم لايعبرون عن الاسلام لا من قريب ولا من بعيد ، هم في ناحية والاسلام في ناحية أخرى .

وأنا أخطب الشباب أينما كان وحيثما وجد بالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله الكريم « صلى الله عليه وآله وسلم » ويترك تقليد الأجانب أعداء الدين ويتبع طريق السلف الصالح في عقيدته الراسخة ، وسلوكه القويم ، والحفاظ على تراثه المجيد .

وإني أقدم تأليفا متواضعا في العقائد الإسلامية السلفية الى الشباب المسلم ليتسلح بالتوحيد الخالص والايمان العميق لعله يجد فيه ما يشفي غليله لأنه مدعم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأقوال العلماء المجتهدين أمثال : ابن تيمية ، ابن قيم الجوزية ، عبد الحميد بن باديس ، والغزالي ، وغيرهم كثيرون رضوان الله عنهم .

المقدمة

الحمد لله الذي شيد منار الدين وأعلامه ، وأوضح للخلق شرائعه وأحكامه ، وبعث صفوته وخصائص أوليائه المصطفين لتبليغ رسالته بواسطة أنبيائه يدعون الى توحيده وترك ما خالفه من الملل لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وختم الدعوة بنينا محمد ﷺ سيد المرسلين ، وفضله على من سبق غيره من الأولين والآخرين ، وجعل شريعته مؤيدة إلى يوم الدين ، ووكل بحفظها من الصحابة والتابعين ، من تقوم بهم الحجة ، وترتفع بقولهم الشبهة ، وهم الفقهاء الذين ألزمهم حراسة شريعته ، والتفقه في دينه ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (سورة آل عمران) .

هذا كتاب التوحيد مأخوذ من الكتاب والسنة وعقيدة السلف الصالح وقد سميته : « التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد » .

للمؤلف : الشيخ عمر العرباوي

التعريف بالتوحيد

التوحيد هو افراد الخالق بالعبادة ذاتا وصفة وأفعالا ، والتوحيد أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده ، وأول منازل الطريق للسالك إلى الله عز وجل .

ولا يقوم صلاح الانسان إلا إذا عرف الله سبحانه وتعالى الذي يحقق للإنسان ما يحبه ، ويدفع عنه ما يضره فالله لا شريك له هو وحده خلق الكون ، فلا معبود سواه ، والاله هو الذي يؤله أي يعبد محبة وإنابة ، وإجلالا وإكراما . لا يطلق هذا الاسم إلا على الله سبحانه وتعالى ، وحده ويكون من اختصاصه ، ومعناه أنه لا ثاني له ، فهو نفي العدد عنه ، لا شريك له ، ولا تبعيض ولا تقسيم ، ونفي الأنداد عنه والصاحبة والولد ، والأشباه والأضداد .

التوحيد هو الذي يعصم (نفس المسلم من الهلاك في الدنيا ، وينجيه من الخلود في النار يوم القيامة ، ويعتقد المسلم اعتقادا جازما أن الأفعال كلها صادرة من الله وحده ، فله التصرف المطلق التام . والتوحيد يكون محله القلب ، وعلامته الانقطاع إلى الله ، والتوكل عليه ، وأن جميع الخلق في قبضته وتحت قدرته وإرادته ، لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه ، الخلق ليس بأيديهم شيء من الأمر . لا يرى المؤمن الموحد في الوجود إلا الله وحده .

محبة العبد لربه : إن محبة العبد لربه تكون على درجتين : إحداها المحبة العامة التي لا يخلو منها كل مؤمن وهي واجبة . والثانية وهي المحبة الخاصة التي ينفرد بها (العلماء) الربانيون ، وأولياء الله الصالحون ، والاصفياء ، وهي أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ، فإن سائر مقامات الصالحين : كالخوف ، والرجاء ، والتوكل وغير ذلك مبنية على حظوظ النفس ، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه ، وأن الراجي إنما يرجو منفعة نفسه بخلاف المحبة فإنها من أجل المحبوب فليست من المعارضة في

شيء ، والمحبة هنا مرتبطة بالخشية فكما زادت خشيتنا من الله ازدادنا تقرباً منه وحباً له وتعلقاً بأوامره تطبيقاً وبنواهيه انتهاء ...

اعلم أن سبب محبة الله معرفته ، فتقوى المحبة على قدر قوة المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين ، وكلاهما إذا اجتمعاً في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال : وهنا يبدو له جمال الله وحسنه ، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع مثل جمال الله في حكمته البالغة وصنعتة البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار التي تروق العقول وتبهج القلوب ، وإنما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار ، وأما الإحسان فقد جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وإحسان الله إلى عباده متواتر ، وإنعامه عليهم باطن وظاهر ، ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ سورة إبراهيم . ويكفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، وكل إحسان ينسب إلى غيره ، فهو في الحقيقة منه ، وهو المستحق للمحبة وحده ، واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجد في طاعته والنشاط لخدمته ، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته والرضا بقضائه والشوق إلى لقائه ، والانس بذكره ، والاستيجاش من غيره ، وخروج الدنيا من القلب ومحبة كل من يحب الله ، وإيثاره على من سواه .

فهذه هي الغاية المطلوبة والسعادة المنشودة التي بها سعادة الخلق في الدنيا والآخرة ، لا شيء أحب إليهم في الدنيا كالإيمان به ، ولا شيء أحب إلى الناس في الآخرة كالنظر إلى وجهه الكريم ، فمن أعرض عن هذا التوحيد ﴿ فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (طه) .

فالتوحيد هو إفراد الله بالعبادة . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ (سورة الذاريات) .

اعراض المسلمين عن القرآن

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ (سورة ص) .

القرآن نور وهدى للناس ينير لهم طريق السعادة . ﴿ كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ أوحاه الله إلى رسوله الكريم ﴿ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (سورة هود) .

القرآن هو دعوة ربانية موجة للانسانية عامة ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ (سورة سبأ) .

القرآن علاج القلوب المريضة المزمنة ، والنفوس المضطربة الحائرة ، والمجتمعات المنحرفة الضالة عن طريق الحق والصواب قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (سورة يونس) سار المؤمنون على هديه فحققوا السعادة لأنفسهم في الدنيا والآخرة ، وفازوا برضوان وجنة النعيم .

هذا القرآن فيه تبيان كل شيء للناس لكيلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولانذير ، وإنه بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وتحذير الكافرين والفجرة العصاة المعرضين عن القرآن بأن لهم عذابا أليما .

القرآن كله حسن وأحسن منه ما يكشف للقلوب من العجائب لمن يلقي السمع عن طريق الفهم والاستنباط .

تناول القرآن حياة الإنسان من جميع جوانبها منذ نشأته إلى دخوله الجنة أو النار . فهو القوة الفعالة التي اعتمد عليها رسول الله صلى عليه وسلم في هداية الناس .

القرآن معجزة الدهر عجز الناس كلهم على أن يأتوا بمثله أسلوبا وبلاغة وحكمة وتشريعا صالحا لكل زمان ومكان ، وإخبارا بالغيب . قال تعالى :

﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (سورة الاسراء) .

كان الناس قبل نزول القرآن في غفلة تامة وجهالة شنيعة عن معرفة الخالق إلا ما كان من بعض الأفراد القلائل ...

جاء القرآن فعرف الناس دلائل التوحيد ، وما يحب لله تعالى من أسائه الحسنی وصفاته وما يستحيل عليه من أضرارها .

كانت العقول والأفكار مقيدة فلم تستطع أن تفهم ما في هذا الكون من الأسرار والحكم ، فجاء القرآن محرراً لها من القيود ، وأعطى للعقل حريته في النظر والتفكير والتأمل في عجائب هذا الكون .

كان الناس قبل نزول القرآن فرقاً وشيعاً ومذاهب وأحزاباً يعبدون آلهة شتى فقال لهم القرآن ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ ، والاسلام هو دين التوحيد في هذا الوجود ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ... ﴾ (آل عمران) .

القرآن جاء مصححاً لعقيدة التوحيد ، وبالنظام الشامل لحياة الناس في كل شأن من شؤونهم ، بل في كل ما يحتاجون إليه من الغيبيات ، وما تدركه حواسهم من المحسوسات سواء إتصلت بالدنيا التي نعيش فيها ، أو الحياة الأخرى التي نحن مقبلون عليها .

كلف الله نبيه الكريم بتبليغ هذا الكتاب المقدس للناس فبلغه كما أمر ، وطبقه على نفسه أحسن تطبيق ، وأقام على أساسه خير أمة ، وأفضل مجتمع ، وأعدل دولة عرفها الناس في تاريخهم الطويل ، فأصبح هذا الكتاب الرباني دستوراً للأمة الاسلامية التي احتضنته بكلتا يديها ، كما قال الشاعر المسلم :

دستور القرآن لا ما صاغه متفلسف حنق وفكر عبقرى
كم تحدى المفلقين بيانه كم هنز في اعجازه من منبر
شهد العدو بصدقه وجناله خير الشهادة ما أتى من منكر

هو منهج صادق إذا ما ذقته تحلو الحياة فليس أيُّ مكدرٍ
فهو الضياء لنا وفيه حياتنا يهدي الى النجاح القويم الأنور
وإذا تأمل المسلم هذا الدستور الكامل وجده ، يأمر بعد توحيد الله
- بإقامة العدل بين الناس ومساواتهم في الحقوق والواجبات ، ولاتفاضل
بينهم إلا بالعمل الصالح ، ويحث على الاتحاد ، وعدم الشقاق ، ومحو الحقد
والحسد من القلوب ، والتمسك بهذا الدين المتين لأنه هو الدين الوحيد لجميع
الناس .

قال تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين
ولا تتفرقوا فيه ﴾ (سورة الشورى) .

كَوْن هذا الكتاب الرباني أمة عظيمة ، وأودع بين يديها الأمانة العظمى
أمانة تبليغ الرسالة السماوية إلى الناس كافة ، وإلى مشارق الأرض ومغاربها
ليكونوا جديرين بعبادة الخالق المعبود .

فإذا الأمة العربية تنطلق من الصحراء بغتة ، وتبرز فجأة على مسرح
الحياة بعد خفاء مهين ، فحملت هذا النور الرباني فبددت به ظلمات الكفر
والشرك والجهل المحيّم على عقول الناس .

بماذا فضل المسلمون على سائر الأمم في القديم ؟ وبماذا فضل دينهم على
سائر الأديان ؟ فضلتُم بمعجزة الدهور ، وآية العصور بكتاب الله ﷻ الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد ﴿ (سورة فصلت) فإن جعلتموه - أيها المسلمون بين أيديكم كان
قائداً لكم الى السعادة والحريّة وفي الدار الآخرة إلى مغفرة من الله
ورضوانه ، وإن جعلتموه وراء ظهوركم رجعتُم إلى الجاهلية الجهلاء وتفقدون
ما بوأكم به القرآن من العزة والكرامة والسيادة والمنزلة القصوى ، ويستولي
عليكم الذل والخزي في الدنيا وفي الآخرة تصيرون إلى جهنم وبئس المصير .

كيف لا يكون القرآن هكذا ؟ وإنه لكتاب الهدى وسفر السعادة ،
وقانون الفضيلة ، ودستور العدالة في كل زمان ومكان .

لو تدبر المسلمون القرآن وعملوا بما فيه لَسَيَّرَهُمْ سَعْدَاءٌ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ ، ولو وقفوا تحت رايته لسموا سمو المجد والعلاء ، وتبوءوا مكان الشرف والعزة ، ولو أنهم حافظوا على أوامره لأضاءت لهم المسالك ، ولما اختلفوا على أنفسهم حتى أصبحوا هالكا إثر هالك يستعبدهم مالك بعد مالك ، ويذيقهم العذاب فاتك بعد فاتك .

يا معجبين بالمدنية الغربية والتقاليد البشرية فكروا قليلا فإن هذه المدنية التي اعتنقتموها لم تقدر على سعادتكم وانما يسعدكم اللجوء الى الدين الخفيف المنزل من السماء ، سار المسلمون - في العصر الحاضر - في ركاب المدنية الغربية ، ونبذوا أوامر قرآنهم وراء ظهورهم . وأطلع الله رسوله على حالة المؤمنين من بعده من خلال الغيب فشكى إلى ربه بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝ ﴾ (سورة الفرقان) شكى رسول الله ﷺ إلى ربه من أن قومه الذين أرسل اليهم بالقرآن ليتلوه عليهم قد صُدُوا عنه وتركوه وثبتوا على تركه وهجره ، وفي شكوى النبي ﷺ لربه من هجر أمته للقرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور عند الله وأبغضها اليه ، وفيه تهديد ووعيد شديدين لمهاجري القرآن يانزال العقاب بهم .

نحن المسلمين قد كان منا هجر كبير للقرآن الكريم منذ زمن طويل - وإن كنا به مؤمنين . بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القاطعة فهجرناها ، وبيّن القرآن لنا أصول الأحكام ، وأمّهات مسائل الحلال والحرام ، ووجوه النظر والإعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح العام والخاص فهجرناها ، وبيّن القرآن مكارم الاخلاق ومضارها ، وبيّن السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس ، والسلامة من الخيبة بتدسيستها فهجرنا ذلك كلّهُ ، وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ، ونبهنا على ما فيه من أسرار الحكمة ومصادر النعمة لننظر كي نستفيد ونعمل فهجرنا ذلك كله ، ودعانا القرآن لتدبره وتفهمه والتفكر في آياته ، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه فأعرضنا عن ذلك مع أن المسلمين يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن قال تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة الحجر) وكذلك سنة الرسول ﷺ القولية والفعلية تالية للقرآن عاملناها بما عاملناه ...

هذا التفسير مأخوذ من مجالس التذكير للشيخ عبد الحميد بن باديس طيب الله ثراه وجعل الجنة منقلبه ومثواه .

أيها المسلمون إن العمل بالقرآن الكريم واجب وتطبيقي أحكامه ، والتدبر في آياته فرض على كل مسلم ومسلمة لأنه أمر الله لعباده ، ورسالته المبعوثه إليه ، فمن لم يقرأ ويتدبر القرآن فقد استهان برسالة ربه ، واستهان بمن أرسلها ، ولينظر المعرض عن كتاب الله عن أعرض ومن يقاطع ؟ ومع من يسيء الأدب ؟ وبرسالة من يستخف ؟ انها رسالة ربه ومولاه فينبغي قراءتها بما يناسبها من الاجلال والاحترام والإنصات قال تعالى : ﴿ وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًّا ﴾ (سورة مريم) وقد وصف الله قلوب الذين لا يتأثرون بالقرآن ، ولا يخشون آيات الله ، ولاتلين قلوبهم الى ذكر الله بالانقساوة فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر) .

فالويل لمن نأى عن النور الذي يهديه ويحلوه عن بصيرته ظلام الشرك والكفر ، والويل لمن لم يحذر ما يشقيه إذا خيم عليه ظلام الجهل فلم يعرف الحلال من الحرام فيسقط في حمة الاثام قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .. ﴾ (سورة الأنعام) .

فالبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله ، والبعد عن الله هو عين البعد عن الحق ، والبعد عن الحق ضلال ، والضلal هلاك . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ (سورة طه) .

أصبحت قلوب المسلمين معرضة لخطرات الوسوس والآوهام من هجرهم للقرآن ، فالذي يثبتها على الحق ويدفع عنها الشكوك والحيرة ويربطها

باليقين هو القرآن الكريم . أصبحت قلوب المسلمين معرضة للإلحاد والكفر التي تظلم منها النفوس ، وتقسو منها القلوب فتحجب عنها الحقائق ، وتطمس عنها سبل العرفان من هجرهم للقرآن ، فالذي يزيل عنها الظلام المتراكم ويخلو عنها تلك الاصداء المتكاثفة ، ويوضح لها الحق من الباطل هو القرآن الكريم .

قلوب المسلمين معرضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف ، وما نحن مطالبون به من الأعمال من هجرهم لكتاب الله ، فالذي يبعث فيها القوة والنشاط هو القرآن الكريم ، فحاجتنا الى تجديد تلاوته وتدبر آياته أكيدة جداً لتقوية قلوبنا باليقين ..

المسلمون لما هجروا القرآن أصبح لاهم لهم إلا أنفسهم ودنياهم وشهواتهم ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ (سورة الحشر) استخفوا بالدين والاخلاق ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾ (سورة المجادلة) .

لقد طغت الاباحة وعلا صوتها في أوساط المسلمين على كل صوت يدعو الى الله ، فضاعت الحقوق وانتهكت الحرمات ، وغلب العقوق على الامتثال ، وتحادلت الهمم ، وفسدت الأمم بإعراضها عن كتاب الله ، وهضم الغني حق الفقير ، واندثرت الفضائل ، وانتثرت الرذائل فهذه نوادي ومسارح فاتنة ، ومراقص ماجنة ، وأفاعي كاسية عارية تتلوى ، ولحوم بشرية في الشواطئ متراكمة ونفوس دنيئة تنهافت على مجاري القذارة تعب منها في نهم متزاحمة ، ورجال يقفزون في حلبات الرقص كقرود لاهثة ، وزعم الاسلام من لا يعرفه ونبذ أوامره في سبيل شهواته ، وزعم الايمان من ترك الصلاة وأصر على المعصية لينال مبتغاه ، ولم يخش غضب ربه ، وزعم التقوى والصلاح من اتخذ الموقى أولياء من دون الله . هذه عواقب من ترك كتاب الله واتبع هواه واغراه الشيطان بطاعته ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الالباب ﴾ (سورة الرعد) فإلى النجا أيها المسلمون ، بادروا الى تدبر القرآن ، واسعوا

ما استطعتم إلى فهمه ، والعمل بأوامره ، والوقوف عند حدوده ونواهيه ،
وأنيروا قلوبكم بنوره وحكمه ، واشكروا ربكم على فضله ونعمه ..

لقد آمن المسلمون الأولون وحسن إيمانهم ، فكن الله لهم في الأرض ،
وأن الذي مكن لهم على قلتهم لقادر أن يَمَكِّنَ لنا إذا آمنا وحسن إيماننا .
ذلك وعد الله لعباده ومن أوفى بعهده من الله ؟ ..

وأن المسلمين يتحدثون عن الاسلام صباح مساء ويعربون في كل مناسبة
عن تعظيمهم للقرآن واعتزازهم به ، ولكن لا يقرأونه ولا يقيمون أحكامه ،
ولا يعتنون بتعاليمه ، ولا يوجد شيء منه في واقع حياتهم .

فأحكامه استبدلوا بقوانين وضعية أجنبية ، وتعاليمه ضربوا بها عرض
الحائط وحدوده عطلوها ورموها وراء ظهورهم ، ومع هذا إنهم يعتزون
بالقرآن ، فالآيات القرآنية تكتب بخط جميل أنيق تزين بها جدران
المنازل ، وتعلق في رقاب الأولاد والمرضى والمصاحف الضخمة فوق مكاتب
الحكام والقضاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله . هل هناك تكريم للقرآن
أفضل من هذا التكريم ؟

يا قومنا إن القرآن أنزل ليكون شرعة ومنهاجا لحياتنا فيجب أن نسير
على هديه لاندعوا إلا بدعوته ولا نعمل إلا بأوامره .

يا قومنا لم ينزل القرآن ليكون أنغاما وألحانا يتغنى به المطربون ، لم
ينزل القرآن ليقرأ في مجالس العزاء على بخار السجاير ، وإنما أنزل ليحكم
بيننا بالحق ، ويهدي قلوبنا الى معرفة الخالق لنعبده ونشكره على ما أولانا
من النعم التي لاتعد ولا تحصى ..

يا قومنا منذ تركنا أحكام القرآن ، وابتعدنا عن أوامره العادلة ، ونحن
نتخبط في الفتن ونتقلب في الفوضى ونتجرع الظلم ألوانا ، ونشرب الذل
كثووسا ، والله لا خلاص لنا مما نحن فيه إلا بالرجوع الى كتاب الله ، والله
لا يؤمن حاكم يحكم بغيره ، والله لا يؤمن قاض يقضي بسواه والله لا يؤمن عالم
لا يبين أحكامه وينشر هديه ، ويجاهد الناس به ، والله لا يؤمن من ابتغى

الخير في غيره . إذا دام المسلمون على هجر القرآن وسنة نبيهم محمد ﷺ لا بد لهم من يوم يندمون فيه قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (سورة الفرقان) يوم يعض الظالم على يديه حسرة وندامة على تفريطه وعدم اتباعه للحق مع الرسول الذي أرسل اليه ، ويندم عن صحبته لخليله الذي صده عن الإيمان بالقرآن بعدما سمعه ...

ومما يحزن المسلم أن يرى المسلمين يسировن من ضعف إلى أضعف ، ومن جهل إلى أجهل ، وهم لا يدرون السبب في ذلك ، والسبب واضح هو عدم تمسكهم بالشريعة الغراء وتشبثهم بالقوانين الوضعية الأجنبية هذا هو الذي أفسدهم وأورثهم الفرقة والذل والضعف .

فهنالك فرق كبير بين المسلمين والإسلام ، فالإسلام يدل عليه كتابه الجامع ورسوله العظيم ، والمسلمون يدل عليهم ضعفهم وتخاذلهم وتفرقهم هذا هو الفرق بينهما .

أيها المسلمون الله الله في دينكم لا يفتننكم الشيطان عنه بأقوال المسرفين ، ولا تصرفنكم المدنية الغربية عن تعاليمه السامية فانه ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (آل عمران) ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ (سورة البقرة) .

يظهر بين الحين والحين بعض المفكرين الذين يعيشون بيننا فيقولون يجب عزل الدين عن المجتمع وأحوال المعيشة ومحاصرته داخل جدران المساجد - حتى المساجد أخرجه منها كهاو الشأن في أوروبا ، وألفت في ذلك عدة كتب وألقيت محاضرات كثيرة إبعانا من هؤلاء على شل الجانب الديني حتى يأخذ طريق الضمور في مسيرته الى أن ينتهي إلى الفناء الذي يريدونه لا قدر الله .

ولكم صور البعض الاسلام أنه دين التواكل والتكاسل - وهو دين الاعداد ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وهو دين العمل والسعي ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وهو دين العمل ﴿ وقل اعملوا فسرى الله عملكم ورسوله ﴾ وهو دين العارة ﴿ واستعمركم فيها ﴾ « ومن بات كالاً من عمل يديه بات مغفوراً له » (حديث) تصور كيف يكون هذا الدين دين التواكل ودين التراخي والكسل ، واستدلوا على ذلك بالكسالى العاطلين المنتسبين اليه ، واتخذوا منهم عنواناً على هذا الدين ومثالا لأبنائه ...

وهناك قوة عالمية متحالفة فيما بينها منذ قديم الزمن تعمل على استئصال الاسلام من الوجود ، منها الصهيونية والصليبية ، والشيعية أخيراً . كلها قوات خطيرة استهدفت الاسلام بطرق شتى ملتوية ، وأساليب متنوعة مأكرة في محو الاسلام من نفوس المسلمين ، وما دام هذا الوضع سائداً على المسلمين لا يخلص المجتمع من التشويه والانحراف والمسوخ . يجب على المسلمين أن لا يتركوا مكان القيادة ، وأن لا يهملوا منهجها ، وأن لا يلهثوا وراء الأمم الضاربة في التيه والضلال ... يقول الأستاذ أنور الجندي في مقال له نشرته مجلة رابطة العالم الإسلامي : إن كل المخططات سواء كانت تبشيرية أو استشرافية ، أو ثقافة غربية شيوعية كانت إمّا صهيونية وإمّا رأسمالية تتضّافر كلها في سبيل غاية واحدة : وإن اختلفت الوسائل فتتلاقى على ضرب الفكر الإسلامي في أصالته ووحدانيته ليظل المسلمون يدورون في الفلك البشري الذي صاغته أهواء الطامعين وعُباد الذهب والشهوات ودعاة الجنس والفلسفة ليعجز المسلمون عن تبليغ رسالة الله التي أنزلها رحمة للعالمين ، وليبتعدوا عن الأصالة الإسلامية التي تعصم النفس والعقل لأنها حصانة نفسية وفكرة قادرة على الثبات أمام الأعاصير .

هذه العناصر كلها - كانت ولا زالت تبث سمومها في المجتمع الاسلامي بدعوى التقدم والرفق ، وساعد على ذلك الخواء الديني والفراغ الروحي ...

نشأ عن هذه المبادئ التي تروج في بلدان المسلمين انحراف عن الإسلام

لأنها هزّت كيانهم وزينت لهم ما بين أيديهم من الصور البراقة ، وشوهت الحقيقة أمام أبصارهم وبصيرتهم .

ألفت الجماهير الكفر والإلحاد والنفاق ، وأصبحت تظن أنّ ذلك أوضاع إسلامية لاتخالفه في شيء وشاع في أوساطهم أنّ الاسلام مرّن ومتطور يساير الأوضاع الاقتصادية والسياسية الغربية ، فإذا قلت لهؤلاء المنحرفين إن أحكام الاسلام لاتتبدل ولا تتغير ولا تعطل إلا لضرورة أجابوا بقولهم : إن أحكام الاسلام كانت لثمن غير زماننا ، والإسلام يفرض على المسلم أن يجارى عصره ، ويعمل بما يلائم زمانه . هذا صحيح من ناحية التقدم العلمي والتطور الصناعي الحضاري في التكنولوجيا . أما من ناحية القواعد الدينية ، والكليات الأصولية ، وأمّهات الأحكام لاتتغير فإنها من عند الله ..

بدأ المسلمون ينحرفون في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد فكانوا يبررون نظام البنوك الربوية ، والشركات المساهمة والتعامل معها بما حرم الله بدعوى الضرورة ، وأن الإسلام يقبل بها لأنه مرّن ، وأباحوا اختلاط النساء بالرجال بدعوى أن ابتعاد المرأة عن العمل يتضرر من ذلك الاقتصاد الوطني ، وينكرون على الشريعة تعدد الزوجات ، وقطع يد السارق ، ورجم الزاني المحصن إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة الغراء .

وكم أصاب المسلمين من بلاء ومحن بسبب المبادئ الغربية التي اعتنقوها ؟ وكم طعنوا في شرفهم وكرامتهم ؟ وكم أودوا في نفوسهم بسبب إعراضهم عن الإسلام ؟ وكم لدغوا من الفرقة وعدم الإتحاد ، ومن السياسة المرتجلة مرات ومرات - ولكنهم لم يتعضوا ؟ أليس من شأن المؤمن أن لايلدغ من جحر مرتين ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ﴾ (سورة الأنعام) ليت المسلمين يلقون السمع لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ الذي جاءهم بالهدى ودين الحق ..

أصبح المسلمون يرددون أقوالا جوفاء بلا اعتقاد ولا أعمال ، ولهذا زحزحوا عن الإسلام وكادوا يخرجون عنه قال تعالى : ﴿ يآأيها الذين

آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿ (سورة الصف) .

وهنا يبدو من هذا العرض أي عرض المبادئ الغربية التي غزت الأمة واضحاً جلياً أنها دفعت الأمة إلى الهاوية وحققت أهدافها الإيجابية في غياب الإسلام ، وهذا هو السبب الحقيقي في خروج المسلمين عن الإسلام وارتائهم في أحضان الغرب ، حتى أصبحوا مجزئين بين أرجائه وتابعين له في كل شيء .

والحقيقة التي غابت عن المسلمين ، وفي مقدمتهم المسيرون أن ليس أقوى في توثيق العرى الاجتماعية من الشعائر الدينية إذا هي خرجت من محيط الشكل إلى محيط الجوهر والروح ، وانطلقت من ظلام التقليد والجهل إلى نور المعرفة والإدراك ...

لم يبلغ المسلمون الأولون ما بلغوا من رقي وتقدم وحضارة إلا بالوحدة الاجتماعية ، والمشاركة الوجدانية ، ولم يكن لهم ذلك إلا بوعيهم للدين وقيامهم بشعائره خير قيام ، فسيرة كل واحد منهم كانت تعد مدرسة مثالية للتربية الاجتماعية الرشيدة والتهديب الإنساني الصحيح وتنية المحبة والمودة والتعاطف ...

الإسلام شريعة كاملة اشتملت على العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، فأهل المسلمون أحكامها ، وعطلوا سلطان مفعولها ، فأدى ذلك إلى الإنصراف عنها إلى القوانين الوضعية .

الشريعة الإسلامية لها دعائم قوية وأحكام تفصيلية تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، فأما أمر صلاحيتها فإنها تكفلت بذكر القواعد العامة في القرآن الكريم وتركت ما وراء ذلك من أحكام تفصيلية فرعية للإجتهد بحسب ظروف البيئة والزمان إذا توافرت شروط الاجتهاد المعلومة ودعت للضرورة لتوسيع قاعدة بناء على شبيهات لها من قواعد الشريعة الفراء .

العقائد التي أشتملت عليها الشريعة يجب الإيمان بها لقيام الدليل اليقيني عليها كالتوحيد ، وإرسال الرسل عليهم السلام ، وإنزال الكتب ، والبعث والجزاء وما اشتمل عليه اليوم الآخر إلى غير ذلك من قواعد الإيمان لكي يعود المسلمون إلى ما كانوا عليه من مجد وسؤدد . يجب عليهم أن يهتموا بالناحية الروحية والفكرية ، وهذه نظرة العقلاء من المسلمين منذ زمن بعيد وهم ينادون بذلك ، يجب أن يقادوا قيادة إسلامية لقيادة عاطفية ولاتقليدية في تفكيرها ونظامها الداخل والخارج لاريب أن المسلمين اليوم في حاجة أكيدة إلى أسلوب جديد للدعوة ، وجيل جديد من الدعاة ، وقد مرت بالمسلمين فترة عصيبة توقف خلالها أسلوب الدعوة المجدي الفعال ، ولم تبق منه إلا العبارات المتكررة الجوفاء ، فلا تمس قلوب المسلمين ولا تحرك عواطفهم ...

نريد من دعاة المسلمين أن يبرزوا تعاليم القرآن إلى نشاط وحركة وتطبيق . لم ينزل الله القرآن زينة يوضع فوق الرفوف ، ولاتعاويد ولاترانيم ولا أنغاماً ولكنه قانون حياة وعمل قامت عليه أمم انبعثت به الى الوجود ، وما لم تتحول تعاليم القرآن إلى أعمال إيجابية وسلوك محكم دقيق فليس ثمة مسلمون ، وليست ثمة إصلاح لهذه الشعوب ...

التكاليف الشرعية العامة : منها العينية والكفائية

كيف يكون الانسان مؤمنا ؟ وما هو العمل الذي يتطلبه منه الاسلام ؟

ان العمل الذي يتطلبه الاسلام من المكلف هو إيجاد الشخصية الإسلامية التي تتمثل في العقيدة والأخلاق والسلوك ، ثم إيجاد المجتمع الإسلامي الذي يلتزمه المسلم فكرا وعملا ، ثم إيجاد الدولة التي تطبق الاسلام شريعة ومنهاجا ودستورا ، وتحمله دعوة هادئة لإقامة الحق والعدل في العالم ..

إن هذا العمل وما يتقيد به المسلم من أوامر الدين وما يتصل به ويتفرع عنه وما يتطلبه هو واجب إسلامي شرعا لا يسقط عنه حتى تقوم السلطة التي تتولى القيام بهذه المسؤولية بحيث ترعى شؤون المسلمين ..

وإذا كانت السلطة غير موجودة ، فإن كل تقصير من العاملين بالاسلام هم في شرع الله آثمون لا يرفع عنهم الإثم الا المبادرة السريعة للنهوض بتكاليف العمل للاسلام ، وما يؤكد وجوب العمل أنه تكليفي شرعي وليس عملا تطوعيا كون وجوبه يقينيا ..

العمل للإسلام واجب لأنه مناط التكليف للناس جميعا ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَاتِهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهُدًى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (سورة البقرة) ، والسنة المطهرة تزرع بما روى عن رسول الله ﷺ من أحاديث كثيرة تحض على الدعوة الى الحق ومكافحة الباطل ومنها قوله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » ..

العمل للإسلام واجب شرعا لأن تعطيل شرع الله في الأرض وهينة النظم والتشريعات الوضعية على المجتمعات البشرية تجعل قانون الإسلام غير صالح للحكم وذلك عكس للحقائق تماما ، ولهذا يفرض الإسلام على المسلمين العمل بشريعة الله العادلة لإقامة مجتمع اسلامي ، لتستأنف الحياة الاسلامية على قوانين الله التي أنزلت من السماء لتبين للناس عقائدهم وعبادتهم وأخلاقهم ونظمهم ، ولا يقبل الله إلا حكم الإسلام بدليل قوله عز وجل : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ، (سورة النساء) فتحقيق الحكم الاسلامي في المجتمع واجب بذاته ، فيصير العمل به واجبا بدليل القاعدة الأصولية : « ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

الدول الاسلامية المعاصرة لم تحكم مجتمعاتها بكتاب الله ولا بسنة رسوله الكريم ﷺ ، وانما تحكمها بالنظم الوضعية الأجنبية ، وواجب المسلمين أن يتركوا هذه النظم ، ويرجعوا الى حكم الإسلام العادل لأنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يعود للإسلام القيادة والقوامة .

العمل بالإسلام واجب لمواجهة تحديات العصر ، ومؤامرة أعداء الإسلام ، ووقف التيارات الإلحادية ، ومواجهة المادية العاتية ، وزحف الايديولوجيات من كل جانب حتى أصبحت تهدد الوجود الاسلامي بالاستئصال ، والزوال . فنظرة واحدة فاحصة إلى الأوضاع التي تعيشها الأمة الاسلامية سواء في الشرق أو الغرب - تؤكد ضرورة قيام مجابهة إسلامية . والقيام بهذا العمل تكليفي شرعي لا يجوز السكوت أو القعود عنه ، أو التهاون فيه . فهناك أقطار إسلامية تشكو من سيطرة غير المسلمين عليها ، وهناك أجزاء من العالم الإسلامي تشكو من تسلط أحزاب الإلحادية عليها .

وفضلا عن هذا وذاك فإن العالم الإسلامي يعيش في حالة ضياع وفوضى ، فوضى سياسية ، فوضى إجتماعية فوضى إقتصادية لا ترابط بين أجزائه ، يعيش تدهورا مريعا في الأخلاق والقيم ، وكذلك في الأفكار والمعتقدات . إن مسؤولية العمل بالإسلام من حيث هي واجب تكليفي

شرعيّ ، ولو كانت مسؤولية فردية شأنها شأن كل الواجبات التي يترتب عليها الثواب كما يترتب على تركها العقاب ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (سورة المدثر) .

الإسلام يشرك الناس جميعا . في عملية البناء والتعمير بناء الحياة على الحق وإعمارها بالخير ، الإسلام جعل كل إنسان مسؤولا عن البذل والعطاء في حدود إمكانيته وطاقته ما دام المسلم بالغاً قادراً عاقلاً مما يجعل المجتمع خلية حية نابضة ، وإذا كان العمل بالإسلام واجبا فرديا ، فهو ايضا واجب جماعي ، وهذا غير قابل للجدل والمناقشة .

إن تكاليف العمل بالإسلام أكبر من أن يتصدى لها إنسان بمفرده ، فيجب أن يقضى على الإنحراف والإلحاد ، وإقامة الاسلام مكانها ، وهذا يتطلب من التكليف الجهد والإمكانيات ما يعجز عن القيام به فرد ، بل لا يقوى على النهوض به مع المكابدة والمعانات إلا بتنظيم حركي يكون في مستوى المواجهة وعيا وتنظيما . وقدره .

إن عمل الرسول ﷺ في مواجهة الجاهلية وإقامة مجتمع إسلامي ، واستئناف الحياة الإسلامية لدليل شرعي على وجوب الجماعة ، وهذا ما ينطق به واقع السيرة النبوية في جميع المراحل ، وعلى وجه كل صعيد فالتحديات التي تعترض سبيل الإسلام هي غالبا من سكان العمورة ، والقوة التي تتربص به فهي كثيرة وهذا ما يفرض على المسلمين أينما كانوا تنظيم صفوفهم وتوحيدها ، فإذا كانت نياتهم صادقة فالنصر حليفهم لا محالة .

إن العقيدة الإسلامية لا تكاد تمس قلب الإنسان مسا صحيحا حتى تحدث فيه إقبالا في المشاعر ، وفي الحياة ، وعلاقة الأفراد والجماعات على المساوات المطلقة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

والعقيدة الإسلامية تقوم على العدالة لا تطبيق البغي من أحد ، ولا ترضى بالبغي على أحد ، ولا يكاد يحس بها المسلم حتى يندفع في سبيلها

بكل ما يملك من قوة فما يطيق صبرا ولا سكوتا إلى أن يتم له تحقيق ما اشتملت عليه ذلك تأويل أن الاسلام عقيدة ثورية .

الذين يؤمنون بالله حق الإيمان هم الذين يجاهدون في الله حق جهاده لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الله لا تتحقق إلى أن يرفع البغي من هذه الأرض فيصبح الناس سواسية كأسنان المشط .

الإسلام يهاجم الظلم والظالمين دائما من أيّ كان ، وفي كل مكان وزمان . بخلاف المبادئ الوضعية لا تستطيع أن تكافح المظالم بجميع أنواعها كما يكافحها الإسلام ، أو تقف بجانب المظلوم كما يقف الإسلام ، ولا يمكن لهذه المبادئ الوضعية أن تصرخ في وجوه الطغاة والمتجبرين كما يصرخ الاسلام .

إن الإسلام في صميمه حركة تحريرية تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في محيط الجماعة ، ولا يدخل الإسلام قلب أحد ثم يدعه مستسلما خاضعا لسلطان الأرض . فإذا رأيت المظالم تقع ، وإذا سمعت المظلومين يصرخون ، ثم لم تجد المسلمين حاضرين لدفع الظلم وتحطيم الظالم فلك أن تشك مباشرة في وجودهم ، لا يمكن أن تحمل القلوب الإسلام عقيدة ، ثم ترضى بالظلم نظاما ينبغي أن يكون إسلام أولا إسلام .

الإسلام كفاح لا يهدأ ، وجهاد لا ينقطع ، واستشهاد في سبيل الحق والعدل والمساواة ، أولا إسلام فهو مهمة بالأدعية ، وطققة بالمسايح ، وقيمة بالتعاون ، واتكال على أن تمطر السماء على الأرض صلاحا وحرية وعدلا ، وما كان الله لينصر قوما لا ينصرون أنفسهم ...

وإذا كان الاسلام هو الدين الذي اختاره الله لعباده بقوله عز وجل ﴿ شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام ﴾ (سورة آل عمران) هذا الدين المختار وقد بدأ بالتوحيد ، وانتهى به ، والتوحيد هو التسليم المطلق لله ، والتفويض التام له سبحانه وتعالى .

والاسلام شريعة يمزج بين الدين والدنيا ، وبين المسجد والدولة ، فهو دين ودولة ، وعبادة وقيادة . إذا أراد المسلمون أن يحققوا الخير للناس ، وأن يكتنوا للدين في الأرض ، فعليهم أن يسيروا على المحجة البيضاء التي سار عليها الرسول ﷺ من قبل ، إيمان بالله وعمل بالاسلام متواصل ، ومحبة لله ولرسوله دائمة ، وإخاء بين المسلمين متين ، دون تفريط أو افراط ، قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (سورة يوسف) .

السؤال المطروح أمام المسلمين جميعا : هل يقف المسلمون مكتوفي الأيدي حتى يصل مجتمعهم إلى عهد الجاهلية فيهدر دينهم وتذهب قيمهم وأخلاقهم أدراج الرياح ؟ وقد جرفهم تيار الفساد والاحاد وظهت جماعة منهم تحمل العداء للسافر لهذا الدين الرباني ..

يجب على كل مسلم مكلف سواء كان مسئولا أو عاملا بسيطا جاهلا كان أم مثقفا أن يتحمل مسؤوليته التي سيحاسب عنها يوم القيامة ، فالحاكم مسئول عن هذا الدين ، والوزير مسئول والمدير راع ، والرجل راع ، والمرأة راعية ، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن هذا الدين الخفيف ، وكل واحد من أفراد الأمة المسلمة سيتحمل مسؤوليته أمام الله والتاريخ ، فالله سبحانه وتعالى سيسأل الجميع عن هذا الدين القويم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ...

إن الله لا يحب أي شريعة إلا شريعة الاسلام ، فشريعة الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والشرائع الأخرى بعكس ذلك ، وهذا ما يقوله الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ لأصحابه « كيف بكم إذا فسد شبابكم وطفى نساؤكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا : أو كل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله ، وأشد منه سيكون . كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا ؟ قالوا : أو كل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله ، وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ ﴾ (صدق رسول الله ﷺ ، فهذا كله موجود في المسلمين المعاصرين ..

قال عليه الصلاة والسلام : لا تزال لأله إلا الله تنفع من قالها ، وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها قالوا يا رسول الله وما الإستخفاف بحقها قال ﷺ يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكر ولا يغير . وقال : تركت فيكم ما ان تمسكتم به فلن تضلوا من بعدي أبدا كتاب الله وسنتي (1) .

إذا وما العمل - أيها المسلمون - ليس هناك ملجأ أو نجاة ، أو نصر أو حياة إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله . دوروا أيها المسلمون حيث دار الاسلام .

المؤمن الحقيقي لا يبطره النصر إذا انتصر ولا تقنطه الهزيمة إذا انهزم ، إنَّ الهزيمة والنصر يستفيد كل منهما وكلاهما يدخلان الجنة . ان انتصر المسلمون فالفضل لله وحده ، وان انهزموا بحشوا عما قصروا فيه من طاعة الله أو مخالفته ولا تكون الهزيمة للمسلمين إلا إذا فرطوا في شيء مما أمرهم الله به ، أو عطلوا حدا من حدوده ، ولم يتوبوا ، ألم تضق الأرض بالمسلمين بما رحبت في غزوة حنين وقائدهم رسول الله ﷺ حين ظنوا ان النصر إنما هو في جانب الكثرة ، واعجبوا بكثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا لولا أن تداركهم الله برحمته الواسعة ، وكذلك زلزلوا في غزوة أحد لأنهم خالفوا - بنية طيبة وقصد سليم - وأمر رسول الله ﷺ واجتهدوا ولكن لا اجتهدا مع النص ، ولهذا أدبهم الله تأديبا أدركوا بعده قيمة مخالفة أوامر الرسول ﷺ ووقفوا على عواقب ذلك الخلاف ...

رسم النبي ﷺ لأصحابه ثلاثة مشاعر انطبعت عليها قلوبهم ، وبهذه المشاعر الثلاثة ظلت راية الإسلام مرفوعة : المشعر الأول هو أن ما جاء به ﷺ هو الحق ، وما عداه هو الباطل ، وأن رسالته أكمل الرسالات ، ومنهجه أفضل المناهج ، ونظام شريعته أحسن النظم فهي التي تحقق السعادة للناس أجمعين ، المشعر الثاني : إن المسلمين ما داموا أهل حق وما داموا حملة رسالة النور ، وما دام بينهم هدى السماء لارشاد الناس فيهدونهم

(1) من خطبة الوداع عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه (رواه مسلم) .

إلى الخير وإلى سواء السبيل فلا بد أن ينالوا سعادة الدارين .. المشعر
الثالث : ما دام المسلمون مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه فإن الله
معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم يؤيدهم بروح منه إذا تخلى عنهم الناس ،
ويدفع عنهم إذا أعوزهم النصر وهو معهم أينما كانوا وإذا لم يكن معهم جند
الأرض فينزل عليهم المدد من السماء . ﴿١﴾

ولما أخذت هذه المشاعر الإيمانية بقلوبهم إعتزوا وانتصروا في كل ميدان
ولما ضعفت في نفوس المسلمين خفت أصواتهم واهتز يقينهم فضعفوا عن
مقاومة أعدائهم ...» (١)

(١) للتوسع راجع رسالة التعاليم .

بماذا يكون ايمان المكلف ؟

وما هي الوسائل التي يستعملها ليكون مؤمنا ؟

الوسائل التي يعرف الانسان بها ربه متعددة ومتنوعة ، منها : النظر في مخلوقاته ، (بالعقل المجرد من الهوى) أو بنور يقذفه الله في قلب المؤمن لا يقدر على دفعه ، أو بالتقليد (وهي أسوأ الطرق وأفسدها) التوحيد هو أساس الطاعات ونبراس العبادات ، وكلمته الطيبة الدالة عليه ، وهي : لا اله إلا الله انها مقصورة على ألوهيته وحدها ، فكل مخلوق يجب عليه أن يعبد الله ويطيعه وحده لا شريك له لأنه هو النافع والضار على الاطلاق ، وهو خالق كل شيء ، وكل من لا يكون نافعا ولا ضارا فليس بخالق يستحق العبادة لأن العبادة هي الطاعة والخضوع والانقياد لله وحده سبحانه وتعالى .

أما الكلمة الطيبة - وهي لا اله إلا الله - قد دلت على ألوهيته الثابتة له تعالى ثبوتا مستمرا ، وقال حجة الاسلام الغزالي في باب « الصدق » من (الاحياء) « كل ما تقيّد به العبد فهو عبد له ، كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا » وقال نبينا محمد ﷺ :

« تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، وعبد الخلة وعبد الخميصة » (1) ، وكل من تعلق قلبه بشيء فهو عبد له ، قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (سورة الجاثية) وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد ظهر لنا أن الشارع لأمر ما جعلها مفتاحاً للدين ومهداة الانام .. وفي حديث أخرجه ابن النجار عن دينار عن أنس : أنه عليه الصلاة والسلام قال :

« لا اله إلا الله دالة على الله تعالى من قالها مخلصا استوجب الجنة » وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » ، وحديث

(1) رواه احمد وابن ماجه والحاكم من حديث صالح بن صالح .. ورمز السيوطي إلى صحته

البطاقة أشهر من أن يذكر وكذلك الحديث القدسي المروي عن علي الرضا عن ابائه عليهم السلام : « وجاء من كان آخر كلامه من الدنيا لا اله الا الله دخل الجنة بلا حساب » وما هو الفرق بين ذلك وبين من قالها ولم تكن آخر كلامه في الدنيا .

أجمع المسلمون على معرفة الله تعالى وإن اختلفوا في الوسائل شرعا وعقلا أما النظر في معرفة الله تعالى لا خلاف بين أهل الاسلام لجوابه ، لأنه أمر يتوقف عليه الواجب ، وكل أمر يتوقف عليه الواجب فهو واجب شرعا كما رأى الصحابة (ض) . وعقلا ان كان عقليا كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المحال .

أما كون النظر الذي يتوقف عليه التوحيد ليس ضروريا بل هو نظري ومحل الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدم وجوبه في غير معرفة الله تعالى أما النظر فيها فواجب إجماعا كما ذكره سعد الدين التفنزي ورجح هذا القول الإمام الرازي والآمدي وقال بعض العلماء في ذلك : إن المطلوب هو اليقين لقوله تعالى عز وجل لنبيه ﷺ : « فاعلم أنه لا اله الا الله » وقال أيضا للناس : « اتبعوه لعلكم تهتدون » . ولا يتم اليقين إلا بحصول النظر ولهذا لم يجوز بعض العلماء التقليد في الأصول والبعض منهم أجازوه لكن بشرط العقد الجازم لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي من الناس بنطق الشهادتين تحت ظلال السيوف إذا كان معتقدا لمضمونها على وجه الإدعان ، وعدم كونه معتقدا لها احتمال عقلي .

والذي أوجب النظر من المحققين لم يرد به النظر عن طريق المتكلمين بل صرح بعضهم أن المعتبر في النظر هو طريق العامة ، ويكفي دليلا على صحة إيمان المقلد . كان رسول الله ﷺ يكتفي هو وأصحابه من عوام العجم وأجلاف العرب بمجرد الإقرار بالشهادتين ولو كان الاستدلال فرضا لأمروا به بعد النطق وللقنوه لهؤلاء الأجلاف كما كانوا يلقنونهم الواجبات الشرعية ولم ينقل أحد من الصحابة أنهم أمروا ممن دخل في الاسلام بالاستدلال وترديد النظر ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجأوا أمره حتى النظر .

فلو كان النظر واجبا على الأعيان ولو إجماليا على طريق العامة لما اكتفى النبي ﷺ من أولئك العوام والأجلاف بمجرد الإقرار ، لأن النبي وأصحابه لا يقرون أحدا على ترك الواجب من غير عذر . إذ أن المقلد غير آثم على ترك النظر بل إيمانه ثابت وصحيح ويشهد لذلك ما قاله النبي ﷺ لأسامة بن زيد « عند اعتذاره عن قتل « مرداس بن نهيك » من أهل فدك وغيرهم من الأخبار الكثيرة قال عز وجل : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وقد روي مرفوعا أنه ﷺ سئل عن شرح الصدر فقال : « نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح صدره » (1) . فصرح أنه نور لا يحصل من دليل وإنما يقذفه الله تعالى في قلبه من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال .

وقد صرح بعض المحققين بأن توحيد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو علم ضروري وجدوه في أنفسهم لم يقدرُوا على دفعه .

ومن أهل الفطرة من وجد فيه الايمان كذلك بل قد صرحوا بأن الايمان علم ضروري يجده المؤمن في قلبه لا يقدر على دفعه فكَم من آمن بلا دليل . وقال الامام الغزالي حجة الاسلام في كتابه « فيصل التفرقة » ومن أشد الناس غلوا ونكراً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررنا بها فهو كافر ..

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده وجعلوا الجنة وقفاً على شذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جعلوا ما تواترت به السنة وراء ظهورهم ، وظهر في عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة باسلام على طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الأوثان ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل ولو اشتغلوا بها لم يفهموها ومن ظن أن الايمان بالكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد النجعة بل أن الايمان نور يقذفه الله في قلب عبده عطية وهداية من عنده تارة بسبب رؤيا في المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين سرى نوره اليه عند صحبتته ومجالسته ، وتارة بقرينه حال .

(1) أخرجه ابن أبي حاتم ، رواه عبد الرزاق

فقد جاء أعرابي الى رسول الله ﷺ جاحدا منكرا فلما وقع وجهه على طلعة النبي ﷺ البهية وغرته الغريرة السنية فرأها يتلأأ منها نور النبوة ، قال : والله ما هذا بوجه كذاب ، وسأله أن يعرض عليه الاسلام ، فأسلم . وجاء آخر فقال : أنشدك الله بعثك الله نبيا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : بلى اني والله ، الله بعثني نبيا . فصدقه بيينه وأسلم . فهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ..

ولم يشتغل أحد بالكلام وتعلم الأدلة بل كانت تبدو أنوار الايمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد وضوحا واشراقا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة كتلاوة القرآن وتصفية القلوب . ليت شعري من نقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة احضار أعرابي ولقنوه الدليل على أن العالم حادث لأنه لا يخلو عن الأحداث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وان الله عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما زائد عن الذات الى غير ذلك من رسوم المتكلمين ..

بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من أجلاف العرب أو غيرهم يسمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأسرى يسمون واحدا واحدا بعد طول الزمان أو على القرب منه . وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا الى صنيعتهم لرعاية الغنم أو غيرها ، لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الايمان في حق بعض الناس ، ولكن ذلك ليس بمقصود عليه وهو نادر . وساق الكلام الى أن قال والحق الصريح ان كل من اعتقد ان ما جاء به الرسول ﷺ ، وما اشتمل عليه القرآن فهو الحق اعتقادا جازما فهو مؤمن وان لم يعرف أدلة .

فالايان المستعار من الدلائل الكلامية ضعيف جدا مشرف على التزلزل لكل شبهة بل الايمان الواضح ايمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا وأثر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها - انتهى -

لا تكليف إلا بشرط العقل

العقل في الاسلام له دور فعال في الإيمان بالله عز وجل ، وفي الحياة ونظامها ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها على إهماله ...

ولقد حدّد الإسلام دور العقل ، فمن وظيفته أن يفهم الرسالة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ فيتلقى عنه دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق .

العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع ، فإن الشرع منزل من عند الله ثابت بنفسه . سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه وهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا إلا أننا محتاجون إليه حتى نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع صار عالماً ، وإذا لم يعلمه كان جاهلاً . والمنقول الصحيح من الآيات والأحاديث لا يعارضه العقل كسائل التوحيد و (عقائد) صفات الإله ، والنبوات والمعاد والرسل عليهم السلام . لا يخبرون بمخالفة العقل ، وإنما يخبرون بما عجز عنه ، وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول والرفض بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ، إلا أنه ملتزم بأحكام الدين إذا بلغت إليه عن طريق صحيح ...

إن الاسلام دين العقل بمعنى أنه يخاطبه بمقتضاه ومقرراته ، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال فيها إلى الازدعان ، ويخاطب العقل بمعنى أنه يصح له مناهج النظر ويدعوه الى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان والنظر في الأنفس والآفاق ، ويخاطب العقل بمعنى أنه . يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه ، فاذا وصل العقل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات ، ولم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، وعدم التسليم بها فهو كافر .

العقل ميزان صحيح غير أنك لا تستطيع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء الطبيعة ...

وإذا تبين ذلك ، فلعلّ الأسباب إذا تجاوزت في الالتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت على أن تكون مدرّكة فتيه العقل في بيداء الأوهام ، وينقطع فإذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب ، وهذا معنى ما نقل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « العجز عن الادراك إدراك » ويقول ابن خلدون التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب .

سأل دعلب اليباني عليا - كرم الله وجهه - هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فأجابه : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقال دعلب : وكيف تراه ؟ قال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه العقول بحقائق الإيمان ، قريب من الأشياء ، غير ملامس ، بعيد منها غير مباين لها ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، بصير لا يوصف بحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقّة ، تغنو الوجوه لعظمته وتجل القلوب من مخافته . وقول الإمام الهاشمي - كرم الله وجهه - « لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه العقول بحقائق الإيمان » إشارة إلى أن الادراك ليس إدراكا عقليا مباشرا ، وإنما هو إدراك لما يقع في الشعور والحس من إيمان لا يدرك بالعقول .

ووظيفة العقل هي إدراك ما يقع له من مظاهر الوجود ، وقد ينتج الإدراك معرفة ، ولكن الإيمان أكبر من الادراك ، وأعلى من المعرفة . وسئل الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بم عرفت ربك فقال : عرفت ربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي ، فقيل له وهل يتأتى لبشر أن يدركه ؟ فقال العجز عن الإدراك إدراك ويعلق العز بن عبد السلام على هذا الخبر بقوله : « ومعنى هذه الإشارة الصديقية : إن الحواس الخمسة التي هي آلات الإدراك لسائر المحسوسات لا وصول لها لإدراكه فإذا علمت أن الحق سبحانه منزّه عن إدراك الحواس لكن ذاته وصفاته لعجزها عن إدراكه ، فقد عرفت الحق ... ربما يفهم من القول : بأن العجز عن الإدراك إدراك » أن الإيمان المستولد من العجز عن الإدراك إيمان باهت وأنه ليس بشيء والحق أنّ العجز عن الحقيقة الكبرى حقيقة الوجود العليا ليس هو العجز الذي يعقبه اليأس ويتبعه القنوط ، وإنما هو إلهام

روحي ، ومن أجل هذا كان الإيمان بالله عز وجل لا يرتاد إلا النفوس التي حل بها الطهر وزكاها العلم . ولا يكون إلا في النفوس التي خلت من الشك والريب ، وسلمت من الزيف ...

الاسلام يطرح العقيدة على العقل على أساس النظر والفكر ليستقر الإيمان في نفس المخاطب ، وجذور هذه العقيدة ضاربة في الكون والنفس والبشر ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (سورة فصلت) .

كما هي مودعة في الكتاب الكريم ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ (سورة البقرة) ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ﴾ (سورة ق) .

إن الإيمان بالله عز وجل وما اشتمل عليه قضية خطيرة قضية تحديد قوة عليا تستوعب الزمان والمكان والانسان قضية تحديد حياة أخرى لا تقاس بملايين السنين إنه الخلود ، ومن تسنى له أن يخوض هذه القضية الكبرى - أي قضية الايمان - عقليا فيغدو مؤمنا حقا ويكون قد مرّ بتجربة فكرية أكتسبته مرانا رائعا على التجرد من العقائد الزائفة ، ومن شأن هذا المران أن يطبع العقل الانساني بطابع الثبوت والاتزان ، والمؤمن الذي يراقب الله بمحذر من التسرع قال الله عز وجل : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ (سورة الاسراء) فإذا آمن الناس بالحقيقة الكبرى إيمانا عقليا وآمنوا برسوله وكتابه إيمانا عقليا أليس من المعقول أن يسلم العقل فيما تعجز عنه حواسهم الحسية من النصوص الواردة من القرآن والحديث في الجنة والنار والملائكة والشياطين ؟ سيما وقد قبلوا الأصول الكبرى عن طريق العقل ، وهذه التفصيلات الغيبية محدودة في النصوص الصحيحة ..

لقد عرض الله قضية الايمان على العقل ، وأخذ بيده إلى الكون ، وخطبه بالبرهان . ولكن المؤمنين غافلون عن حقيقة إيمانهم ، فأصبحوا لا يستخدمون عقولهم في معرفة العقيدة حتى يعرفوها معرفة جيدة ،

وكلما أمعنوا النظر والتفكر في الكون والخلوقات المشاهدة إلا وازدادوا إيماناً بالله عز وجل ، وعلموا به ، وخشية منه ، ولكن لا يبحثون عنها بدعوى أنها مقدسية لا تمس ، أو بدعوى أنها تتعالى عن العقول ، ولو قدر الناس حرية العقيدة الدينية لما تاملوا من البحث والنقاش فيها ، وهذا النقاش ليس من الجدل المحظور التي وردت فيه الأحاديث الشريفة بالنهاى عنه .

قضية العقيدة خطيرة جداً لأن خطأها يطبق على الإنسان طول العمر ، وفي ظلمات القبر ، ومن بعد ذلك يأتي البعث والحساب في عالم الخلود .

كيف لا يفكر الانسان في قضية المعاد ؟ وإنما نرى الموت تقسم رقاب الجبابرة والطغاة والظلمة الذين لم تزل قلوبهم عن الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن الضياء إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة النساء إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن الانس إلى وحشة القبر ، ومن صحة الذات وتنعمها إلى تشويها وتزقيها ...

فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر بالبقاء ، وسبحان من جعل الموت مخلصاً للأتقياء ، والقبر سجنًا للأشقياء ..

من كان الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة مواعده ، والجنة أو النار موعده ، كيف لا يفكر في قضية البعث والحساب ؟ كيف لا يذكره ولا يستعد له ، ولا يتدبر في مصيره ولا يهتم به ؟ كيف لا يعد نفسه من الموتى ، وهو يرى كل يوم يحمل إلى القبور من أهله وذويه وأقربائه وأصدقائه . قال رسول الله ﷺ : « الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » (1) وقساء القلوب يغفلون عن الموت حتى يهجم عليهم فجأة ، وإذا ذكروهم به نفروا منه ، هؤلاء هم الذين قصدهم القرآن بقوله : ﴿ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ ما دام هناك إيمان

(1) رواه احمد وابن ماجه والحاكم والترمذي قال : حديث حسن . عن شداد بن أوس

بذلك اليوم الموعود ينتفع الانسان من استعمال عقله في تثبيت الايمان في قلبه وصيانه ، ولكن ذوي العقول الممتازة العارفين بالله هم الذين يستطيعون مجاهدة الأهواء . وأخلص مراتب التوحيد التي بنيت على النظر والاستدلال كما يقال ...

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد الكفر جَحْدُ الحقّ - والحقّ هو الله سبحانه وتعالى ، فمن طلب الحق خاليا من الغرض والهوى فقد بريء من الكفر ..

أما المغضوب عليهم والضالون ، فهم ممن وصفهم القرآن بقوله : ﴿ وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ (سورة النمل) وقال أيضا : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (سورة الأنعام) .

من ثمرة العقل معرفة الله الضرورية والمكتسبة

من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته وعلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :
« العقل ثلاثة أجزاء : جزء معرفة الله ، وجزء طاعة الله ، وجزء الصبر عن معصية الله » (1) ، وقال عليه الصلاة والسلام :
« الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء ، وماله العفة ، وثمرته العلم » .

فمعرفة الله العامة مركوزة في النفس وهي معرفة كل أحد أنه مفعول وأن له فاعلا فعله ونقله .

وأما معرفة الله المكتسبة ، فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت له من الصفات وما يجب أن ينفي عنه ، وهذه المعرفة هي التي دعت إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا قالوا كلهم : قولوا لا إله إلا الله ، ولم يدعوا إلى معرفة الله تعالى ، بل دعوا إلى توحيده ، وهذه المعرفة هي المكتسبة ، وتكون على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : لا يكاد يدركه إلا نبي وصديق وشهيد ومن داناهم وأنها تكون بالنور الإلهي بحيث لا يعتريه شك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ (سورة الحجرات) .

والوجه الثاني : يدرك بغلبة الظن ، أعني الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (سورة البقرة) .

الوجه الثالث : يدرك بخيالات ومثل وتقليدات فيقول الله في حق هذا الصنف من الناس : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (سورة يوسف) .

(1) رواه أبو نعيم عن أبي سعيد مرفوعاً - وفي اسناده - سليمان بن عيسى - وضاع

فألوجه الأول يجري مجرى إدراك الشيء من قريب ولذا قال الله في حقهم : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (سورة ق) والثاني يجري مجرى إدراك الشيء من بعيد ، وقد تعثر به شبهة لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (سورة الاعراف) .

الثالث يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عن هذه حالته بقوله : ﴿ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ (سورة الجاثية) .

ولأجل معرفة الله على الحقيقة يجب أن يتخلص من آفات الشرك ، قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (سورة يوسف) وقال تعالى : ﴿ قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ (سورة الزمر) ، وقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ (سورة البينة) ، وقال تعالى : ﴿ قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ (سورة الزمر) ، وقال عليه الصلاة والسلام :

« من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » (1) . وغاية معرفة الانسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات وجواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ، ويعرف أثر الصحة وأنها محدثة وأن محدثها ليس أياها ولا مثالها بل هو الذي يصح ارتفاعها مع بقاءه تعالى : ولا يصح بقاءه وارتفاعه ، وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق (ض) « سبحان من لم يجعل خلقه سبيلا الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » ، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام :

« تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في ذات الله » (2) .

(1) رواه البزار عن أبي سعيد - صحيح -

(2) رواه أبو نعيم في الحلية - عن أبي هريرة - وهو حسن -

ولما كانت معرفة الله تصعب على كل إنسان لقصور فهمه جعل له من نفسه وبدنه عالما صغيرا أوجد فيه ما هو موجود في العالم الكبير ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر ، وفي الليل أو في النهار ، فان نشط وتفرغ الى العلم نظر في العالم الكبير ليعزز علمه ويتسع فهمه وعقله وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه ، ولذا قال الله عز وجل : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (سورة الذاريات) .

قال ابن الخطيب في تفسير هذه الآية : لو تأملتم في أنفسكم لوجدتم العجب العجائب ، أنظروا مثلا كيف أنشأكم ابتداء من طين ، ثم كيف خلقكم من نطفة في قرار مكين ، بل أنظروا إلى النطفة نفسها ، وكيف يتكون منها الجنين الذي لا يتكون إلا من الاتحاد بين جرثومة الذكر وبويضة الأنثى وبذلك تتكون الخلية ، يحدث انقسام بينها إلى خليتين ، ثم انقسام آخر لكل من الخليتين ، ثم آخر للمقسمين ، وآخر ، وآخر ، وهكذا دواليك إلى أن يصل العدد إلى أربعين خلية من الخلايا ، حتى يزيد مجموع الخلايا التي يتكون منها الانسان الواحد عن سكان الكرة الأرضية أكثر من ألف مرة . وكل خلية من هذه الخلايا تعيش بمعزل عن هذه الخلايا كل منها بمثابة مصنع للانتاج . فمنها ما ينتج الشعر ، ومنها ما ينتج الأظافر ، ومنها ما ينتج العظام ، ومنها ما ينتج الدم وهكذا ...

ومتى نضجت هذه الخلايا ، واكتمل نموها ، تخصص كل منها في تكوين نوع واحد من الأنسجة والأعضاء .

ومن هذه الخلايا ما ينتج الجهاز العصبي النقي يتوقف عليه إيصال الرسائل من الحواس والأعضاء المختلفة إلى المخ ، ومن المخ تنتقل إلى الرسائل التي هي بمثابة أوامر وأحكام إلى العضل والأطراف التي تتحرك بموجبها تبعا للظروف المحيطة بالإنسان وإلى الغدة الجمة ، فتفرز سائلا معيننا وفقا للحالة التي يجاهاها الشخص كالدموع واللعاب .

مثال ذلك : إذا أبصر إنسان لصا أمامه بيده خنجر : فإن الجهاز الشخصي يوجه إلى المخ إشارة بذلك الخطر المحدق ، فتتلقى الجوارح من

المخ إشارة بما يجب اتباعه وقد يشير المخ تبعا لسلوك شخص الإنسان بالفرار من اللص ، أو بالهجوم عليه ، وانتزاع الخنجر من يده ، أو بمبادرته بطلقة من مسدس ، أو ضربة من عصا ونحوها على أن الزمن الذي تستغرقه هذه الرسائل الذاهبة والآتية - يدق على أي آلة أو أداة لا سلكية لا يتجاوز ذلك الزمن إلا جزءا من مائة جزء من الثانية الواحدة . فعلاقة الحواس بالمخ علاقة ثابتة ما ثبت الوعي والإدراك للذات يتفرع منها التمييز والتصور والذاكرة ، والتعليل والطموح ، وإدراك الهدف .

ولا يخفى ما في خِلقة المخ من أعاجيب وغرائب ، فمن أعجب الأعاجيب إختزان العلوم والمعارف والمدارك والمحفوظات ، واستخراج ما يريد من ذلك من سجلاتها المرتبة المبوبة في ظرف ربما لا يتجاوز ارتداد الطرف فبواسطته وذنباته يعجز اللسان عن وصفها ويضيق الجنان عن الإحاطة بها .

هذا وقد دلَّ الفحص المجهرى على أن عدد الخيوط العصبية في المخ يتجاوز عشرة آلاف مليون .. كل واحد منها تدب فيه الحياة ، ويحمل وظيفة عضوية يؤديها على أكمل وجه . وعلى هذا المنوال تؤدي أجسامنا - بما احتوت عليه من أعضاء - وظائفها ذات الأهداف المتباينة بغير وعي منها ، الأمر الذي يدل دلالة قطعية على أن هناك إرادة عليا تسيّرهما وتوجّهها .

ولو لم يكن في بديع صنع الإنسان : سوى أنه يأكل الطعام ، ويشرب الشراب في مدخل واحد ثم يخرج كلاهما من مخرج منفصل عن الآخر . لكفى ذلك عجبا . وناهيك بما يفعله الجسم بالطعام والشراب حين يهضمها ويأخذ أطايبها ثم يلقي بنفاياتها بعد أن يستنفد وقوده ، ويأخذ حاجته ويستوعب كفايته فتبارك الله أحسن الخالقين

ولو تأملت حواسكم لوجدتم أعجب العجائب . أنظروا إلى حاسة اللمس وكيف أنكم تستطيعون بها الفرق بين الناعم والخشن ، والبارد والحار ، واللين والرخو ، وانظروا أيضا الى حاسة الشم ، وكيف تستطيعون بواسطتها

معرفة زكي الرائحة من رديئها وطيب النهكة من فاسدها ، وانظروا أيضا الى حاسة الذوق ، وكيف تستلذون بواسطتها على تذوق الأصناف والطعوم ومعرفة الحلو والحامض ، والمر والمالح . وكذلك البصر وانطباع المرأة عليه وانعكاسها على صفحة المخ لتترك آثارها . وكذلك السمع ، وانقلاب السموعات إلى مفهومات وانطباعات في حافظة المخ لتزودكم به وقت حاجتكم اليه . وهكذا سائر الأعضاء بما وهب لها الله تعالى من مزايا يضيق الخاطر عن حصر فوائدها ومنافعها .

فإذا ما فكر الإنسان في خلقه نفسه ، ودقة حواسه ، وتأمل هذه الآيات والأدوات التي صاغها الخلاق العليم ، وبرأها المدبر الحكيم .

وهل يستطيع الإنسان بما أوتي من علم ومال ، وجاه وسلطان أن يستعيز عن أحدها لو سلبها أو أن يردها بعد تلفها ، أو أن يفهم كنهها ، ويعرف سر تركيبها .

حقا لو تأمل الإنسان بعض ذلك لما وسعه إلا أن يقول .. ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومع هاتيك الدلائل المتظاهرة على وجود الله تعالى واستناد عالمنا في نشأته على قدرته جل جلاله . ومع إطراد البراهين على أن الدين حق وأن تعاليمه مناط الرشد ، وطوق النجاة . ومع ذلك كله فبين الحين والحين نسمع أمراً مهزوز الرأي ، والضمير يهرف بما لا يعرف ويظن الناس أن من أعلن الكفر بالله واليوم الآخر إنه في عداد العباقرة ذلك أن الطريقة التي تكوّن بها الجسم ، والتي يحيا بها أنا بعد أن أروع وأبدع ألف ألف مرة من أعظم المنجزات ، والكشوف التي عرفناها في هذا الزمن وغيره .

البحث عن معرفة الله سبحانه وتعالى

هو علم أصول الدين وهو أشرف العلوم ، وهو الفقه الأكبر بالنسبة الى فقه الفروع وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة ، لأنه لا حياة للقلوب إلا بمعرفة ربّها وبأسماؤه الحسنی وبصفاته وأفعائه ، ومن الحال أن تستقل العقول بمعرفة ربّها على التفصيل ، ولهذا بعث الله الرسل معرفين به وداعين إليه ، ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين ... ومن الأسباب الموصلة الى معرفته تعالى هو هذا الوجود الذي تمخر بنا سفينة الحياة عبابه ، وتنقلنا بين أغواره وشطآنه ، وتتدافع بنا في سكونه واضطرابه . هذا الوجود أغرى الإنسان منذ استهل في الحياة بالنظر إليه ، والتأمل فيه والبحث عن أسرارهِ الكامنة في كل كائن من كائنات الوجود . مع أن الوجود ، كتاب يستطيع كل إنسان أن ينظر فيه ، وأن يقلب صفحاته إلا أن كثيراً من الناس يَمَرُّون بآيات هذا الكون دون أن يصل شيء منها إلى عقولهم ، ودون أن تحرك فيهم شعوراً ، وتثير عاطفة ، قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (سورة يوسف) . وقد رأى المعرّي أن الحياة حين تدب في الكائن الحي تكون أشبه بالدخان ، ثم تشتد فتكون نارا ؛ ثم تخمد فتصير رمادا هكذا يقول :

تبدأ ضئيلة خافتة ، ثم تقوى شيئاً فشيئاً حتى تبلغ غايتها ، ثم ينتهى أمرها إلى الخمود فتكون رمادا ...

في هذا السبيل حشدت الإنسانية كل ما تملك من قوى الإدراك لكشف الطريق إلى تلك الحقيقة . كانت المهمة الأولى رسالات الرسل ، ودعوات الأنبياء ، فما كانت تلك الرسالات إلا تصحيحاً لعقيدة الناس في الإله أو شرحاً لها في المحصول الذي خلفه العلماء في مختلف الأمم في جميع الأجيال من المذاهب والأراء التي تدور حول الإلهيات وما يتصل بها .

وسائل البحث عن الله سبحانه وتعالى العقل ، فهو الرائد بمسالك الطريق الدالة على الله ... وما الإنسان إلا بهذا العقل الذي اختصه الله به

وكرمّه ، ورفع به منزلته بين المخلوقات وبهذا العقل قد استأهل أن يكون خليفة الله في الأرض وأنه يرى في نفسه القدرة على حمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... والعقل الذي يحمله الإنسان هو سلاح ذو حدين قد يكون مصباحا يضيء أو شهابا يحرق أو يحترق يستطيع العقل أن يعرف الله معرفة واضحة إذا وقف من هذا الوجود موقف التأمل البصير الذي يفرق بين الحقّ والباطل ، ويستدل على الخالق بالخلق فتلك هي وظيفة العقل في التعرف على الله ، وبهذا العقل المتزن الرشيد عرف العارفون ربهم وتعرفوا عليه وآمنوا به ..

كيف يبحث الإنسان عن معرفة الله في هذه الكائنات ؟ لهذا الوجود المحيط بنا وجهان ، وجه ظاهر يلقاه المرء بحواسه ويتجاوب معه بشاعره ، ووجه آخر خفى لا يقع في مجال الحس والمشاهدة فلا يستجيب لدعوة الحواس ، ولا يكون في متناول العقل ، وإنما يحس به الإنسان ببصيرته ...

هذا الوجود بوجهيه الطاهر والخفي قد شغل الإنسان بالبحث منذ برز إلى الوجود عن مالك هذا الوجود ومدبر أمره ومصرف شؤونه . وفي الإنسان نوازع نفسية تدعوه إلى البحث عن الله وهو إذ يستجيب لهذه النوازع إنما يستثير كل قواه ، ويستخدم كل ملكاته الى أن يتعرّف إلى الله سبحانه وتعالى ... فالإشارات التي تشير إليه إنما تنبعث من كل موجود من النبتة الصغيرة الى النخلة الباسقة ، من النملة التي تدب على الأرض إلى النور المحلقة في الهواء ، ومن كل كائن في الأرض إلى كل كوكب ونجم في السماء ، ففي كل كائن من هذا الوجود أكثر من إصبع تشير الى الخالق العظيم وتدعو إليه .

فالتطريق إلى الله إذاً متعدد المناهج والمسالك فإذا أردنا أن نتعرف إلى الله فلا نجد أكمل من هذا المنهج الذي يجعل الوجود كله كتابا يقرؤه الإنسان في حروفه وكلماته وأسطره وصفحاته وفصوله وأبوابه فكل هذه الآيات تدل على وجود الله وتحدث عن جلاله وعظمته وقدرته وحكمته .

فهذا الكتاب - أي كتاب الطبيعة - واقع تحت أنظار الناس جميعا ليس لأحد عذر إن هو أغلق حواسه ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة كي لا يعرف الله ، ولا يتعرف إليه ، فمن فعل هذا أهدر آدميته وتنكر لإنسانيته وأسقط حسابه من عالم الناس ، ودخل إلى عالم الحيوان الأعجم ...

إنَّ منهج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله والإستدلال عليه ، والتعرف عليه هو هذا المنهج الفطري الذي سلكه الإنسان . فقد دعا الإسلام إلى النظر في ملكوت السموات ، والأرض وجعل هذا النظر والتفكير هو المنهج القويم لمن يريد أن يعرف الله ويؤمن به . وقد أشار القرآن الكريم إلى أكل الناس عقلا وأرشدهم سبيلا فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار ﴾ (سورة آل عمران) وقال أيضا مشيرا إلى أسرار حكمته وكمال قدرته : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ (سورة الغاشية) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البينة التي تدعو العقل الى استعمال حقه في هذا الوجود الذي نشاهده .

آثار الله سبحانه وتعالى تتجلى لنا في هذا الوجود الذي تعمل فيه حواسنا وعقولنا دون أن تقع في مجال الحس والإدراك ، ولهذا فرض الله سبحانه وتعالى معرفة ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله على العباد من خلال آثاره في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين للناس جميعا أنه الحق .

فبذلك نعرف الخالق العظيم .

فكيف يكون الموقف مع الخالق العظيم ، والمصور المبدع وما أبدع وصوّر في هذا الوجود من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى ، فماذا تأخذ ، وماذا تدع ؟ ومن أين تبدأ ، وكيف تنتهي ؟ فتجد نفسك بعد النظر في

المخلوقات ، والتأمل فيها متشوقة الى رؤية هذا الخالق العظيم . إذا أردت أن تعرفه فادرس هذا الوجود عندئذ تتعرف إلى الله سبحانه وتعالى ، فالله قد مهّد للناس الطريق إليه ، وأقام على جوانبه معالم الهداية والرشاد فنظرة الى البحر فيها كل معالم الجلال والعظمة تكفيك عن هذا الوجود كله .

أما إذا كنت ممن يتعمقون في بحث المخلوقات فبحسبك قطرة ماء ، قطرة واحدة بالتحديد ، وعالجها بوسائل العلم الحديث فسترى أنها عالم كبير مليء بالأسرار .

إن أدنى المخلوقات منزلة وأهونها شأنًا وأصغرها جرماً لتحمل كل آيات الإبداع للمبدع الذي تذهل له العقول وتحار فيه الأبواب ولست أجد أروع وأبلغ من القرآن الكريم في الدفاع عن قضية الألوهية ، وإفحام المجادلين وأتى بمثالين منه :

الأول : أدعوك أيّها القاريء - أن تنضمّ الى هذا المجتمع الذي يجتمع فيه الناس جميعا الذي تحمله الآية إلى كل عقل ، وأدعوك ثانيا أن تجتهد نفسك لهذا الجمع فلا تذهل عن وجودك ، فإنك مطالب بأن تسمع وتعي ، وأن تنتهي إلى رأي فيما سمعت ووعيت أمستعد أنت ؟ فهذا صوت الحق يهتف بك ، وبالناس جميعا استمع الى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (سورة الحج) . ذبابة واحدة لا غير إنها تقف وحدها في جبهة والناس جميعا في الجبهة المقابلة لها إنها توضع في كفة الميزان والناس جميعا في الكفة الأخرى ، وإنها لترجح بهم جميعا . الذبابة تتحدى الناس جميعا في كل أمة ، وفي كل زمان تتحدى العلم الذي صعد بالناس إلى كواكب السماء ، هؤلاء الناس لن يخلقوا ذباباً واحداً ولو اجتمعوا له . هذا أنتم أيها الناس ، وهذه الذبابة هاتوا ما عندكم من علم ، واجمعوا ما عندكم من العلماء ودوروا مع الزمن دورات ودورات فلن تخلقوا ذباباً . هذا الذباب إن سلبكم شيئاً علق برجله أو بجناحه ، أو بفيه ماذا أنتم صانعون

معه ؟ لن تستطيعوا أن تستنقذوه منه لقد أفلت بصيده - إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه .

الذباب ضعيف كيف يسلبكم شيئاً تعجزون عنه ضعف الطالب والمطلوب .

المثال الثاني : بين الله سبحانه وتعالى نشأة الانسان وتكوينه وتطويره حتى أبرزه إلى الوجود على هذه الصورة البديعة الشكل في آيات بينات من القرآن الكريم ، وعرضها على الإنسان ليعرف عنصره المادي الذي خلق منه وهو التراب ، ومنه ينمو ، وركب الميول فيه إلى الذي تتطلبه ذاته فكانت هذه الآيات الكريمة مظهراً من مظاهر عظمته وقدرته وحكمته ، لعل هذا الإنسان يثوب الى رشده ويتدبر ما في الكون من آيات الله ، وفي نفسه وهذا أقرب باعث على إيقاظ الإيمان بالله والإعتراف به قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ يكفي أيها الناس أن تنظروا إلى أنفسكم فإنها عالم رحيب وكون فسيح تمنعوا في حياتكم من وجودكم نطفة الى أن صرتم رجالاً تجدون آيات بينات دالات على قدرة الخالق العظيم .

تدبروا كيف كان هذا الإنسان نطفة ؟ وكيف خلق ؟ ومن ثم عمر الأرض وتسلط على حيوانها ونباتها وجماها وكيف كان قبل وجوده ، وما هو عليه الآن من الصنع العجيب والتركيب المحكم والحواس المرفهة المتناسقة في إحكام بديع وإتقان عجيب ؟ وكيف زود بالعلم والمعارف والإحساس والشعور حتى صار يرى الأشياء المخفية عليه بعقله ؟ من الذي جهزه بهذه الأشياء كلها وخصه بوسائل الإدراك حتى فضل على سائر المخلوقات الأرضية وكيف نفخ فيه الروح ؟ .

يجب على الإنسان أن ينظر الى أصل نشأته وتطوره في الحياة ، فإنه يرى أن يداً حكيمة قادرة أوجدته من العدم إلى الوجود على هذه الصورة الرائعة من الحسن والجمال التي لا وجود لشبهه بينه وبين التراب وقد جعله الله خليفة على هذه الأرض . كيف لا يولي هذا المخلوق وجهه إلى فاطره ومصوره ولا يدين لخالقه بالطاعة والولاء ؟ قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا

الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ سورة المؤمنون ﴾ السلالة هي صفة ماء مني آدم وهو من طين ، أو السلالة هي أصل الإنسان ، وهي السلسلة التي يمتد بها أصل الشيء حتى يصل ما بين مبدئه وغاياته ، والآية الكريمة تشير إلى أن الانسان في تكوينه وتطويره وخلقته قد مر بأطوار كثيرة بين عالم التراب والنبات وسار مسيرة طويلة في سلسلة منتظمة الحلقات، من الطين الى الحما المسنون كما قال سبحانه وتعالى على لسان إبليس لعنه الله ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴾ (سورة الحجر) قال تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ .

ما الإنسان إلا هذه النطفة وما اشتملت عليه من قوّة عاقلة ناطقة مبصرة سمیعة مریدة . كانت النشأة الأولى لهذا الإنسان من التراب ، وفي هذا التراب كانت تكن جرثومته الأولى كما تكن النطفة في قرار مكين ، ولكن شتآن ما بين الجرثومة التي تكن في التراب والنطفة التي تستقر في الرحم ، فالجرثومة من مادة التراب والنطفة كائن بشري . وفي مواجهة المراحل الكثيرة التي مرّ عليها الإنسان كان كالنبات حيث تخرج الحبة نباتاً مثل النبات جاءت منه النطفة التي خلق منها الإنسان وإن بدت في مرأى العين مجرد ماء فهي في حقيقتها ماء مشوب بأشياء أخرى أودعتها فيه قدرة الله جل وعلا ، كما أودعت في البذرة صورة الشجرة ولون زهرها ، وطعم ثمرها كذلك هذه النطفة قد حملت في كيانها صورة الإنسان ولونه ومستوى إدراكه ، ومستودع عواطفه ومشاعره بحيث يتميز كل إنسان على غيره من بني جنسه في طباعه وعواطفه . قال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ . الأمشاج هي الأخلاط مزج الشيء خلطه . خلق الإنسان للإبتلاء ، ولم يخلق عبثا لأنه حمل أمانة التكليف التي لم تستطع السموات والأرض حملها فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .

هذه النطفة تخرج من بين الصلب والترائب . صلب الرجل هي فقار ظهره والترائب هي موضع القلادة من صدر المرأة . قال تعالى : (سورة الطارق) ﴿ فليَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ كل إنسان معه عقله فليَنظُرِ بهذا العقل الى قدرة الله في ذاته والأشياء مودعة فيها من العقل والسمع والبصر وتراكيبها المحكمة ، فإنه لو نظر بعين عقله لعرف طريق الحق وسلك مسلك الهدى . فمن أين خلق الإنسان والعقل والتفكير ؟ خلق من ماء دافق ...

هذه النطفة خلق منها الذكر والأنثى قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةٌ مِنْ مَنِي تَمَنَّى ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فَسَوَى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (سورة القيامة) هذه الآية الكريمة دليل من الأدلة الكاشفة على قدرة الله هي بعث الموتى من القبور . الإنسان الكافر ينكر البعث ويستبعده ، فليَنظُرِ إلى قدرة الله كيف خلقته ؟ ليعلم من أين بدأ ؟ وكيف صار ؟ وإلى أين ينتهي ؟ فخلق فسوى خلق الله تلك العلقه صورا وأشكالا فسواها في تركيبها العجيب المحكم وسواها حالا بعد حال ، وخلقاً بعد خلق حتى كان منها هذا الإنسان العاقل المفكر الذي يملأ الدنيا خيراً وشرّاً ، وبعد ما ينتهي أجله فيموت ، وينتقل من هذا العالم الى العالم الباقي عالم الجزاء والحساب قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ (سورة الحج) حيث كنتم لا وجود لكم ولا أثر يدل عليكم . ثم خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ كَمَا تَنْبِتُ الشَّجَرَةَ ثُمَّ كَانَ تَنْسَلِكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا تَتَوَالَدُ وَتَتَنَاسَلُ الْكَائِنَاتُ ...

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكُسُونَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ (سورة المؤمنون) عبر القرآن بلفظ ﴿ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً ﴾ والجعل دون الخلق إذ هو وظيفة من وظائف الخلق تتحرك النطفة نحو غايتها إلى تكوين مولود بشري سوي بالتنقل من النطفة إلى علقه إلى مضغه إلى

هيكل عظمي معرّى من اللحم إلى هيكل بشري يكسوه اللحم إلى جنين إلى طفل ...

من المتوقع أن تكون الحركة للنطفة من الجعل لا من باب الخلق لأن النطفة مجعولة ، وكل ما تعطيه هو من المجهول ولكن القرآن عبّر عن لفظ الجعل بلفظ الخلق ، فالنطفة لم تجعل علقه ، وإنما خلقت علقه ، ثم ﴿ خلقتنا النطفة علقه ﴾ والعلقه لم تجعل مضغة وإنما خلقت مضغة ﴿ فخلقنا المضغة عظاما ﴾ والمضغة لم تجعل عظاما وإنما خلقت عظاما فما سرّ هذا ؟ والله أعلم أن كل عملية من هذه العمليات هي خلق جديد لا يملكه إلا الله الخالق جل وعلا ، وهذا الخلق مما استأثر به الله سبحانه وتعالى وحده ، أبى على خلقه أن يشاركوه في هذه الصفة ، وإن كان بعض المفسرين يفسرون الخلق بالضرورة بمعنى خلقنا النطفة علقه أي صارت النطفة علقه . قال تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ إشارة إلى نفخ الروح فيه بعدما وصل إلى هذه الصورة .

وقوله : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وهو تجيد لله وتسبيح لجلالته وعظمته ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميّتون ﴾ هذه حقيقة واقعة يعلمها جميع الناس وهي تنبيه وإيقاظ للنائمين الذين هم في خوض يلعبون والموت ليس هو نهاية الحيّ ، بل انه مرحلة من مراحل وجوده وموقف يتحول به من عالم الى عالم آخر فيه حساب وجزاء ...

خاطب الله الإنسان المكذّب بالبعث بقوله : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدّرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذّبين ﴾ (سورة المرسلات) هذه الآية الكريمة دعوة إلى هؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث أن يعيدوا النظر في موقفهم هذا حتّى يخلّصوا أنفسهم من هذا الويل المطل عليهم فتلك هي فرصتهم الأخيرة ، وإلا أقلعت سفينة النجاة وتركتم يغرقون في أوهامهم حتى يدخلوا النار ، كيف يستبعد هؤلاء المكذّبون البعث ؟ ألم يخلقهم الله من ماء مهين ؟ فما الفرق بين خلقهم من هذا الماء المهين ، وبين بعثهم من التراب .

الماء المهين هو ماء الرجل ليس كما يبدو في ظاهر الأمر شيئاً محقراً أشبه بفضلات الإنسان ، وإنما هو في حقيقته حياة تضم في كيانها هذه المخلوقات البشرية . لهذا صانه الله وأودعه القرار المكين الذي أعدّ لحفظه ، قال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ أي أحكنا مسيرة هذه النطفة في الرحم وتقلبها فيه من طور الى طور وذلك بقدر معلوم ، ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ هذا ثناء من الله سبحانه وتعالى على ذاته الكريمة التي لا يحسن الثناء عليها ولا يوفيها حقها إلا هو سبحانه وتعالى وفي هذا يقول الرسول ﷺ في تجويد ربه والثناء عليه : « سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (1) .

1 (أخرجه مسلم في صحيحه ومالك في الموطأ - والترمذي والنسائي عن عائشة

- أقسام التوحيد -

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

1 - توحيد الربوبية 2 - وتوحيد الألوهية 3 - وتوحيد الأسماء والصفات .

(1) توحيد الربوبية : الرب له أربعة معان : هو الإله والسيد ، والمالك والمصلح ، كل هذه الأسماء موجودة في رب العالمين ، ومعنى العالمين أن يراد به كل موجود سوى الله . وتوحيد الربوبية هو الإقرار بأن الرب خالق كل شيء مثل الخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، وتدير الأمور وإنزال الغيث ونحو ذلك .

وهذا النوع من التوحيد قد أقر به الكفار على عهد محمد ﷺ ولم يدخلهم في الإسلام قال تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، سيقولون لله ﴿ (سورة المؤمنون 75) ﴾ . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴿ (سورة لقمان 24) ﴾ . يعترفون بأن هذه الأشياء خلقها الله ولكنهم لا يؤمنون به ، ويعبدون أوثاناً ويقولون تقربنا إلى الله زلفى . وليس للعالم صانعان متكافآن في الصفات والأفعال ...

والرب هو الذي يرزق عبده فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى جميع مصالحه ومنافعه التي بها كماله وسعادته في الدارين يهديه إلى اجتناب المضار التي فيها فساد وهلاكه فيجتنبها . وهذا التوحيد توحيد الربوبية حق لا ريب فيه ... وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تنتظم هذا الاسم الجليل قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (سورة الفاتحة) . وقال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴾ (سورة الرعد 31) . وقال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (سورة هود 161) . وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت ﴾ (سورة الفرقان 58) . وقال : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (سورة المزمل 8) . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ربوبيته .

2 (توحيد الألوهية : هو توحيد الله بأفعال العباد التي تعبدهم بها ،
وشرعها لهم مثل الدعاء والذبح والنذر والإستعانة والإستغاثة الى غير ذلك
وهذا النوع من التوحيد هو الذي جحده الكفار وكانت الخصومة فيه بين
الرسل وأمهم من لدن نوح إلى نبينا محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ ولقد أوحى
إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن
من الخاسرين ﴾ (سورة الزمر 62) .

والشرك أنواع : يجب أن يكشف الغطاء عن هذه الأنواع . والله عز
وجل ما أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض وما بينهما وما
فيها من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى إلا ليعرف ويعبد ويوحّد ،
ويكون الدين كله لله ، والطاعة كلها له ، والدعاء له وحده . قال تعالى في
(سورة الذاريات) ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما
أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق
ذو القوة المتين ﴾ . وقال : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما
بينهما إلا بالحق ﴾ (سورة الحجر) . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة
الدالة على توحيد وقدرته . ولقد أوجب الله على المسلم المكلف أن يعرف
الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأن يعبد وحده لا يشرك به شيئاً وأن يقوم
الناس له بالقسط ، والقسط هو العدل ، ومن أعظم العدل التوحيد ، ومن
أقبح الظلم الله سبحانه وتعالى الشرك . قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم
عظيم ﴾ (سورة لقمان 12) . والشرك بالله أكبر الكبائر لا يغفره الله .
وإذا عرفت أن التوحيد هو العدل ، والشرك هو الظلم والجور فحينئذ
تعرف أحكم الحاكمين وأعلم العالمين . وتعلم أيضاً أن ما فرضه الله على عباده
من العبادات والطاعات حق ، وما حرم عليهم من الفواحش والمخالفات
لأحكامه فهو في صالح الناس وتفاوت الطاعات والمعاصي يكون على حسب
مراتب الإيمان فلما كان الشرك منافياً للتوحيد كان أكبر الكبائر على
الإطلاق ، وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله لأهل
التوحيد . وأبى الله سبحانه وتعالى أن يقبل من المشرك عملاً ، أو يقبل فيه
شفاعة ، أو يستجيب له في الآخرة دعوة . إن المشرك أجهل الجاهلين بالله
حيث جعل له نداً من خلقه ، وهذا غاية في القبح والظلم . هل يشرع الله

سبحانه وتعالى التقرب إليه بالشفعاء والوسائط كما يفعل الناس مع ملوك الدنيا ؟ هذا يستحيل على الله قال تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (سورة المندر 38) . يمتنع أن تأتي به شريعة سماوية ولهذا لا يغفر الله الشرك من دون سائر الذنوب كما قال في كتابه الكريم : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (سورة النساء 47) ...

الشرك أنواع : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله هذا الشرك يسمى شرك . ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وبما وصفه به رسوله الكريم ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل . شرك التعطيل هو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون ، إذ قال لسيدنا موسى عليه السلام : وما رب العالمين ؟ وقال تعالى خبراً عنه : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ﴾ (سورة غافر 37) . فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل .

والشرك الثاني هو شرك الدعوة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ (سورة العنكبوت 65) . وأما الشرك الثالث فهو شرك الحبة ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ (سورة البقرة 164) . والشرك الرابع : شرك الإرادة والقصد ، قال تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ (سورة هود 15) . وينقسم الشرك إلى أكبر وأصغر : الشرك الأكبر هو اتخاذ الند إلى الله سبحانه وتعالى بأن يدعو أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كحبة الله ، أو يذبح له أو ينذر له ؛ أما الشرك الأصغر فهو اتخاذ كل وسيلة يتطرق بها إلى الشرك الأكبر ، كقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت ، وكذلك الرياء في العبادات والأعمال

والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وهذا من الله ومنك وأنا بالله وبك .
ومالي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك .

والفرق بين الشرك الأكبر والأصغر : هو أن الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبه ، وأما الشرك الأصغر فتحت مشيئة الله . والشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال . وأما الشرك الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه الشرك الأكبر مخرج من الملة الإسلامية ، وأما الشرك الأصغر فلا يخرج منها . إن صاحبه الشرك الأكبر خالد في النار ، وأما الشرك الأصغر فكفغيره من الذنوب وقيل إنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة كالشرك الأكبر والله أعلم ..

(3) توحيد الأسماء والصفات

إن توحيد الأسماء والصفات هو الإيمان بكل ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة من صفات الله ، التي وصف بها نفسه على الحقيقة ، وعدم التعرض لها بشيء من التكيف أو التمثيل أو التشبيه والتأويل أو التحريف أو التعطيل ، وهو الاعتقاد بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (سورة الاخلاص) .

مفهوم الألوهية في الشريعة الإسلامية

من المشكلات التي تواجه العقل - مفهوم الآلهة وتصوره - فقد اصطدم العقل بهذه المشكلة اصطداماً كبيراً ، ووقف منها موقف الحائر التائه الذي ضل الطريق وغرق في مجاهل الصحراء .

إن الاستدلال على وجود الله أمر لا يعجز أي عقل أن يصل إليه ، وأن يبلغ مرحلة اليقين منه إذ تقوم في مواجهة العقل دلالات واضحة ، وشواهد ناطقة تحدث عن وجود الله ، وتشهد بجلالته ، وعظمته وقدرته ولكن العقل لا يرضى إلا أن يشهد الذات وأن يتعرف عنها ومن أجل هذا أشرف على منطقة الخطر ، وصار يتيه ويدور هنا وهناك بلا جدوى ...

ماذا في القرآن عن ذات الله ؟ الذات الإلهية في القرآن ليست ذاتاً مبهمه أو مجهولة كما أنها ليست محدودة مجسدة ... هي ذات لا كالذوات التي يراها الخس أو يتخيلها الوهم ، لأنها لو وقعت في دائرة الخيال - مهما امتد واتسع كانت بهذا المعنى محدودة مقيدة وذات الله مع أنها فوق أن تدرك ، وفوق أن تحد - قد وصفت في القرآن بصفات كثيرة ، كالإرادة والعلم ، والقدرة وغيرها ، وهي صفات كاملة الكمال المطلق ... ومع هذا فلا تضاف هذه الصفات إلا لذات الله . جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات كقوله عز وجل : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . ففي هذه الآيات تعريف بذات الله وأنها تخلق وتعلم وكقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (سورة البقرة 184) . فالله سبحانه وتعالى مريد ، وإرادته تتعلق بمصائر الأمور وكقوله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (سورة الرعد 10) . في هذه الآيات يعلم ، فهو عالم ، وهو حكيم ، كل شيء عنده بمقدار ...

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾ (سورة الشورى 17) . فالله لطيف وقوي

وعزيز وكقوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ (سورة المجادلة 1) . وذات الإله ذات تسمع كل شيء ... وترى كل شيء ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (سورة آل عمران 66) . وإن أكثر فواصل القرآن تنتهي غالبا بصفة من صفات الله تعالى ، أو بالمزاوجة بين صفتين من صفاته فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ إن الله كان بكل شيء عليما ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكان الله بكل شيء محيطا ﴾ . ومن النوع الثاني وهو الأعم الأغلب قوله تعالى : ﴿ وكان الله غفورا رحيمًا ﴾ . ﴿ إن الله كان عليما كبيرا ﴾ . ﴿ والله واسع عليم ﴾ . ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . ﴿ إن الله كان بعباده حبيرا بصيرا ﴾ . وكلما ذكرت ذات الله ذكرت معها هذه الصفات ، وأكثر من هذا فقد جاء في القرآن الكريم آيات تذكر للذات عينا وأيد وأعينا ... قال تعالى : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (سورة طه 39) . وقوله : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ (سورة الفتح 10) . وقوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ (سورة المائدة 66) . وقوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ (سورة هود 37) .

كذلك وردت في السنة المطهرة أحاديث تذهب هذا المذهب . كقول الرسول الكريم ﷺ « خلق آدم على صورة الرحمن » وقوله ﷺ « لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة قدمه فيها فتقول قط ، قط . وعزتك فيزوي بعضها إلى بعض » (1) وقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء » (2) ...

(1) حديث صحيح . كما رواه الشيخان والترمذي . عن أنس -

(2) ورد بغير هذا اللفظ - صحيح - رواه أحمد في مسنده ، وابن ماجه . والحاكم - عن النواس -

فهذه الآيات وتلك الأحاديث وأمثالها لا يمكن أن يقرأها قاري ، أو يستمع إليها مستمع ، دون أن تتحرك في ذهنه صور لهذه الصفات التي يوصف بها الله ...

وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم - يتلون كتاب الله ، ويسمعون إلى آيات الكتاب وأحاديث الرسول فما وقفوا موقف تساؤل أو حيرة أمام صفة من صفات الله ، ولا وقع في تفكيرهم أن الذات المقدسة شيء ، وأن الصفات شيء ، أو أنها وجهان لحقيقة واحدة ، أو غير هذا مما دار حوله الجدل واشتد فيه الخصام بين جماعات المسلمين بعد أن مضى عهد الراشدين ، ودخلت في الإسلام مذاهب وأراء وفلسفات مع الذين دخلوا في دين الله .

يقول المقریزی : « إعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً ﷺ رسولا إلى الناس جميعا وصف لهم ربهم سبحانه بما وصف به نفسه الكريم في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه ﷺ الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى ، فلم يسأله ﷺ - أحد من العرب قرويههم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة ، والصيام والحج وغير ذلك مما فيه أمر ونهي ، كما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة والجنة والنار ...

ولو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه - ﷺ في أحكام الحلال والحرام وفي الترغيب والترهيب ، وأحوال القيامة ، والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ومجامعها ومسانيدها وجوامعها .

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يروقط من طريق صحيح ، ولا سقيم عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم - أنه سئل ﷺ - عن معنى شيء مما وصف الرب - سبحانه وتعالى - نفسه الكريمة في القرآن الكريم ، على لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك ،

وسكتوا عن الكلام في الصفات . نعم ... ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ... وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية ، من العلم ، والقدرة ، والحياء ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال ، والإكرام ، والجود ، والإنعام ، والعزة والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا وهكذا أثبتوا - رضي الله عنهم - ما أطلقه الله سبحانه وتعالى على نفسه الكريمة من الوجه ، واليد ، ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا - رضي الله عنهم - بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعظيم ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا .. ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت ...

ولم يكن عند واحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد - ﷺ - سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطريق الكلامية ولا مذهب الفلسفة إنتهى خطط المقريري .

وهكذا مضى عهد الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - دون أن يجد أحد منهم في صدره ثائرة شك فيما ورد في القرآن والسنة من الصفات ، وصف الله - سبحانه - بها ذاته ... بل صح فهمهم لتلك الصفات على الوجه الذي يزنه الله تعالى عن صفات المخلوقين ، ويجعل لذاته الكمال المطلق ولهذا وقع إجماعهم - دون قصد - على أن يسألوا رسول الله عنها ، وهم الذين لم يدعوا أمرا يتصل بأي شأن من شؤون الدين ، لم ينكشف لهم في جلاء ، إلا سألوا الرسول عنه ... فكيف يكون سكوتهم هذا السكوت الإجماعي عن هذا الأمر العظيم الذي هو أصل العقيدة وصميمها ؟

وهذا لا يصح لنا أن نسأل : كل ما ذكر عن ذاته وصفاته في كتاب الله . وفي حديث الرسول - من الوضوح والجلال - بحيث لا يحتاج الى سؤال أبدا ؟ ونستطيع أن نقول في الإجابة على ذلك : نعم ، فإن مفهوم الألوهية حين يعرف الإنسان الطريق اليه ، وحين يتلقاه بقلبه ، ويستقبله بفطرته لواضح أشد الوضوح .. إذ هو الكمال المطلق ، الذي سمح للإنسان أن ينطلق إلى ما لا نهاية له في السمو والإرتفاع بمقام الذات ... وكلما إنتهى إلى غاية مد بصره الى غيرها وهكذا أبداً ﴿ ليس كمثله شيء وهو

السميع البصير ﴿ (سورة الشورى) . وفي هذا المفهوم عاش الصحابة
والنابعون - رضوان الله عليهم - لا يسألون : ما الله ؟ وما عينه ؟ وما
قدرته ؟ وما علمه ؟

فلقد هدوا بفطرتهم أن لا جواب لهذه الأسئلة إلا ما يجده المرء في
قلبه ، وفي كيانه كله ، من تقديس الله وجلاله ، ونسبة الكمال المطلق كله
إليه !

ولقد هدوا بفطرتهم أيضا إلى أن العقل لا يستطيع أن يدرك كنه صفة
من هذه الصفات ، ولا أن يمسك بها على أية صورة ، فإن أي صورة لن
تكون هي أبدا ما دام الكمال المطلق هو صفتها .

إذا كانت فطرة الإنسان على الصحة والسلامة لا تتجه أبدا إلى الجدل
السقيم الذي لا يلد شيئا نافعا ، ولا يثر ثرا طيبا .

وبهذه الفطرة السلية إستقبل العرب الاسلام ، وكانت تعاليم الإسلام
كلها في العقيدة ، وفي الشريعة جميعا ومن هنا ندرك السر الذي أمسك به
العرب - صحابة وغير صحابة - عن أن يسألوا عن ذات الله وأن يبحثوا في
صفاته ، لأن ذلك أمر فوق أن يوجد له جواب ، أو أن يحيط به عقل ...

ومن هنا ندرك السر الذي أمسك بالعرب - مسلمين وغير مسلمين - أن
يواجهوا في القرآن وأن تقع منهم محاكاة له .. لأن محاولة كهذه المحاولة
عبث وسفه لا يرضاها عاقل ، ولا يتجه إليها خصوصا إذا كان القرآن في
مستوى يستحيل على بشر أن يطاوله ...

وإن الإيمان الذي يقوم على هذا الإحساس بالعجز المطلق عن إدراك
حقيقة الذات المقدسة هو الإيمان الراسخ الذي لا يتأثر بتيارات الفكر
وتقلبات التفكير ، إنه إيمان مستقر في الأعماق ، حيث لا أمواج
ولا تيارات ..

☆ معنى الحمد :

ومن الصفات التي اتصف بها الله سبحانه وتعالى الحمد ، والحمد هو الشناء
باللسان ، وبالفعل هو تعظيم المنعم على إحسانه إلى عباده وهو الشكر .

وأهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن في قلوبهم من محبة الله ما لا يماثلها فيها غيرها ، ولهذا كان الرب محمودا حمدا مطلقا على كل ما فعله ، حمدا خاصا به فهذا حمد الشكر ، أما حمد الفعل فهو خلق السموات والأرض وما بينهما ، والحمد خبر بحاسن المحمود مقرون بمحبته ، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة ، فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود ، ولهذا كانت العبادة مشتملة على تحميده وتوحيده وأفضل الذكر لإله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ، الله سبحانه وتعالى له الملك المطلق ، وحقيقة الملك إنما يتم بالعطاء والمنع ، والإكرام والإهانة ، قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (سورة آل عمران 26.27) .

وقال : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (سورة الرحمن 27) . يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويكشف غما ، وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانيا ويغني فقيرا ويحبر كسيرا ، ويشفي مريضا ، ويقيّل عثرة ، ويستر عورة ، ويعزّز ذليلا ، ويذل عزيزا ، ويعطي سائلا ، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ، ويداول الأيام بين الناس يرفع أقواما ويضع آخرين ، يسوق المقادير التي قدرها إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر ، بل كل منها قد أحصاه كما أحصى كتابه وجرى به قلمه ، ونفذ فيه حكمه ، وسبق له علمه ، فهو المتصرف في الملك كله وحده تصرف مالك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ، ولا يعارض فيه معارض ، فتصرفه في الملك دائر بين العدل والإحسان ، والحكمة والمصلحة ، والرحمة ، فلا يخرج تصرفه عن ذلك .

الملك والحمد في حق الله تعالى متلازمان ، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود في ملكه ، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته ، فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وحمد ثناء ومدح ، ويجمعها التبارك .

فتبارك الله يشمل ذلك كله ، ولهذا ذكر هذه الكلمات عقب قوله ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ (سورة الاعراف 53) . يجب على المؤمن أن يعرف الطريق الموصلة إلى الله عز وجل وهي شريعته المنتظمة لأمره ونهيه ، ثم تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم ، فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل إليه وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه ، قال تعالى : ﴿ **يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ (سورة غافر) . وقال تعالى أيضا : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (سورة الشورى 50) . ولا روح إلا فيما جاء به الرسول ﷺ ولا نور إلا في الإستضاءة به ، وسماه الله شفاء قال تعالى : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ (سورة فصلت 43) .

إن عبادة الله تُبنى على قاعدتين أساسيتين : هما حب لله كامل ، وذل تام له . ومنشأ هذين الأصلين هي النعمة الكبرى التي امتن الله بها على عباده ، وهي بعثة سيدنا محمد ﷺ بهذه الرسالة العظيمة الخالدة الخاتمة لجميع الرسالات السماوية ...

وإذا بنى المسلم سلوكه على محبة الله تعالى ، وخضوع تام له ، لم يظفر به الشيطان إلا على غرة وغيلة ، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ، ويتداركه برحمته . وإنما تستقيم له محبة الله باستقامة قلبه وجوارحه ، والإستقامة تكون بسببين : أحدهما أن تتقدم محبة الله على جميع محاب الدنيا ، وإذا تعارض حب الله مع حب غيره ، فيجب أن يسبق حب الله على غيره ، وما أسهل هذا بالكلام والإدعاء وما أصعبه بالفعل ! ، ونحن نتكلم عن محبة الله دائما ، فإذا تعارضت مع مصالحنا الدنيوية وشهواتنا وأهوائنا قدمناها على محبة الله ، وهذا هو الواقع في المسلمين الحاضرين إلا القليل الذين يقدمون محبة الله وقليل ما هم ، فإن محبة الله لم تكن متمكنة

من النفوس ولا هي مؤثرة عليها وسنة الله فيمن هذا شأنه أن ينزع الله من قلبه محبته ، وينقص عليه محبة شهواته ولا ينال منها شيئاً إلا بتأكيد وتنقيص جزاء له على إثارة هواه على الله سبحانه وتعالى ، وقد قضى الله قضاء لا يرد ولا يدفع إن من أحب شيئاً سوى الله عذب به ، وأن من خاف غير الله سلط عليه ، وأن من اشتغل بغير الله كان شؤماً عليه ، ومن أثر غير الله لم يبارك له فيه ، ومن أرضى غيره بسخط الله أسخط عليه .

واستقامة القلب تكون بتعظيم أمر الله ونهيهِ ، فإن الله ذم من لا يعظمه ، ولا يعظم شريعته قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ (سورة نوح 13) . أي ما لكم لا تخافون عظمة الله تعالى ...

والمؤمن يعرف ربه عز وجل برسائله التي أرسل بها رسوله إلى الناس كافة ، ومقتضاها الإنقياد لطاعته ، وطاعة أوامره عندئذ يكون صاحب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق ، وصحة العقيدة والبراءة من النفاق . ويجب على المسلم أن يعلم أن تفاضل الأعمال عند الله تكون بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وتوابعها ، وهذا العمل هو الذي يكفر السيئات تكفيراً كاملاً ...

التوحيد نوعان

التوحيد نوعان : نوع في العلم والإعتقاد ، ونوع في الإرادة والقصد ، ويسمى الأول التوحيد العلمي ، والثاني التوحيد القصدي والإرادي ، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة والثاني بالقصد والإرادة ... (ابن القيم) .

قال عبد الله بن مسعود من أراد أن ينظر الى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَعْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا يَكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعُهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ هذه الآيات محكمات من (سورة الأنعام 154) . وفيها عشر مسائل أولها النهي عن الشرك .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي : يا معاذ .. أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا ، قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال لا تبشرهم فيتكلموا - أخرجاه في الصحيحين -

يحتوي هذا الحديث على عدة مسائل منها العبادة لله ، والعبادة من التوحيد من لم يعبد الله لم يكن موحدا ، والثانية التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته .

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

ليس الإيمان بالظلم وهو خلط به والظلم هو الشرك بالله . الإيمان المصفى من الشرك هو الإيمان الذي يقبله الله من أهله ، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى ويجعلهم في أمن وسلام يوم يكون الكافرون في فزع وكرب . عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل . أخرجه الشيخان .

ومعنى لا إله إلا الله : طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات فينفي ما سوى الله ، ويثبت الاسم الشريف ، وهذا هو حقيقة التوحيد النفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات بدون نفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات ...

من حقق التوحيد دخل الجنة : قال تعالى ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ (سورة النحل) إن إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده أي يعوض مجتمعا يؤمن بالله بين مجتمعات كلها على الشرك والكفر ، وإن إبراهيم مع إيمانه قانتا لله أي خاشعا لله ، وكان حنيفا أي مائلا عن طرق الضلال والكفر ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ أي لم يشرك بالله أبدا وقال تعالى في (سورة المؤمنون) : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ ...

هؤلاء الذين ذكرتهم الآية الكريمة إنهم على صفات تؤهلهم لدخول الجنة ، فهم من خشية ربهم وخوفهم منه على إشفاق دائم من أن يعصوا أو

يفعلوا منكرا . ولهذا يؤمنون بأيات ربهم ويعملون بها ويهتدون بها . قد خلت نفوسهم من أثر الشرك ، وكانوا على خشية ومراقبة دائمة لله حتى إنهم يفعلون ما يفعلون من خير ويقدمون ما يقدمون من طاعات وعبادات لا تزييلهم الخشية ، ولا يبارحهم الخوف من الله ومن أنهم على تقصير في حقه تعالى ، وفيما يجب له من طاعة وولاء . إنّ هذه الصفات المذكورة في الآية تلتقي جميعا في قلب المؤمن بالله إلا أن المؤمن على حظوظ مختلفة منها فبعضهم تغلب عليه صفة الخشية من الله ، وبعضهم يؤمن بأيات الله ، ولكن تغلبه نفسه ، فلا تتحقق الخشية كاملة من الله في قلبه ، وبعضهم يعترف بوجود الله ويقر بوحدانيته إقراراً عقلياً ، كالفلاسفة ونحوهم . ولا ينقلون عن الرسل عليهم السلام ، ولا يأخذون مما معهم من آيات الله ، وبعضهم يؤمن بالله ، وبآيات الله ، وبرسل الله ثم يؤتون ما أتوا من طاعات وعبادات وهم في صراع مع أنفسهم ، وفي خوف من لقاء الله أن يكونوا قصّروا فهؤلاء جميعا يمكن أن يتجهوا إلى الخير ويجاهدوا أنفسهم لأنهم يحملون شرارة من الإيمان ، وأنهم على هدى من ربهم وعلى طريق الخير والإحسان ..

عن حصين بن عبد الرحمن قال : « كنت عند سعيد بن جبير فقال : أياكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت أنا ، ثم قلت : أما اني لم أكن في صلاة ولكني لدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت حديث حدثنا الشعبي ، قال وما حدثكم ؟ قلت : حديثا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لارقية الا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : عرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، اذ رفع اليّ سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، فنظرت فاذا بسواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا الرسول ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ

فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : أنت منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال سبقك بها عكاشة . الحديث رواه البخاري مطولا ومختصرا ومسلم والنسائي والترمذي ..

الرقية : هي العوذة التي يرقى بها الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات . قال ابن الأثير : (وقد جاء في بعض الأحاديث جواز الرقية ، وفي بعضها النهي ، والأحاديث في القسمين كثيرة ، ووجه الجمع بينهما أن الرقي يكره منها ما كان بغير لسان العربي ، وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه في كتبه المنزلة ، وأن يعتقد أن الرقي نافعة لا محالة فيتكل عليها .

الخوف من الشرك : قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (سورة النساء 47) . وقال الخليل عليه السلام ﴿ واجنبي وبني أن نعبد الأصنام ﴾ (سورة إبراهيم 37) . وفي الحديث : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال الرياء » رواه أحمد . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو من دون الله ندا (1) دخل النار » رواه البخاري ومسلم . عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار » ...

(1) ندا : النظير المشارك له .

الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة يوسف 108) . السبيل التي استقام عليها النبي بأمر ربه ودعا الناس إليها وأنه ليدعو إلى الله على هدى ونور من ربه فمن اتبع الرسول فقد عرف الحق فكان على بصيرة من أمره .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله . وفي رواية : إلى أن يوحّدوا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (أخرجه الشيخان) ، ولها عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لَأَعْطِينَ الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . يفتح الله على يديه ، فبات الناس يَدُوكُون ليلتهم أيهم يُعْطَاهَا ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه فأقْبَى به ، فبصق في عينيه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال : أنفذ على رسلِك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

تفسير التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله

قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة (1) أيهم أقرب ﴾ (سورة الإسراء 57) .

شرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب، فيه أكبر مسائل أهمها وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة . قال تعالى : ﴿ وابتغوا إلى الله الوسيلة ﴾ .

وحقيقة الوسيلة الى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة والوسيلة الراغب فيها إلى الله تعالى .

والتوسل بالنبي ﷺ هو الإستسقاء به في حياته وثبت التوسل بغيره أي بعد موته ﷺ باجماع الصحابة إجماعا سكوتيا في حديث عمر رضي الله عنه كما قال : « كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقيننا ، وانا نتوسل اليك بعم نبيك » ولم ينكر عليه أحد من الصحابة وأما التوسل بغيره فلا يجوز . والأصل هو أن تتوسل إلى الله بالله ، كأن تقول اللهم إنا نسألك بموجبات رحمتك ، أما التوسل بالعباد « فوساطة » يرفضها الإسلام لأنها نوع من الشرك .

الوسيلة : هي ما يتوسل به إلى الله تعالى من الأعمال الصالحة التي ترضي الله وتدني الإنسان من ربه ، وتقوى الله هي مطلوب كل مؤمن بالله ، ورغبة كل طامع في رضى الله ، ساع إلى مرضاته ولهذا فقد أمر الله الذين آمنوا بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ يأياها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ (سورة الحشر 18) . فليس الإيمان هو مجرد الإيمان ، وإنما الإيمان هو الذي ينتج التقوى ويستشعر المؤمن ان النهاية عظيمة وأن الحساب عسير إلا على المتقين .

(1) قال الراغب : الوسيلة التوصل الى الشيء برغبة وهي أخص من التوسل لتضمنها معنى الرغبة .

والتقوى هي اجتناب محارم الله ، وامتنال أوامره ، أو هي كما عرفها بعض العارفين : « ألا يراك حيث نهاك ، وألا يفتقدك حيث أمرك » .

التقوى صعب المنال ، غالي الثمن ، لا يقدر على الوفاء به إلا من رزقه الله قوة الإيمان ، وثبات اليقين ووثاقة العزم تلك هي بعض الوسائل التي يتوسل بها إلى التقوى وما يأخذ به بعض المسلمين من التوسل بالأموات ممن يعتقد في صلاحهم واستقامة سلوكهم في الحياة فيلمون بقبورهم وأضرحتهم طالبين قضاء حوائجهم التي قصرت عنها أيديهم ..

والذي يأباه الدين هو زيارة كثير من الناس قبور الصالحين ومسحهم بها ومناجاتهم وطلب الغوث منهم حتى كأنّ هذا الرجل الصالح يتصرف في الكون ..

قال الإمام الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية قال : « قد أكثر الناس من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات ... يا سيدي فلان أغثني ، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء ، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك ، وألا يحوم حول حماه ، وقد عدّه أناس من العلماء شركا ، وألا يَكُنْهُ فهو قريب منه ، ولا أرى أحدا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب ، أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء ، ويقدر بالذات ، أو بالغير على جلب الخير ، ودفع الأذى ، وإلا لما دعاه ولا فتح فاه ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ..

فالحرزم التجنب عن ذلك وعدم الطلب إلا من الله القوي الغني الفعال لما يريد » انتهى .

ومن وقف على سر ما رواه الطبراني في معجمه من أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤدي المؤمنين ، فقال الصديق - أبو بكر رضي الله عنه - هيا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاءوا إليه ، فقال : « إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله » (1) من عرف

(1) رواه الطبراني في معجمه .

سر ذلك فلا يستغيت بالموقى ولا يطلب منهم شيئا وإنما يستغيث بالله
ويطلب من الله .

قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا
تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (سورة الزخرف) .
فاستثنى خليل الرحمن من المعبودين ربه ، وذكر سبحانه أن هذه البراءة
وهذه المولاة هي الشهادة أن لاإله إلا الله فقال : ﴿ وجعلها كلمة باقية
في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ اتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ (سورة التوبة) . بين الله سبحانه
وتعالى أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحدا مع أن تفسيرها الذي
لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في غير معصية لا دعائهم إياهم أربابا
فهذا هو عين الشرك ..

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال لاإله إلا الله ،
وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز
وجل » وهذا من أعظم ما يبين معنى (لاإله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ
عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها لا يحرم ماله ودمه حتى
يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم
ماله ودمه .

الذبائح لغير الله

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة الأنعام) . قال الحافظ بن كثير يأمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويدبحون لغيره ، أنه مخالف لهم في ذلك ، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويدبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والانقياد بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال مجاهد : النسك هو الذبح في الحج والعمرة . قال الإمام ابن تيمية أمر الله نبيه ﷺ أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب أو التواضع والافتقار ، وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطهانة القلب الى الله وإلى عبادته ، عكس حال أهل الكبر والأنفة وأهل الغنى عن الله تعالى الذين لا حاجة لهم في صلاتهم الى ربهم ، والذين لا ينجرون له خوفا من الفقر ولهذا جمع الله بينهما في قوله : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ وعن علي رضي الله عنه قال : « حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن الله ولديه ، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غير منار الأرض » رواه مسلم .

اللعن : هو البعد عن مظان الرحمة ومواطنها ، واللعين هو الملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها . قال صاحب النهاية (أصل اللعن الطرد والابعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء ، وفي الحديث جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين ، وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان : أحدهما أنه جائز إختاره ابن الجوزي وغيره ، والثاني أنه لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام رحمهما الله تعالى ، وهو المتجه جميعا بين الروايات ، وقوله : (محدثا) روي بكسر الدال المهملة وبفتحتها ، فعلى الأول معناه نصر جانبه وآواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين من يقتص منه ، وعلى الثاني هو الأمر المبتدع نفسه ومعنى إيوائه الرضا به ، والصبر عليه ، فإنه إذا رضي بالبدعة ، وأقر فاعلمها ، ولم يترك عليه فقد

أواه ، ومنار الأرض بفتح الميم علامات حدودها ومعالمها يفعل ذلك ليغتصب من جاره أرضه والله أعلم .

من الشرك النذر لغير الله

قال تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ . الآية تدل على وفاء النذر ومدح من فعل ذلك ، فالنذر من العبادة وصفه لغير الله شرك ، فإذا أُنذر طاعة وجب عليه الوفاء بها ، والنذر قربة إلى الله تعالى ، ولهذا مدح الموفين به ، فإن نذر لمخلوق تقربا إليه وتشفعا منه له عند الله ، أو ليكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادته سبحانه غيره ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك . ووجه الدلالة من الآية الشريفة على هذا المعنى أن الله مدح الموفين بالنذر ، والله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك حرام ، وذلك هو العبادة ، فمن جاء به لغير الله تقربا إليه فقد أشرك .

قال ابن كثير : يخبر الله تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته بأوفر الجزاء للعاملين به إبتغاء وجهه . إذا علمت ذلك فأعلم أن هذه النذور الواقعة من عبادة القبور تقربا بها إليهم وليقضوا لهم حوائجهم ، أو ليشفعوا لهم شرك في العبادة بلا ريب كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ (سورة الأنعام) . قال الشيخ قاسم في شرح درر البحار النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للانسان غائب أو مريض ، أو له حاجة فيأتي إلى قبر بعض الصالحين ويجعل على رأسه سترة ويقول يا سيدي فلان إن رد الله غائبي ، أو عوفي مريض ، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من المال كذا ، أو من الشمع كذا ، أو الزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالاجماع لوجوه . منها أنه نذر لمخلوق ، والنذر له لا يجوز لأنه عبادة والعبادة

لا تكون مخلوق . ومنها أن النذر لميت والميت لا يملك شيئاً ، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر إلى أن يقال إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً اليهم محرم باجماع المسلمين نقل ذلك عنه ابن نجيم في البحر الفائق ، ونقله المرشدي في تذكرته وغيرها عنه وازدادوا وقال في شرح المنهاج قريباً من هذا . وكلام العلماء أهل المعرفة في هذا الباب كثير ، وكتاب الله وسنة رسوله يغنيان عن ذلك كله والله أعلم .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه » معناه أن نذر المعصية لا يجوز .

الاستعاذة بغير الله شرك

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (سورة الجن) .

(1) قال ابن كثير : الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجانبه من شر كل شر ، والعياذ يكون لدفع الشر ، وطلب الخير ، وهذا تمثيل ، والا فَمَا يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والانطراح بين يدي الرب والافتقار اليه ، والتدلل لديه أمر لا تحيط به العبارة .

(2) كان الرجل من العرب إذا أمسى بواد ، وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد كبير الجن قال مجاهد . كانوا إذا هبطوا واديا يقولون نعوذ بعظيم هذا الوادي . فزادوا كفرا وطغيانا . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره فلما رأَت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا أي خوفا وارهابا ودعرا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم .

وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » رواه مسلم

(3) في هذا الحديث دليل على أن الله شرع لأهل الاسلام أن يستعيذوا بكلمات الله بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ومعنى (التامات) كما قال القرطبي الكاملات التي لم يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر ، وقيل معناه الكافية الشافية قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويز التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها استعاذة بمخلوق وذلك شرك ، بل الله يعيذ المستعيذين ويعصمهم من شر ما استعاذوا به .

وكان النبي ﷺ يستعيز ويقول : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » (1) فدل على أن رضا وعفوه من صفاته ، وكان يستعيز بعزة الله فيقول : « أعوذ بعزة الله وقدرته » (2) وقوله : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » (3) ولا يستعيز النبي بمخلوق أبدا ، ولا يستعيز إلا بالله ، أو بصفة من صفاته ، وجاءت الاستعاذة باسم الرب تارة وباسم الملك وباسم الإله في سورتي المعوذتين ، وقد جاء في الأثر أن الله سبحانه وتعالى يدعى بأسمائه الحسنى . كل طالب يسأل باسم يناسبه ويقتضيه ، وقد قال النبي ﷺ في حق سورتي المعوذتين : « إنه ماتعوذ المتعوذون بمشيئها » فلا بد أن يكون المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه . فيستعاذ من الشرور وأسبابها كالمعاصي ، والشرك والكفر وأنواع الظلم ، وهل زالت نعمة عن أحد قط إلا بشؤم معصية ؟

إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه ، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

ومن تأمل ما قص الله في كتابه الكريم من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه ، إنما هي مخالفة أمره ، وعصيان رسله ، وكذلك من نظر في أحوال عصره ، وما أزال الله عنهم من نعمة ، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل : إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم . فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته ، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه ، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس .

(1) رواه مالك في موطنه - باب الدعاء - X

(2) أخرجه مسلم . ورواه مالك في الموطأ عن عثمان بن أبي العاص - صحيح -

(3) أخرج القصة ابن هشام بطولها ، عن ابن اسحاق عن زياد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي مرسلا . ورجاله ثقات

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين ، فكل ما استعاذ منه ، أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم ، وإما سبب يفضي اليه ، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن وهي : « عذاب القبر ، وعذاب النار فهما أعظم المؤلمات ، وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال » (1) وهذان هما سببا العذاب المؤلم ، فالفتنة سبب العذاب وذكر الفتنة خصوصا ، وذكر نوعي الفتنة ، لأنها إما في الحياة ، وإما في الممات ، وفتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة بعد الموت ، فيتصل بها العذاب من غير تراخ ..

فهذه الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها من أكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعاذة على من لم يدع به في التشهد الأخير ، وأوجب ابن حزم في كل تشهد ، فإن لم يأت به فيه فبطلت صلاته ، واستعاذ رسول الله ﷺ من ثمانية أشياء فقال : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع (2) الدين وغلبة الرجال » (3) وتعوذ ﷺ « من المأثم والمغرم » (4) فإنها سببا الألم العاجل ومن ذلك قوله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك (5) » فالسخط سبب الألم ، والعقوبة : هي الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .

1 (أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة . - صحيح -

2 (أي ثقله .

3 (الحديث لاحد في مسنده ، ومسلم والنسائي عن زيد بن ارقم - وهو صحيح -

4 (شطر من حديث رواه مسلم رقم 588

وأبو داود رقم 183 والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة

5 (رواه مسلم ومالك ، وغيرهما . - عن محمد بن ابراهيم الحارث -

الاستعاذة بالله من شر ما خلق

نتكلم عن الشر ﴿ من شر ما خلق ﴾ (ما) هنا موصولة ليس إلا .
والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب الذي هو فعله
وتكوينه ، فإنه لا شر فيه بوجه ما . فإن الشر لا يدخل في شيء من
صفاته ، ولا في أفعاله ، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى فإن ذاته لها الكمال
المطلق ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وأوصافه كذلك لها الكمال
المطلق والجلال التام ، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله
كلها خيرات محضة ، لا شر فيها أصلا ، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له
منه اسما ، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ولعاد إليه منه حكم ، تعالى ربنا
وتقدس عن ذلك ، ولكنه تعالى يلهم النفس البشرية خيرا وشرها ليكنها
بعد ذلك المفاضلة والاختيار في صراع الايمان والضلالة ﴿ ونفس وما
سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وما يفعله الله سبحانه وتعالى من
العدل بعباده ، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض ، إذ هو
محض العدل والحكمة ، وإنما يكون بالنسبة إلى العباد ، فالشر وقع في تعلقه
بهم ، وقيامه بهم ، لا في فعله القائم به تعالى ، ونحن لا ننكر أن الشريك
في مفعولاته المنفصلة ، فإنه خالق الخير والشر وملهمها النفس إعداداً
للتكليف .

وينبغي أن نعرف جيدا : أن ما هو شر ، أو متضمن للشر فإنه
لا يكون إلا مفعولا منفصلا ، لا يكون لله تعالى ، ولا فعلا من أفعاله .
ذلك أن مقياس الخير والشر مقياس نسبي معياري له دائما وجهان ، فالشر
الذي ينزل على فرد واحد في شكل عقوبة مثلا يحقق خيرا عموما للمجموعة
التي يعيش فيها ذلك الواحد ، ويحقق له هو نفسه نجاة من النار .

مثال : إن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه ، وخير
محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ،
وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرا وحكما ، لما في ذلك من الإحسان إلى
عبيده عموما ، بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم ، فهو محمود على حكمه

يذلك ، وأمره به مشكور عليه ، يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة له ...

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماهم فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم ، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله ، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به ؟ أليس في عقوبة هذا الصائل خير محض ، وحكمة وعدل ، وإحسان إلى العبيد ؟ وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي .

فالشر ما قام به من تلك العقوبة ، وأما ما نسب الى الربّ منها من المشيئة والإرادة والفعل ، فهو عين الخير والحكمة فلا يغفل حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم ، والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق الى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته ، وإحسانه إلى خلقه وأنه سبحانه كما أنه هو البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العادل ، فلا تناقض حكمته ورحمته ، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم ، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته .. وبعض الطوائف يقولون : إنّ الأمرين - الخير والشر - بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلا ، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة .

يرد القرآن على هذه الأفكار ، وإنكارها أشد الإنكار ، وتنزيه الربّ نفسه عنها كقوله تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ . وقوله كذلك ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ . فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيء ونزه نفسه عنه تعالى عما يشركون .

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السلية : إن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته والوهيته لا إله إلا هو ، تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا .

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والاحسان ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة ، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان .

وكذلك وضع الاحسان والرحمة والاكرام في موضع العقوبة والانتقام ، كمن إذا جاء الى من يسيء الى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحریمهم ودمائهم فأكرمه غاية الاكرام ، ورفعته وكرمه ، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا ، وتشهد على سفه من فعله ، هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها ..

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة ؟ وإنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ، ولم يلق هذا التأويل بالفطر السلية ولظهرت مناقضة الحكمة ...

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ (سورة الكهف) فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقابا وجلالة وتهديدا كيف صدره ياخبارنا ، إنه أمر إبليس - لعنه الله - بالسجود لأينا فأبى ذلك ، فطرده ولعنه ، وعاداه من أجل ابائه عن السجود ، لأينا ثم أنتم توالونه من دوني ، وقد لعنته وطرده إذ لم يسجد لأبيكم ، وجعلته عدوا لكم ولأبيكم فواليتوه وتركتوني ، أفليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم ؟ ويوم القيامة يقول تعالى : ﴿ أَلَيْسَ عِدْلًا مِنِّي أَنْ أُولِيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ يَتَوَلَّى فِي دَارِ الدُّنْيَا ؟ ﴾ .

فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة : إذا ذهبوا مع

أوليائهم ، وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد فيتجلى لهم ربهم ويقول :
« ألا تذهبون حيث ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس
أحوج ما كنا إليهم ، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه
ونعبده . فيقول هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها ؟
فيقولون : نعم إنه لا مثيل له فيتجلى لهم ، ويكشف عن ساق
فيخرون له سجدا » .

فيا قرّة عين أوليائه بتلك الموالاة ، وما أفرحهم إذا ذهب الناس مع
أوليائهم ، وبقوا مع مولاهم الحق فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله
أنهم ما كانوا أوليائه ان أوليائه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون .

فما أحوج القلوب إلى معرفة ربها ، ونزولها منه منازلها في الدنيا لمتنزل
في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

من الشرك أن يستغيث المكلف بغير الله أو يدعو غيره

الإستغاثة هي طلب الغوث ، وهي إزالة الشدة ، والاستعانة : طلب العون ، قال بعض العلماء : الفرق بينها وبين الدعاء أنّ الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب والدعاء أعم منه ، فيجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة ، فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة ، والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، فدعاء مسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدا من دونه ممن لا يملك ضرا ولا نفعاً كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ ... ﴾

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه في الرسالة السنية : إذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب الى الاسلام ومرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة بهذه الأزمان قد يمرق أيضا من الاسلام لأسباب : منها : الغلو في بعض المشائخ كما غالت النصارى في المسيح عليه السلام فكل من غلا في نبي أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعا من الالهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان أنصرتني وأرزقني وعافني ، أو أنا في حفظك وحمایتك ورعايتك ، ونحو هذه الأقوال ، فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله سبحانه إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوه وحده ، لا شريك له ولا يدعون معه إلها ، والذين يدعون مع الله إلها آخر مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعبدونهم ويعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله فبعث الله سبحانه رسله تنهى أن يدعو أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة واستعانة : قال ومن جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعا ، نقله عنه صاحب الفروع ، وصاحب الانصاف ، وصاحب الاقتناع وغيرهم ..

قال ابن تيمية رحمه الله : اعلم أن الاستغاثة في الاسباب الظاهرية العادية في الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه تجوز ، كقولهم يا لزيد للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة وأما الإستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية في الشدائد ، كالمرض والغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه ، فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره ، والله أعلم ..
نقلوه عنه في الرد على ابن جرجيس ...

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَإِنْ يَمْسُكَ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ...

وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... ﴾ الآية ، قال ابن جرير : في هذه الآية : ولا تدع يا محمد من دون معبودك ولا خالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يضرك في دين ولا دنيا - يعني بذلك الآلهة - يقول : لو عبدتها راجياً نفعها ، أو خائفاً ضررها ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، فإن فعلت ذلك ودعوته من دون الله فإنك إذا من الظالمين ، أي المشركين بالله ، والله أعلم ، وحاشا الرسول أن يفعل ذلك إلا أن الخطاب خاص اللفظ عام المعنى ، فالله تعالى لا يخاطب الرسول ﷺ وإنما يخاطب من حوله من الناس ، ودلت هذه الآية على أنه سبحانه هو المتفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع دون كل ما سواه ، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده فإن العبادة لا تصلح إلا للمالك النفع والضر ولا يملك ذلك ولا شيئاً مما هنالك غيره كائن من كان من أوليائه أو أعدائه ، فهو المستحق للعبادة والدعوة وحده دون من لا يضر ولا ينفع ، فالخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ ولكنه عام للأمة .. والمقصود

أسد ذن الرسول ﷺ معصوم من الشّرك بل معصوم من الصفائر وعصمة الأنبياء والرسل من مسائل العقيدة في التوحيد .

وقوله تعالى : ﴿ فابتنغوا عند الله الرزق ﴾ أمر الله عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون سواه ممن لم يملك لهم رزقا من السموات والأرض . قال الحافظ ابن كثير : (معناه ابتغوا عند الله الرزق لا عند غيره ، لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئا من ذلك . أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له واشكروه على ما أنعم عليكم ، إليه ترجعون ، فيجازي كل عامل بعمله وقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله ﴾ الآية : فيه نفى سبحانه أن يكون أحد أضل غيره منه ، وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه الى يوم القيامة ، والآية تعم كل من يدعو من دون الله . والله أعلم .

وقوله عز وجل : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه هو الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك وأنه القادر على دفع الضر ، والقادر على إيصال الخير ، فهو المنفرد بذلك ، فإذا تعين - جل ذكره - خرج غيره من ملك ونبي وولي وغير ذلك .

وروى الطبراني بإسناده : « أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله ؟ » !

قول الله عز وجل ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ﴾ وقوله : ﴿ والذين تدعون من دون الله ما يملكون من قطمير (1) ﴾ .

قال المفسرون في هذه الآية وهي قوله ﴿ أَيَشْرِكُونَ ... ﴾ فيها توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئا وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكا للخالق في العبادة التي خلقهم لها ، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، فكيف يشركون من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ، وهذا برهان ظاهر ودليل باهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله . وهذا وصف لكل مخلوق حتى الملائكة والأنبياء والصالحين وأشرف الخلق محمد ﷺ كان يستنصر ربه على المشركين ويقول :

« اللهم أنت عضدي وأنت نصيري ، بك أجول وبك أصول ، وبك أقاتل » (1) .

وفي الصحيح عن أنس قال : شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته ، فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزل ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الحديث رواه البخاري تعليقا ووصله مسلم والنسائي والترمذي والامام أحمد بن حنبل ، قال ابن اسحاق في المغازي : حدثنا حميد الطويل عن أنس قال : كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج وجهه ، وجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله الآية .

وذكر ابن هشام في السيرة من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه ، وأن عبد الله بن قتيبة جرحه في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . فأخذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بيد رسول الله ﷺ ورفعته طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائما ، ومسح مالك بن سنان أبو سعيد الخدري

(1) رواه أبو داود (في الجهاد) . والترمذي (في الدعوات) . ورواه أحمد في مسنده - واسناده صحيح - وحسنه الترمذي .

رضي الله عنه الدم عن وجه رسول الله ﷺ ثم ازدرده ، فقال رسول الله ﷺ : « من مس دمه دمي لم تصبه النار ... » .

قال النووي : وفي هذا وقوع الاسقام والابتلاء بالأنبياء عليهم السلام لينالوا جزيل الأجر والثواب ، ولتعرف أمهم ما أصابهم من أهل الشر فيتأسوا بهم ، قال القاضي : وليعلم أنهم من البشر مخلوقون تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسادهم ما يطرأ على أجسام البشر ، ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا تفتن بما أظهر الله على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم ، والمؤمنون لهم أسوة حسنة برسول الله ﷺ بالصبر على الأذى الحاصل من الملحدين والمارقين وليجاهدوا وليثبتوا ❖ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ❖ .

العقيدة الاسلامية

تقوم العقيدة الاسلامية على ثلاث دعائم كلها يسلم العقل بها ، ويقوم الدليل المستمد من البدية عن صحته ، وليس فيه مجال لوهم ولا خرافة هي : الوجدانية والايمان بالغيب ، والرسل أجمعين ...

فأول هذه الدعائم - الايمان بواحد أحد هو الفرد الصمد ، ليس كمثلته شيء ، وهو السميع البصير هو منزّه عن مشابهة الحوادث لأنه غيرها ، ولا تتحقق هذه المغايرة إلا إذا كان من غير جنسها . هو خالقها ومبدعها ، والشيء لا يخلق بعضه بعضا ، فهو ليس جسما من الأجسام ، وليس عرضا من الأعراض لأنه خالقها وخالق كل شيء ، وهو فوق كل شيء ، وليس له مكان يحده ، لأن المكان هو الذي يحدد الأجسام وليس مركبا من أجزاء كما نتركب ، فهو واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، قد اختص وحده بالأشياء والتكوين ، فهو بديع السموات والأرض ، ليس بوالد ولا مولود ، وقد خلق الأسباب والمسببات ، ونظم الكون بحكمته ، وسيره بإرادته ، وأبدع نواميسه بقدرته ، وهو وحده المستحق للعبادة ، وليس في خلقه ما يحل هو فيه لأنه ليس جسما يحل في غيره .

التوحيد هو العباد الأول والأقوى للإسلام وتعاليم القرآن ، والذي شغلت الدعوة إليه وتقديره حيزاً كبيراً ينادي بتحرير الإنسان من سيطرة الأوهام والخرافات والخضوع لما لا يملك ضرا ولا نفعاً ، والتوسل بالوسائل الزائفة لحماية نفسه ، واتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله كما هو بارز في آيات عديدة من القرآن ، قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (سورة آل عمران) ، وقال في (سورة الزمر) : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهدي الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام . ولئن سألتهم من خلق السموات

والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴿١٠﴾ .

وقال أيضا في نفس السورة ﴿١١﴾ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴿١٢﴾ :

وذلك لما في عبادة غير الله والخضوع له والتوسل به من تسخير لقوى الإنسان ، وتعطيل لمواهبه وإذلال نفسه إذلالا من شأنه أن يظل راغبًا خائفا جزعا مما لا يبعث في الحقيقة على شيء من ذلك ، في حين أن التوحيد والإيمان بالله (بآله) واحد متصف بجميع صفة الكمال والحق والعدل والخير والقوة واعتبار كل ما عدا الله صغيرا مهما كبر فالله أكبر منه والانسان ضعيفا مهما قوى فالله أقوى منه ، وعاجزا مهما قدر فالله أقدر منه ، وفقيرا مهما غنى فالله أغنى منه ، فلا يتجه أحد إلى غير الله ، ولا يستشعر بخوف ، ولا رهبة من أحد غيره ، ولا يدل نفسه في حاجة لأحد غيره ، وناهيك بهذا قوة هائلة محررة لما أودعه الله في الإنسان من قوى الخوف وموجهة لها نحو الخير والصلاح والكمال في هذه الحياة ، ومساعدة له على القيام بواجباته الاجتماعية والانسانية ، ثم حافزة له على عدم الرضا بالظلم والقهر ، والتجبر والمرد على البغاة والمتجبرين والمتكبرين ، وبالإضافة إلى هذا فإن الدعوة إلى الله وحده قد انطوت على تقرير ما في الإيمان بالله وحده ، والاتجاه إليه وحده بالعبادة والدعاء ، من فوائد عظيمة متصلة بشؤون الحياة الدنيا صلة وثيقة من حيث توكيد استجابة الله لداعيه وذكره لذاكره ، وقدرته وحده على تفريج ما يحل فيهم من خطوب ، ومنحهم ما يرجونه من رغائب ، وتحقيق ما يأملونه من مطالب كما هو واضح في الآيات الآتية : ﴿١٣﴾ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴿١٤﴾ (سورة البقرة) . وقال في (سورة النمل) ﴿١٥﴾ أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم

خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم في
ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح نشرأ بين يدي رحمته
أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده
ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن
كنتم صادقين ﴿ ٤٠ ﴾ .

بعض معالم التوحيد في العقيدة

معالم التوحيد في الأخلاق هو ألا يصدر الإنسان ولا يرد في سلوكه الشخصي ، أو في سلوكه الاجتماعي الا عن توجيه إلهي .

ومعالم التوحيد في النية أن يكون الإنسان في كل ما يأتي وما يدع قاصدا وجه الله تعالى ، وأن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة وحدها ، وإنما الممات أيضا .

والتوحيد على العموم : هو أن يهب الإنسان نفسه لله في قيامه وجلوسه ، في نومه ويقضته ، في غضبه ورضاه ، في صداقته وعداوته ، في بيعه وشرائه ، في عمله وراحته ، في أفكاره وآرائه ، في توجيهه وإشارته ، في نصائحه وتحذيراته ، في كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها .

وإن توحيد الإنسان هو أن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له ويقترب الإنسان من المثل الاعلى الإسلامي بمقدار قربه من هذه المعاني عقيدة وأخلاقا ونية ، وقوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ إنما يشير بنا إلى خلوصه من كل شائبة شرك سواء أكان الشرك في العقيدة ، أم كان في الأخلاق والنية ، والله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا لله ولغيره فإنَّ الله سبحانه بريء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكا لله فالله بريء منه ..

علاقة الله بالإنسان

ليس من العجيب أن تكون علاقة الله بمخلوقاته - القائمة على العبودية إفراداً وإخلاصاً ودواماً وثباتاً - ، أو علاقة الانسان به هي محور للعقيدة الاسلامية التي عرضها القرآن ..

فقد وصف القرآن الكريم باعتبار ذاته : بأن الأول والآخر والظاهر والباطن ، والقيوم والواحد والحي والمتعالي ، والغني والقادر ، والباقي ، والعظيم والقهار ، والحديد والحديد ، والقوي المتين والعليم واللطيف ، والحكيم والسميع والبصير ، والمملك القدوس ، والبر الرحيم ، ونور السموات ، والحق إلى غير ذلك من الصفات التي تصور الله غنياً بنفسه أبدياً ، واسع القدرة والمعرفة ، محيطاً بكل شيء ، وأنه الحق وحده ...

وباعتبار صلته بمخلوقاته تحدث عنه بأنه الخالق ، وبأنه المبدئ والمعيد ، والبارئ ، والمصور والحيي والمميت ، والوارث والباعث ، والحافظ ومالك الملك ، والولي والمقتدر ، والجبار ... إلى غير ذلك من النعوت التي تبين أنه الخالق المطلق ، المدير الحاكم ، والمملك . الذي لا قوة غير قوته ، ولا سلطان غير سلطانه في الوجود .

وباعتبار علاقته بالإنسان : وصفه بأنه الرحمن الرحيم والغافر والغفور والغفار ، والعفو والحليم والشكور (الذي يجازي الناس على حمدهم) والصبور والرؤوف الودود الرقيب والشهيد .

وباعتبار علاقة الإنسان به : نعتة بأنه المهيمن والهادي والوكيل ، والولي والوهاب ، والرزاق والحبيب والمعطي والمغني ييسط الرزق لمن يشاء إلى غير ذلك من الأوصاف التي تدل على أن صلة العبد به صلة احتياج . فالعبد محتاج إلى عفوه وتدبيره ، والله هو الرقيب والحسيب عليه المهيمن على العباد جميعاً يعينهم ويهديهم ، فهو مصدر الرزق بأوسع معانيه ...

والله إذن هو الفاعل لكل شيء في الوجود ، وإرادته هي سبب ما في الوجود كله .. هو يضل من يشاء ويهدي من يشاء ... والإنسان المؤمن

لا يستطيع إزاء ذلك غير أن يرجو الله ويدعوه الهداية ، وأن يسأله ألا يجعله من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وكانوا في الآخرة من الخاسرين ..

هذا الاعتقاد في الله جل جلاله على هذا النحو ، كان واضحا عند رسول الله ﷺ ، وعند جماعته من المهاجرين والأنصار ، وكانوا يبشرون به ، ويدافعون عنه . وإذا تليت أي الذكر الحكيم قالوا : آمنا به كل من عند ربنا ، لم يلجأوا الى تفتيش عن التشابه فيه ، ولم تكن بهم حاجة إلى تأويله ... كان ذلك عنوان الجماعة المسلمة ومظهر إيمانها على عهد رسول الله ﷺ ، وكان حال المؤمنين حقا ..

ننقل بعض المعاني لأسماء الله الحسنى ، لابن قيم الجوزية من تفسيره لفتحة الكتاب

دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها ، وهي : الله ، والرب ، والرحمان والرحيم ، والملئك فبني على أصلين :

أحدهما : أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله ، فهي مشتقة من الصفات ، فهي أسماء وصفات وبذلك كانت حسنى ، إذ لو كانت ألفاظا لا معنى فيها لم تكن حسنى ، ونفي معاني أسماء الله الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنفال) . ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجوز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها ، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها ، وأثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله ، كقوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّهُ هُوَ الرزاق ذو القوة المتين ﴾ فعلم أن القوة من أسمائه ، ومعناه الموصوف بالقوة ، وكذلك قوله : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فالعزیز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويا ولا عزيزا .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ « إِنْ اللَّهُ لَا يَنَام وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَام ، يَخْفُضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ،

وعمل النهار قبل الليل ، حجاب به النور ، لو كشفه لاحتقرت
سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » فأثبت المصدر الذي
اشتق منه اسمه (البصير) ، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها
« الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات » ، وفي حديث الإستخارة
« اللهم إني استخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك » فهو قادر
بقدره ، وقال تعالى لموسى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالتني
وبكلامي ﴾ فهو متكلم بكلام ، وهو العظيم الذي له العظمة ، كما في
الصحيح عنه ﷺ يقول الله تعالى :

« العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي » ، وهو الحكيم له الحكم ﴿ فالحكم
لله العلي الكبير ﴾ وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه أو
بصره ، أو قوته أو عزته ، أو عظمته إنعقدت يمينه ، وكانت مكفرة لأن
هذه صفات كاله التي انشقت منها أسماؤه ..

لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسع أن يخبر عنه
بأفعالها ، فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد ، فان ثبوت أحكام
الصفات فرع ثبوتها ، فاذا انتفى أصل الصفة إستحال ثبوت حكمها ..

روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل ﴿ الذين
يلحدون في أسمائه ﴾ قال : يكذبون عليه ، وهذا تفسير بالمعنى ،
وحقيقة الإلحاد فيها : العدول عن الصواب ، وإدخال ما ليس من معانيها
عليها ، وإخراج حقائق معانيها عنها ، هذا حقيقة الإلحاد ، ومن فعل ذلك
فقد كذب على الله ، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب ، وهو غاية الملحد ،
في أسمائه تعالى ، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها ، وخرج بها عن
حقائقها أو بعضها ، فقد عدل بها عن الصواب والحق ، وهو حقيقة
الإلحاد ، فالإلحاد : إما بحدودها وإنكارها وإما بجحد معانيها وتعطيلها ،
وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة .

الأصل الثاني : إن الإسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات
والصفة التي اشتق منها بالمطابقة ، فإنه يدل داليتين أخريين بالتضمن
واللزوم ، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن ، وكذلك على الذات المجردة عن

الصفة ، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم . فان إسم السميع يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن ، وكذلك اسم (العلي) واسم الحكيم وسائر أسمائه ، فان من لوازم اسم (العلي) العلو المطلق من جميع الوجوه : علو القدرة ، وعلو القهر وعلو الذات ، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه (العلي) .

وكذلك اسمه الظاهر من لوازمه : ألا يكون فوقه شيء كما في الصحيح عن النبي ﷺ « وأنت الظاهر فليس فوقك شيء » بل هو سبحانه فوق كل شيء فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم إسمه (الظاهر) ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدرة فقط ، كما يقال : الذهب فوق الفضة ، والجوهر فوق الزجاج ، لأن هذه الفوقية لا تتعلق بالظهور ، بل قد يكون المفقو أظهر من الفائق ، فيها . ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط وإن كان سبحانه ظاهرا بالقهر والغلبة لمقابلة الإسم (بالباطن) وهو الذي ليس دونه شيء ، كما قابل الأول ، الذي ليس قبله شيء ، بالآخر ليس بعده شيء .

وكذلك اسم الحكيم من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله ، ووضعه الأشياء في مواضعها ، وإيقاعها على أحسن الوجوه ، فانكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه ، وكذلك سائر أسمائه الحسنى ..

التعريف باسم الجلالة

إذا تقرر هذان الأصلان : فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى ،
والصفات العليا بالدلالات الثلاث فإنه دال على الوهيته المتضمنة لثبوت
صفات الإلهية له ، مع نفي أضرارها عنه .

وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال ، وعن
العيوب والنقائص ، ولهذا يضيف الله تعالى إلى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا
الاسم العظيم كقوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى** ﴾ ويقال : الرحمن
والرحيم ، والقدوس ، والسلام والعزيز والحكيم ، من أسماء الله ولا يقال الله
من أسماء الرحمن ، ولا من أسماء العزيز إلى غير ذلك .

فعلم أن اسم (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها
بالاجمال . وللأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها
اسم الله ، واسم الله دال على كونه مألوها معبوداً تؤلهه الخلائق محبة
وتعظيماً وخضوعاً وفزراً إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال
ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك ، والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته
وملكه مستلزم لجميع صفات كماله اذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحميّ ،
ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في
أفعاله فصفات الجلال ، والجمال أخص باسم الله . وصفات الفعل والقدرة ،
والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة ، وكمال القوة ، وتدبير
أمر الخليقة أخص باسم الرب .

وصفات الاحسان ، والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف ، أخص
باسم الرحمن وكرر إيذاناً بثبوت الوصف ، وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته ،
فالرحمن وصفه الرحمة ، والرحيم : الراحم لعباده ، ولهذا يقول تعالى :
﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ ﴿ **إنه بهم رؤوف رحيم** ﴾ ولم يجيء
رحمان بعباده ، ولا رحمان بالمؤمنين مع ما في اسم الرحمن الذي هو على
وزن فعالان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به ألا
ترى أنهم يقولون : غضبان : للممتليء غضباً وندمان وحيران وسكران ،

ولهفان لمن مليء بذلك ؟ فبناء فعلا للجنة والشمول ولهذا يقرر استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا كقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ثم استوى على العرش الرحمان . فاستوى على عرشه باسم الرحمن ، لأن العرش محيط بالخلوقات قدر وسعها ، والرحمة محيط بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات . فلذلك وسعت رحمته كل شيء ، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده موضوع على العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » وفي لفظ « فهو موضوع عنده على العرش » .

فتأمل خصائص هذا الكتاب بذكر الرحمة ، ووضعه عنده على العرش ، وطابق بين ذلك وبين قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم .

وصفات العدل ، والقبض والبسط ، والحفض والرفع ، والعطاء والمنع ، والاعزاز والاذلال ، والقهر والحكم ونحوها : أخص باسم الملك وخصه بيوم الدين ، وهو الجزاء بالعدل لتفرده بالحكم فيه وحده ، ولأنه اليوم الحق ، وما قبله كساعة ولأنه الغاية ، وإيام الدنيا مراحل إليه .

ارتباط الخلق بالاسماء الثلاثة

تأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي : « الله ، الرب ، الرحمن » كيف نشأ عنها الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب ؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم ؟ فلها الجمع والفرق .

فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات . فهو رب كل شيء وخالقه ، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته ، وتحت قهره ، فاجتمعوا بصيغة الربوبية ، وافترقوا بصفة

الالهية ، فأله وحده السعداء ، وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل ، والرجاء ، والخوف . والحب والاذنابة والإحبات والخشية ، والتذلل والخضوع إلا له .

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين : - فريقا مشركين في السعير .
- وفريقا موحدين في الجنة .

فالالهية هي التي فرقتهم ، كما أن الربوبية هي التي جنعتهم فالدين والشرع . والأمر والنهي ، مظهره وقيامه : من صفة الالهية . والخلق والايحاء والتدبير والفعل : من صفة الربوبية . والجزاء بالثواب والعقاب ، والجنة والنار من صفة الملك وهو ملك يوم الدين . فأمرهم بالهيته ، وأعانهم ووقفهم وهداهم وأصلهم ، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله ، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى ... وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده فالتالية منهم له ، والربوبية منه لهم . والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده . بها أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ، وبها هداهم ، وأسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم ، فبينهم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة ...

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ مطابق لقوله ﴿ رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾ فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها ، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته .

تنزيه الله جل جلاله

إنه ليس بحجم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا في التقدير ، ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر . ولا تحله الجواهر ولا بعرض ، ولا تحله الاعراض ، بل لا يماثل موجودا ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء ، وأنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون والسموات .

وأنه استوى على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزلها عن الماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش ، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش ، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ، ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان . كما تقدس عن أن يحده زمان . بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان . وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بائن من خلقه بصفاته ، وليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته ..

وأنه مقدس عن التغيير والانتقال ، لا تحله الحوادث ولا تعترضه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزلها عن الزوال ، وفي صفة كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ... وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئي الذات بالابصار ، نعمة منه ولطف بالابرار في دار القرار ، واتماما للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم .

القدرة : وأنه حي قادر ، جبار قهار ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو الملك

والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ،
السماوات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون في قبضته .

وأنه المتفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالابجاد والابداع خلق الخلق
وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وأجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب
عن قدرته تصاريف الأمور ، ولا تحصى مقدراته ، ولا تتناهى معلوماته .

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات . محيط علمه بما يجري في تخوم
الأرضين الى أعلى السماوات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في
السما ، بل يعلم ديبب النلة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ،
ويدرك حركة الذر في جوف الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على
هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر وخفيات السرائر يعلم بعلم قديم أزلي ،
لم يزل موصوفا في أزال الأزال لا يعلم متجرد حاصل في ذاته بالحلول
والانتقال ...

الإرادة : وأنه مريد للكائنات ، مدبر للحادثات ، لا يجري في الملك
والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، عرفان
أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو نقص ، طاعة أو عصيان ، كفر أو
إيمان ، إلا بقضائه وتقديره ، وحكمه ومشئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم
يكن ، لا يخرج عن مشئته لفظة ناضر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئي
المعيد ، الفعال لما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب
لعبد من معصيته ، إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة على طاعته الا بمحبته
وإرادته ، لو اجتمع الانس والجن ، والملائكة والشیاطین على أن يحركوا في
العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا عنه .

وان إرادته قائمة بذاته ، في جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها ،
مريدا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها ، فوجدت في أوقاتها ،
كما أرادته في أزله من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه
وإرادته من غير تبديل ولا تغيير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار وتربص
زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن :

السمع والبصر : وأنه تعالى سمع بصير ، يسمع ويرى ، ولا يعزب عن مسموعة سموع وان خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وان دق ، لا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وأذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، اذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق .

الكلام : وأنه متكلم أمر ناه ، واعد متوعد ، بكلام أزلي قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس من انسلال الهواء ، أو اصطكاك أجرام ، ولا حرف منقطع باطباق شفة أو تحريك لسان .

وان القرآن والنوراة والانجيل والزبور ، كتبه المنزلة على رسله ، وأن القرآن مقروء بالأسنة مكتوب بالمصاحف مخطوط في القلوب ، وأنه مع ذلك قديم ، قائم بذات الله تعالى . لا يقبل الانفصال والفراق بالانتقال ، في القلوب والاوراق ، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى من غير جوهر ولا عرض ، ومن كانت له هذه الصفات كان حيا عالما ، قادرا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلم ، بالحياة والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والكلام لا بمجرد الذات ...

الأفعال : وإنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله ، وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها ، واتمها وأعدلها ، وأنه حكيم في أفعاله ، عادل في أقضيته ولا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملك حتى يكون تصرفه فيه ظلما ...

فكل ما سواه من إنس وجن ، وشيطان وملك وساء وأرض وحيوان ونبات ، وجوهر وعرض ، ومدرک ومحسوس ، حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه بعد إن لم يكن شيئا ، إذ كان في الأزل موجودا

وحده ، ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعده إظهارا لقدرته وتوحيده لما سبق من إرادته ، وحق في الأزل من كلمته ، لا لافتقاره اليه وحاجته .

وأنه تعالى متفضل بالخلق والإختراع والتكليف ، لا عن وجوب ، ومتطاول بالإنعام والأصلاح ، لا عن لزوم وله الفضل والإحسان ، والنعمة والامتنان ، اذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ، ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ، ولم يكن قبيحا ولا ظلما .

وأنه يثيب عباده على الطاعات ، بحكم الكرم والوعد لا بحكم الإستحقاق واللزوم ، إذ لا يجب عليه فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ...

وحقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه ، لا بمجرد العقل ، ولكنه يبعث الرسل ، وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا أمره ونهيه ، ووعدوه ووعدوه ، فوجب على الخلق تصديقهم بما جاءوا به .

الإيمان بالغيب

الإيمان بالغيب هو الدعامة الثانية من دعائم العقيدة الإسلامية ، والإيمان بالغيب هو الدعامة في كل دين ، لأن وراء هذا العالم المادي عالم آخر غيره ، فمن لم يؤمن به فقد جحده ، ولا يمكن أن يكون إيمان بالله من غير إيمان بالغيب ، ولذلك يقول الله في أوصاف المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . الغيب ما خرج عن متناول الحواس ، وإدراك العقل ، والإيمان بما ينجي من عالم الغيب ، لا معتبر له إلا إذا كان مسند إلى جهة لا يتطرق إليها الكذب ، وإلا كان التصديق بما يخبر به العرافون والكهنة وغيرهم ممن يدعون علم الغيب ، إيماننا ، وهو ليس من الإيمان في شيء ، وإنما المراد بالإيمان هنا ما يخبر به رسل الله وأنبيأؤه أقوامهم من أمر الآخرة التي لا علم للناس بها .

فأول صفة من صفات المتقين هي الإيمان بالغيب التي يخبر بها الرسل عليهم السلام حيث تلقوا الأخبار عن تلك الغيبات وحيا من الله ، وهم الأمناء على ما أوحى إليهم من ربهم ...

فلا إيمان لمن لا يؤمن بالله ، ولا إيمان لمن لا يؤمن برسل الله ، ولا إيمان لمن لا يؤمن بما يحمل رسل الله من رسالات وما يبلغون من أوامر ونواهي ، وما يبلغون من أخبار ، وملاك التقوى هو الإيمان ، فلا تقوى لمن لا إيمان له ، فإذا جاء الإيمان على تلك الصورة ، كان داعية لأن يقيم الإنسان على طريق التقوى ، وأن يؤهله لتلك الصفات التي وصف الله سبحانه بها المتقين ، الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ ، إيماننا مفصلا ، وبما أنزل على رسل الله من قبله إيماننا مجملا ، ثم ينتهي بهم ذلك الإيمان الى الإيمان باليوم الآخرة ، والإيمان بالملائكة وهي الأرواح المطهرة ، والإيمان بكل الخلقات المغيبة عن حسنا ، والإيمان بأن هذه الحياة الدنيا هي الحياة الفانية ، وما بعدها

هي الحياة الباقية ، وهي الأخرى ، وأن الإيمان بالحياة الأخرى هو لب الدين ، يجازي فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ..

وأن الإيمان بالغيب والنشور والحساب والعقاب والثواب من شأنه أن يعلو بالإنسان من مرتبة الحيوان ولا يجعل حياته عقبة لا تنتج ، ويدفع عنه التشاؤم النفسي ، فهي إن لم يسعد في الحاضرة رجا السعادة في الآخرة ، والمؤمن يتربى فيه الوجدان والاحساس بالتبعية إذا آمن بالآخرة ...

ولقد كان العبيد والفقراء يقاومون السادة والأغنياء ويرضون بالعذاب ولا يباليون لأنهم مؤمنون بما عنده في اليوم الآخر ، فالإيمان باليوم الآخر ذخيرة إنسانية ومن حرمها فقد حرم خير زاد يعلو به الإنسان ، ويقاوم أحداث الزمان .

ولا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبرت عنه السنة بعد الموت من سؤال منكر ونكير في القبر وهما ملكان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سويا ذا روح وجسد ، فيسألانه عن التوحيد ، والرسالة ويقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وهما فتانا القبر ، وسؤالهما أول فتنة القبر . وأن يؤمن بعذاب القبر ، وأنه حق ، وحكمه عدل ، على الجسم والروح على ما يشاء ...

ويؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان توزن فيه الأعمال بقدره الله تعالى سواء كانت كبيرة أو صغيرة مثل مثاقيل الذر ، والخردل ، تحقيقا لتمام العدل ، وتطرح صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور ، فيثقل بها الميزان ، على قدر درجاتها عند الله ، بفضل الله تعالى ، وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى ...

وأن يؤمن بالصراط فهو حق ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، تزلّ عليه أقدام الكافرين بحكم الله تعالى ، فيهوي بهم الى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين ، فيساقون الى دار القرار ...

وأن يؤمن بالحوض المورود حوض سيدنا محمد ﷺ يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط من شرب منه شربة لم يظأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ، ماءؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل حوله أباريق عددها عدد نجوم السماء فيه ميزابان يصبان من الكوثر ، ويؤمن بيوم الحساب ، وتفاوت الحق فيه ، إلى مناقش في الحساب ، وإلى مسامح فيه ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب ، وهم المقربون ...

فيسأل من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل المبتدعة عن السنة ، ويسأل المسلمين عن الأعمال ...

ويؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد قضاء ما عليهم فيها ، حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى . ويؤمن بشفاعاة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، ثم سائر المؤمنين كل على حسب جاهه ومنزلته ، وشفاعة هؤلاء جميعا لا تكون إلا بإذن الله ، فهي ليست شفاعاة قدرة من العباد بل هي شفاعاة تكريم الله لبعض الاتقياء ومن بقي من المؤمنين لم يكن له شفيع أخرج بفضل الله تعالى ، ولا يخلد في النار مؤمن ، بل يخرج منها من كان في قلبه ذرة من الإيمان ...

وأن يعتقد فضل الصحابة وترتيبهم ، وأن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم ، وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله تعالى ورسوله ﷺ عليهم أجمعين ، فكل ذلك وردت به السنة ، وشهدت به الآثار ، فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به ، كان من أهل الحق وعصابة السنة ، وفارق رهط الضلال والبدعة ...

الإيمان بالرسل أجمعين

الإيمان بالرسل السابقين جزء من العقيدة الإسلامية وقد صرح القرآن الكريم بذلك قال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبئين الى آخر الآية ﴾ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير ...

الإسلام يطوي في عقيدته الخالصة كل عقيدة صحيحة في الأديان كلها لأنه دين الوحداية الإنسانية .

إن الله بعث النبي الأمي محمد ﷺ برسالة الإسلام الى كافة الخلق من الإنس والجن بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله يأذنه وسراجا منيرا ، فنسخ بشره الشرائع السابقة إلا ما قرره ، وفضله على سائر الأنبياء ، وجعله سيد البشر ، وجعل كمال الإيمان بشهادة التوحيد لإله إلا الله وقرن إليها شهادة محمد ﷺ ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من الدنيا والآخرة وأنه لا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر عنه بعد الموت فحكمة الله سبحانه وتعالى تقتضي بأن يتخير لهذه السفارة خلاصة الإنسانية وهامتها ، فلا تصطفي لها في أي عصر إلا الرجل الأول في الكمال الإنساني ، فيكون هو الإنسان الذي تتمثل فيه كالات الجنس البشري لعصره بحيث يكون وصلة ما بين السماء والأرض ، وسفيرا بين الله والناس .

محمد ﷺ لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبي ، ولأكمل دعوة قام بها رسول ، إنه يحمل آخر كلمة من الله إلى الناس ، هي الكلمة الأخيرة ، الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ، فليس بعدها كلام إنها الخاتمة ...

محمد ﷺ هو خاتم النبيين ليس بعده نبي ، وليس وراءه بشير ولا نذير ، وإذا كان ذلك كذلك فإن لنا أن نقول ان محمدا هو منتخب الإنسانية كلها وهو مجتمع كالاتها في أكمل حالاتها وأتم صورها ...

كانت رسالات الرسل - قبل محمد ﷺ - رسالات محلية أشبه بالوصاية على الأفراد ، يظهر الرسول في جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ،

يقوم لهم وجودهم المعوج ، ويضيء لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم رسول ، ويخلفه رسول وهكذا ...

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد للناس أن يستقلوا بوجودهم وأن يفكروا لأنفسهم بعدما بلغوا الرشد ، وصاروا في عداد الرجال كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وخاتم النبيين ...

ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة عقلية منطقية تخاطب العقل ، وتقنعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الإستدلالية التي يستقيم تفكير الناس جميعا .

إن الرسالة الإسلامية لم تستند الى معجزة قاهرة تطفئ على عقول الناس ، وتغتنال تفكيرهم ، وتشل إرادتهم حين لا يملكون لها ردا ، ولا يستطيعون لها نقضا ، وإنما استندت الى الكلمة ، وما فيها من عقل منطقي . فلم تطلب من الناس أكثر من أن يتفكروا ، وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، فإنهم إن فعلوا ذلك فلن تبعد بينهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف بل انهم والرسالة سيلتقيان على طريق واحد إذا فكروا وأخلصوا التفكير ...

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ﴾ (سورة سبأ) .

هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها استخدام العقل ، واحترام معطياته . ليستعمل الإنسان عقله وليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مفردات ليفكر وحده ، بينه وبين نفسه متأملا متعمقا أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقبله ، مؤيدا أو معارضا إنه في كلا الحالين سيصل إلى مقررات ان لم تكن حقا خالصا فهي أقرب شيء إلى الحق .

فالعقل في مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر وأن يتحرك في كل مجالاته غير مقيد بشيء ، أو مشدود إلى شيء ، بل إن الرسالة

الإسلامية لتغري العقل إغراء على التفكير بما تنادي به من دعوات عالية
الى إيقاظ العقل وتنبيهه ، وبما تقدم اليه من صور ، وما تفتح له من
مجالات ، تدعو أكثر الناس بلادة وغباء الى استخدام عقولهم ﴿ قل انظروا
ماذا في السموات والأرض ﴾ (سورة يونس) .

النبوة رحمة

النبوة رحمة راحة حيث كانت ، وخير غدق حيث أصابت لأنها تحمل كلمة السماء الى الناس محملة برحمة الله الى عباده ، موقرة بالخير لمن اتصل بها ، وفتح قلبه لها ... فما بزغ في الناس نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله إلا والناس منه في معرض الرحمة ، وفي عارض مطر بالرفد والخير العميم .

فبين يدي كل نبي نور يضيء دنيا الناس ، ويكشف لهم معالم الطريق الى الخير والحق . وعلى لسان كل كلمات ربانية ترسم للناس مناهج العمل لغايات الخير والسعادة يقول الله سبحانه ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (سورة الحديد) .

ويقول سبحانه ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، فأنبياء الله ورسله هم حجة الله على عباده انهم يحملون الى الناس أطواق النجاة حين تضطرب بهم سفينة الحياة وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق الى شيطان الأمن والسلامة ، فمن استجاب لهم ، وتناول ما في أيديهم من أضواء الحق وأطواق النجاة سلم ونجا وكان من الفائزين برحمة الله ورضوانه ومن أبى واستكبر أن يمد يده الى هذا الحبل الممدود لنجاته واستنقاذه من الهلاك المطل عليه فلا يلومن إلا نفسه ؟ ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ، إن أنبياء الله ورسله هم رحمة خالصة ، لا أجر عليها ، ولا من معها إنها من الله والى عباد الله ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجري إلا على الله ﴾ فما حملت دعوة نبي ، أو رسالة رسول شيئا من شأنه أن يضيق به الناس ، أو يشقوا به ، انها دعوة تحمل الى الناس الحياة لأموات القلوب والهدى لضلالات العقول كما يحمل الغيث الحياة لصنوف الأحياء . وأما من شأنه أن يكون في الأحياء ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج

منها ... ۞ نعم قد يضيق بعض المنحرفين والمتسلطين بدعوات الأنبياء لان انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يحيا في ظلها ، اذ هي دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضي على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

ومن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويصدون الناس عنهم هم دائما أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، اذ يحسبون في هذا الذي تحمله الدعوة النبوية الى الناس من عدل وإخاء تضييعا لما معهم من سلطان وجاه ، وذهابا لما بين أيديهم من مال وحطام .. أو هو على أقل تقدير ازعاج لما هم فيه من حال رضوا بها واطمأنوا اليها .

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبي لا ينزع سلطانهم ليضعه في يده ، ولا يأخذ ما لهم ليضيفه الى نفسه ، فما جاءت رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور ، والاستكثار من الحشم والخدم ، ان دعوة النبي وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل وليس له من شيء الا ما تفضل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة ولما لقي في سبيلها من عنت وأذى ان أجرى إلا على الله ... ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والاحسان والعدل والبر ، وأنها لا تتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجه الغني إذا كان يؤدي حق الله ، وحق السائل المحروم .

ومن كمال حكمة الله سبحانه وتعالى أن لا يخلق الخلق ويتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولهذا نزه نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه . وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة ، ويقول ما أنزل الله على بشر من شيء فإنه ما عرف الله حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمتة ، ولا قدره حق قدره بل نسه الى ما لا يليق به ، ويأباه حمده ومجده ...

كون الله سبحانه وتعالى إلهاً ، فان ذلك مستلزم لكونه معبودا مطاعا ، ولا سبيل الى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله وكونه ربا ، فان الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم وجزاء محسنهم باحسانه ،

ومسيئهم بأسائه ، هذه حقيقة الربوبية وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة .

وكون الله رحمانا رحيمًا ، فإن كمال رحمته : أن يعرّف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه ، ويباعدهم منه ويثبّتهم على طاعته ، ويجزيهم بالحسنى ، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة ، فكانت رحمته مقتضية لها والله سبحانه وتعالى ملك ، والمملك يقتضي التصرف بالقول كما أن الملك يقتضي التصرف بالفعل ، فالمملك هو المتصرف بأمره وقوله ، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء ، والله له الملك فهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل وتصرفه نوعان : تصرفه بكلماته الكونية ﴿ كن فيكون ﴾ وتصرف بكلماته الدينية ، ولهذا أرسل رسله إلى الناس ليعرفوهم ربوبيته . وملائكته والايّمان بهم لأنهم رسل الله في خلقه ...

وهناك يوم الدين ، وهو يوم الجزاء الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرا وشرًا ، وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة وقيام الحجة التي بسببها يدان المطيع والعاصي ...

وان الله سبحانه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله ، فانكار رسله انكارا لكونه معبودا ، وأنه هاد إلى صراط مستقيم وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو الطريق الوحيد الموصل إلى طاعة الله ، ولا يعلم ذلك إلا من جهة الرسل .

والله سبحانه وتعالى منعم على أهل الهداية ، فإن انعامه عليهم انما تمّ بارسال الرسل إليهم ، وجعلهم قائلين للرسالة مستجيبين لدعوته ، وبذلك ذكرهم منته عليهم وانعامه في كتابه .

انقسام خلقه إلى منعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين فان هذا الانقسام ضروري بحسب معرفتهم للحق والعمل به : إلى عالم به عامل بموجبه وهم أهل النعمة ، وعالم به معاند له ، وهم أهل الغضب ، وجاهل به ، وهم أهل الضالين ، وهذا الانقسام انما نشأ بعد الرسل فلولا الرسل لكانت أمة واحدة ، فانقسامهم إلى هذه الاقسام مستحيل بدون الرسالة ، وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع فالرسالة ضرورية ..

الرسالة المحمدية

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمت وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة محمد ﷺ رحمة شاملة ، وبركة عامة للناس جميعا من كل أمة ، ومن كل جنس على مدى الأيام والدهور ...

إنها رسالة لا تخص أمة من الأمم ، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان ، فهي ليست للعرب وحدهم وليست لعصر النبوة وحده . فإلى العرب فيها إلا لسانها وترجمانها وما عصر النبوة إلا مطلعها ، ومجلى أنوارها ، ثم هي بعد ذلك رحمة مشاعة في الناس كلهم وحظ مقسوم لجميع الأزمان ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ، الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ (سورة الأعراف) ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله الى الناس كافة إذ كانت الآية شارحة لقضية الانسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ، فليس لأمة ولا لشعب ، فضل أو امتياز في الأصل والنشأة ، ولا في الدم ، أو الوطن ، ولا في الزمن السابق أو اللاحق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ﴾ فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء وتفتح بها رسالته ، الله هو الخالق لكل شيء ، والانسان هو من مخلوقات الله ، قد خلق (الانسان) من علق ...

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : الانسان .. الانسان مطلقا في أي زمان ، وفي أي مكان ...

القرآن الكريم كله في أحكامه وتشريعاته ، وفي أمره ونواهيه وفي نوائحه ووصاياه يخاطب الناس جميعا ، ويدعو الناس جميعا بهذه الكلمة العامة الشاملة ﴿ يا أيها الناس ﴾ أو ﴿ يا بني آدم ﴾ أو ﴿ يا أيها الانسان ﴾ ولم يختص العرب وحدهم أو قريشا بخطاب أبدا ، فلم يقل يا أيها العرب ، أو يا بني اسماعيل ، أو يا بني عدنان وقحطان . كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسوله في أقوامهم ، ومن أرسلوا اليهم ، فكان كل نبي

يدعو قومه خاصة كما حكي القرآن الكريم ذلك في قصص الأنبياء : ﴿ انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يا قوم اني لكم نذير مبين ﴾ الى غير ذلك من الآيات التي تخاطب أقوام الأنبياء .

هذه رسالة محمد ﷺ قد حملها صاحبها - بتدبير السماء - الى الناس كافة ، فأذنهم من أول يوم بما أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يؤذنه به : ﴿ يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا ﴾ وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة للانسانية كلها : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ﴾ ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ ﴿ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ وهكذا تكررت دعوة الاسلام على لسان الرسول ﷺ ، وفي آيات القرآن في تلك الصورة العامة للناس جميعا لا يلتبس بها شيء من التخصيص بأمة دون أمة أو جيل دون جيل فهي خير مطلقا للناس جميعا ورحمة مبسوطة لكل من يتعرض لها ويمد يديه إليها .

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للاسلام ، فدخل فيه العبيد والاحرار ، والعرب والعجم ، فكان بلال العبد وسلمان الفارسي من أول الناس اسلاما . سئل الرسول ﷺ من أول من بايعك على الاسلام ؟ قال : « حر وعبد » . قيل أن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال رضي الله عنهما ..

وكان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبي للملوك والقيصرة والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبي ﷺ بكتبه ومبعوثيه الى النجاشي

ملك الحبشة والى كسرى ملك الفرس ، والى المقوقس رئيس القبط في مصر ، يدعوهم جميعا الى الايمان بالله ، والاستجابة لله ولرسوله ، فالملوك والسوقة ، والاحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعوون الى الايمان بالله ، والاستجابة لداعي السماء . ثم انه لم تمر سنوات على الدعوة الاسلامية حتى دخل في دين الاسلام كثير من الأمم والشعوب من جميع الاجناس ومن مختلف الأمم ، وكان مكانهم في الاسلام بمنزلة واحدة لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم : إن الله عليم خبير ﴾ (سورة الحجرات) .

الرحمة التي جاء بها محمد ﷺ ، فالقرآن الكريم تكلم عليها في غير ما موضع فقال مخاطبا النبي الكريم ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ . وقال سبحانه ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعا ، وليس لشيء في باب الرحمة بالناس أفضل من استنقاذهم من الضلال وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس ، ان ذلك يعادل الحياة بعد الموت ، والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ؟ ورسالة محمد ﷺ تحمل للناس جميعا الهدى في رفق ، وفي لين ، فليس فيها البريق الذي يخطف الأبصار ثم يخبو ، وليس فيها العنف الذي تنقطع له الانفاس ، وينقطع دونه جهد كثير من الناس إنها ليست رسالة عذاب كما كانت كثير من الرسالات قبل مجيء محمد ﷺ ، فكان اتباع الرسل قد تطبعوا بطباع الوحوش الكاسرة ، ولم يمتثلوا لما جاءتهم به رسلهم الكرام وتمادوا في طغيانهم فنتهي حياتهم بالبر الحاسم والتدمير الكامل بالمجتمع المريض ، فقد شهد كثير من الرسل مصرع أمهم ، واستئصال فروعهم وأصولهم ولم ينج منهم الا قلة تعد على رؤوس الأصابع قال تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال

وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل
خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴿ ٢٠ 〉 وأنه أهلك عادا الاولى ،
وثمودا فما أبقي ، وقوم نوح من قبل ، انهم كانوا هم أظلم
وأطغى ﴿ ٢١ 〉 فاهلاك الجماعي والابادة العامة ، والاستئصال الشامل لهؤلاء
المنحرفين داعية من دواعي التأمين للانسانية ، وحمايتها من عدوى هذا
الانحراف الذي لا يرجى له شفاء ! والذي ان عاش في الناس امتد عدواه
الى غير المصابين به ..

أما الرسالة المحمدية فانها لم تجيء من أجل أمر عارض ولا لحالة طارئة
في جيل من أجيال الناس ، وانما جاءت للناس جميعا في جميع أحوالهم
وأزمانهم ...

ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الاجراءات السريعة الحاسمة التي تنهي
الموقف بين النى وقومه في لحظة واحدة ، ينتهي فيها كل شيء ، ويسكن
فيها كل شيء ﴿ ٢٢ 〉 هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴿ ٢٣ 〉 بل ان
تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، واعطائهم الدواء جرعة
بعد جرعة على فترات متفاوتة ، ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجيء على
غير التدبير والتقدير لكي تنجح في مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

والذي ينظر الى رسالة محمد ﷺ يجدها أنها تناولت الحقائق العامة ،
والأحوال الثابتة التي تعيش في الناس ، ويعيش بها الناس في جميع
الظروف والأحوال ولم تقف عند الحالات التي لا تقع الا في النادرة الشاذة
من الحياة ...

ولك أن تأخذ أيّ مبدأ من مبادئ الاسلام ، وأيّ حكم من أحكامه ،
وأن تنتقل به عبر الأزمان ، وأن تطوف به في مختلف الأمم والشعوب ،
فإن رأيت فيه نبوا على الحياة أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفا عن
مواطن الخير والفلاح لمن اعتقده وعمل به - فلك أن تسيء الرأي بهذا
الدين ، وأن تنضم الى الجهة المعادية له ، وأنا زعيم لك ان أنت نظرت
فأحسن النظر ، وقدرت فأحسن التقدير وحكمت فعدلت في الحكم ،

ووقفت الى جانب الحق : وأن تعود بعد هذا وملء كيائك ايماناً بأن هذا الدين هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ...

تلك هي الرسالة التي تلقاها محمد ﷺ من ربه ، ونصّب نفسه لها ، وجاهد في سبيلها واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضر من أجلها ، فكان له هذا النصر المبين ، وكان لرسالته هذه الثمرات الطيبة المباركة في الحياة ، بما غرست في القلوب من ايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وبما رسمت للناس من مناهج الحق ، والخير والاحسان ، وتلك عقبى الدعوات الصادقة ، والنيات الخالصة ، لا يخطئها النجاح أبداً ، وإن قامت في وجهها العواصف ، واعترضت طريقها المعاصر ، فإن يد الله قائمة عليها تشد أزرها وتثبت خطاها ، وتمكن لها أسباب البقاء في الحياة .

البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم

بعث الله تعالى نبيه الكريم ، ورسوله العظيم سيدنا محمدا ﷺ ، على حين فترة من الرسل وفي جاهلية جهلاء لا تعرف من الحق رسما ، ولا تقيم للعدل وزنا ، لقد اصطفاه الله ليكون رسولا للعالمين ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا حاملا معه محتتم الرسالات السماوية الى الناس كافة ، وقد أمد الله بالصبر واليقين والعزم ، فواجه بها كفار قريش كل من سلفهم وكبريائهم وجبروتهم وعتوهم وغرورهم فلم يحفل بتهديدهم ولا بظهورهم ، ولا لان لهم ، فعارضوه ورموه بالزور والبهتان ، وبالكذب ناره ، وهو الصادق المصدوق لم يجربوا عليه كذبا قط ، وتارة يتهمونهم بالسرور وهم يعلمون انه لم يكن من أهله ، وتارة يقولون انه مجنون وهم لا يشكون في كمال عقله . وحاولوا مرارا أن يستزلوه على طريق عبادتهم ليظفروا منه بالموافقة على الاعتراف باعتقاداتهم الفاسدة ، فأبى عليه الصلاة والسلام الا الثبات على أوضح طريق الحق ..

حمل الرسالة السماوية ، وواجه بها الناس جميعا متحديا عقائد فاسدة ، ومتصديا لقلوب مريضة وعقول مظلمة ، وطبائع صلبة متحجرة ، فما وهن على الله عليه وآله وسلم ، وما ضعف عن حمل هذه الرسالة ، وصبر على ما تشعب به الجبال من الاحمال الشاقة ، فلحم لقي من السفهاء والحمقى والطغاة الظالمين من بغى وعدوان ؟ كيف به وقد بلغ بصره وجهاده وعزمه ما أراد الله لدنوته أن تبلغ ؟ وهكذا ما أنفك يدعو الى الله فيأتي اليه الواحد بعد الواحد متسللين محتفين خوفا من اعتداء الكفار عليهم ، ولما اشتدت معارضة كفار قريش لدعوة الاسلام ، وتكالت على الرسول وأصحابه قوى الظلم والطغيان خاف على الدعوة أن يسكنها المشركون على أن تبلغ غايتها ، وتقلأ أسماع الناس بهديها ، وتفتح مغالق القلوب بنورها ، فخرج مهاجرا من البلد الحرام حاملا لهذه الرسالة الربانية ثم خاض غمار الحروب في سبيلها ، فكان ﷺ يتقدم صفوف الأبطال والفرسان ..

وقد لقي مبكر اليهود في المدينة بلطف ووداعة ، حتى اذالجوا في الضلال ، وقادوا في الكيد والبغي صدمهم صدمة ألقت بهم خارج الجزيرة العربية كلها ، فبلغ رسالة ربه ، وجاهد في سبيلها حتى اجتمع الناس عليها ، ودخلوا في دين الله أفواجا .

لقد امتنّ الله على العالم عامة وعلى العرب خاصة ببعثة سيدنا محمد ﷺ ، فيها انتقل من الضلال الى الهدى ، ومن الظلام الى النور ، ومن الجهل الى العلم ، ومن القسوة الى الرحمة ومن الظلم الى العدل ، ولم يتذوق العالم طعم المدنية الصحيحة ولا الانسانية الكاملة ، ولا الحرية والعدالة الحقيقية إلا بعد البعثة المحمدية التي غيرت مجرى تاريخ البشر وتفكير العالم ووجهته أحسن توجيه .

البعثة المحمدية صحت العقول الفاسدة ، والمفاهيم الخاطئة للناس ، وسمت بهم ، فأصبحوا لا يؤمنون إلا بالله ربا ، ولا يعبدون إلا الاله الواحد القوي العزيز الذي لا اله إلا هو ...

فبهذه البعثة الميونة تحرر الضعفاء من الاستبداد والاستعباد والأفكار والعقائد من القيود والخرافات والأوهام ..

نجحت الدعوة الاسلامية في مكة وربوعها ، وعلى العرب المتعصبين الضالين ، ومن بعد نجحت في العالم شرقا وغربا ، وسرّ نجاحها وتغلبها على العقبات والصعاب ، يرجع الى المسلمين الذين تمسكوا بالعقيدة تمسكا قويا ، بالإخلاص لها والتفاني في سبيلها ، فقد كانوا يقدمون على المعركة في سبيل الله وهم أقلّة في عددهم وعدتهم يجابهون كثرة من الأعداء ، وهم في صلفهم وغرورهم بخلاف المؤمنين الذين يلقون أعداءهم مستبسلين يرجون رضا الله ، ولا عليهم في ذلك أعادوا الى الديار سالمين منصورين أم فاضت أرواحهم الى ربها راضية مرضية .

وأول معركة في الاسلام هي غزوة بدر الكبرى انتصر فيها التوحيد على الشرك ، والحق على الباطل وغلبت الفئة المؤمنة الصابرة الكثرة المتعجرفة ، ما هي إلا دليل على الاخلاص والصبر .

وقعت هذه الغزوة المباركة في السابع عشر من شهر رمضان المعظم في السنة الثانية من الهجرة ... كان الاسلام المهاجر لا زال خافض الجناح في المدينة وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا زالوا تحت البلاء يمتحن الله صبرهم بالالام ، ويختبر ايمانهم بالفتنة ليجتبيهم لنشر دعوته ويعلم الذين يصطفاهم لتبليغ رسالته ، فلما أراد الله لدينه أن يسود ولجده أن يعود ، ولنوره أن يتم ، أرسل جنوده الثلاثمائة نفر الى وادي بدر يعتقبون على سبعين بعير ، ويستعينون بصبر المجاهد على قلة الزاد وبغزة المؤمن على الذل ، وبغفة الزاهد على الفاقة ، كانوا يسرون الى بدر في استغراق الصوفي الى ما وعدهم الله احدى الطائفتين - العير أو النفير ، أو إحدى الحسينين : النصر أو الاستشهاد .

فموقف غزوة بدر من الشرك كان موقف محنة ، فاما أن يقود محمد ﷺ زمام البشرية في سبيل الله فتنجو ، واما أن يردها أبو جهل الى مجاهل التيه والضلال فتهلك ...

وقفت مدينة الانسان بأديانها وعلومها وراء محمد ﷺ وراء القلب ، ووقفت هجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكتيب ، فكان طريق وعقة ، ونور وظلمة ، وإله وشیطان فاما أن يتزق تراث الانسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله في هذا القفر ، واما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذا البئر ، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذا الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه المعركة الفاصلة ...

كان النبي ﷺ أمام العريش يدعو ربه ووجهه الى القبلة ، ويداه الى السماء ، ورداؤه من الذهول في الله يسقط عن منكبيه فيقول : « اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرک الذي وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة ، فلن تُعبد في الأرض » (1) فيرد الصديق عليه رداءه ، ويقول بعض هذا يا نبي الله فان ربك منجز وعده ، وما هي الا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل

(1) شطر من حديث طويل في غزوة بدر . أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس

الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون في اشراق عجيب من الايمان لا يرسم في أدهانهم الا الحور العين ولا يصور في أعينهم إلا الملائكة وقد قذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الالهية عن انتصار ثلاثمائة على ما يقرب من ألف جندي من جيش الضلال والشرك ...

غزوة بدر غيّرت وجه التاريخ ، ومكنت للمسلمين العرب أن يبلغوا رسالة الله ، ويؤدوا أمانة الدين ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم والوحي ، لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمرة السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمرة الايمان والصدق ، قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل ، والمثل العليا ، فيها الحب والإيثار فلا تبالي بالعدد الكثير ، ولا ترهب السلاح ، ولا تعرف الخطر ...

بهذا الايمان الصادق خلق الله من الضعف قوة في غزوة بدر والقادسية واليرموك ، وبهذا الايمان الصادق جعل الله من البادية والعروبة عمراناً صادقاً طبق الأرض بالخير وملكا نظم الدنيا بالعدل ، ودنيا ألف القلوب بالرحمة .

بهذا الشعور القدسي ، وبهذا اليقين النفسي وقف المسلمون في كل معركة انتصروا فيها عبر التاريخ ، فالدعوة المحمدية تتطلب من المسلمين أن يعملوا لدنياهم ولآخراهم فتريدهم أن يكونوا شجعاناً فيما يقولون ، وفيما يعتقدون ، ويفعلون لا يخشون في الله لومة لائم . وليست الشجاعة مقصورة على الحروب والمعارك ، فان الدعوة الى الحق في عالم ضال شجاعة ، والدعوة الى الإصلاح في أمة فاسدة النظم شجاعة ، والاستمسك بالعقيدة شجاعة ، مهما أودى صاحبها ، والدفاع عن الدين أو العرض أو الجار المضطهد أو الأجير المظلوم شجاعة ، والشجاعة تعد فضيلة لأنها مجازفة بالحياة ، والحياة أغلى ما يملك الإنسان . أما الجبن فانه رذيلة لأن صاحبه يرضى بالمذلة والمهانة ، ونذير باستمرار الضعف والتخلف والفوضى ، ان تاريخ المسلمين لحافل بأعلى

المثل في الشجاعة التي ناصرت الحق على الباطل ، وأزرت الخير على الشر
وظاهرت الصلاح على الطلاح ..

كان المسلمون الأولون على أهبة الاستعداد دائماً لما عساه أن يطرأ عليهم
من الحوادث ، فإذا نزلت حادثة فجأة تجدهم مستعدين لها ، وشجاعة
المسلمين في سبيل إقامة شعائر دينهم ، ومسارعتهم في رضی الله لا تحتاج الى
برهان ، قال الله عز وجل في حقهم : ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من
ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم
ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (سورة آل عمران) .

كان النبي ﷺ شجاعاً يقود المعارك ويتقدم الصفوف ، ويتصدى لكل
بطل موهوب ، يقول سيدنا علي كرم الله وجهه ، « إذا حمى البأس ،
واحمرت الحديق إتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فما
يكون أحد أقرب منه إلى العدو وقد ثبت في غزوة حنين لما
تفرق عنه أصحابه ، فكان يسير نحو العدو » ، وهو يقول : « أيها
الناس تعالوا إلي أنا محمد رسول الله أنا محمد بن عبد
المطلب » (1) ..

وكان أبو بكر رضي الله عنه شجاعاً لا ينثني عن عزيمة يعتقد فيها
خيراً للإسلام ، فقد فوجيء إثر توليته للخلافة بارتداد العرب عن
الإسلام ، وكان هذا الإرتداد ممثلاً في رفض الصلاة والزكاة فقال :
« والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ما تركتهم ،
ولو خذلني الناس لجاهدتهم وحدي » (2)

ولم تكن مشكلة الصلاة والزكاة فحسب ، بل مشكلة الوحدة أيضاً التي
إنقصت عراها ، وأصبح المسلمون طوائف متنافرة متناحرة ، فكيف يطبق
أبو بكر مشاهدة الأمة التي جمعها الإسلام ، وأنقذها من الكفر تتفرق
وأعضاؤها تتناحر ، ووحدتها تتمزق ، وكيف يمكن للعصاة الثائرين أن

(1) أخرجه بن هشام ومسنده صحيح .

(2) القصة ثبتت في صحيح البخاري . ورواها مالك - بلاغا .

يحققوا أغراضهم ؟ فهذا ما لا يطيقه أبو بكر أبداً وكان سيدنا عمر رضي الله عنه شجاعاً في إعلان رأيه متحدياً كفار قريش ، ولما تولى الخلافة ربى المسلمين على خلق الشجاعة وحثهم على أن يعلموا أولادهم السباحة والرمي وكذلك كان سيدنا علي كرم الله وجهه بطلاً شجاعاً منذ نشأته إلى وفاته شجاعاً في كل حرب خاضها ، شجاعاً في كل رأي أذاعه ، وكل عمل قام به ، هذا الشرف العظيم الذي أحرز عليه المسلمون الأولون لم يأتهم تلقائياً ، أو جاءهم عفواً ، بل قدموا في سبيله الأموال والمهج والتضحيات الجسام ، والقرآن كان يرغبهم في الشهادة بقوله عز وجل : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ (سورة آل عمران) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحت على الشهادة ، ويجد المطلع على سيرة ابن هشام أحاديث للشهادة تطيب لها النفوس ، وتهز لها المشاعر في كل غزوة غزاها سيدنا ونبينا محمد ﷺ كان يبين للشهداء من الآيات البينات ، وكان يقول : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا » (1) رواه الإمام أحمد ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا عنا إننا أحياء في الجنة نرزق ألا يزهدوا في الجهاد ، ولا يتركوا عند الحرب ، فقال الله أنا ابلغهم عنكم فأنزل الله الآية السابقة . ولا تحسبن الخ » (2) وقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده ما من مؤمن يفارق الدنيا لا يحب أن يرجع

(1) أخرجه أحمد في مسنده - الطبراني - الحاكم - عن ابن عباس - حسن -

(2) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس ورجاله ثقات وصححه
مبان والحاكم ووافقه
الذهبي .

إليها ولو ساعة من نهار ، ولو أعطيت له الدنيا وما فيها إلا الشهيد فانه يجب أن يردّ الى الدنيا فيقاتل في سبيل الله فيقتل مرة أخرى « (1) ...

الدعوة الاسلامية كانت في الصدر الأول دعوة ربانية وقيادة في ممارستها وتنظيمها ، تخلف المسلمون يوم تحلفوا عن القيادة الفكرية ، وتقاعسوا عن حملها وأساءوا تطبيقها .

لم يتخلف المسلمون الحاضرون عن الركب الحضاري نتيجة تمدينهم - كما يقول بعض المغرضين - وإنما بدأ تخلفهم يوم تمسكوا بالمباديء الوضعية ، وسمحوا للعوائد الأجنبية أن تدخل ديارهم وتحتل أذهانهم وتستهيوي أبناءهم ، ولن يستأنف المسلمون الحياة الإسلامية إلا إذا حملوا دعوة الاسلام بقيادة فكرية إسلامية ، ويجب أن تحمل الدعوة كما حملت من قبل إقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دون أن تحيد عن ذلك قيد شعرة ، ودون أن يحسب لاختلاف العصور أي حساب لأنها اختلفت فيها الوسائل والأشكال ، أما الحقائق والجواهر لم تختلف ، وينبغي لحامل الدعوة أن يكون صريحاً في الحق وجريئاً على الباطل ، وقويماً بالإيمان ، ويجب على حامل الدعوة أن يدعو إلى سيادة الإسلام سيادة مطلقة بغض النظر عما إذا وافق الناس أم خالفهم ، ويعلن أحكام الإسلام سواء رضي بها الناس أم رفضوها ، فحامل الدعوة لا يتلق ولا يجامل من ييهم الأمور .

حمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القيادة الفكرية في مكة فلما وجد أن أبناءها لا يحققون الغاية هيئاً أبناء المدينة لذلك ، ثم أوجد الدولة وطبق الإسلام على المجتمع المدني ، وأحدث فيه إنقلاباً في العقيدة ، وتقوية الصلة بالله ...

ويجب على كل من ينتهي إلى الإسلام أن يؤيد الدعاة في مهمتهم كواجب مكلفين به ، وأنهم مسؤولون أمام الله إذا لم يقوموا به ، قال الله :

(1) ورد بلفظ يقارب في صحيح مسلم . رواه الترميذي من حديث أنس . ورواه النسائي من حديث عبادة بن الصامت

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني
وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (سورة يوسف) .

لقد نوه الله سبحانه وتعالى بهذه البعثة الميمونة ، والمنة الكبرى التي امتنَّ
بها على العالمين ، والنفحة الربانية العظيمة ، والرحمة المهداة ، ألا وهو سيدنا
محمد صلى الله عليه وآله وسلم لولا رسالته لما اهتدينا ، ولا تحلينا بسائر
مكارم الأخلاق ، والخلال الحميدة التي سعدنا بها في ديننا ودينانا أفرادا
وأما .

وضعت هذه الرسالة الإلهية الخالدة حدا فاصلا لعصر الجاهلية وافتتحت
عهدا جديدا ، عهد النور والعلم ، والعدل والمساحة والاتحاد ، ودعا الناس
إلى دين واحد ، وعبادة إله واحد ...

هياً الله صاحب الرسالة منذ صغره لمهلها ، فحلاه منذ نشأته بالعلم
الذي لا يشوبه جهل ، وبالفضيلة التي لا يعترىها نقص ، وبالصدق الذي
لا يخالطه كذب ، فجمع له غرر الفضائل التي فاق بها الأولين والآخرين ،
فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم ، ولا تزال على حالها منهلا عذبا
للواردين من أصحاب اليمين والسابقين ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء) .

فقد جمع له من مكارم الأخلاق ما تفرق في غيره من النبيئين والمرسلين
وقدمه عليهم بقوله : ﴿ وَاذْأَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّئِينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ
وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ
مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (سورة الاحزاب) . فصلوات الله وسلامه عليهم
أجمعين ...

أكرم الله الأمة الإسلامية بخاتم الرسالات الذي زكاه ربه وطهره من
أدران الجاهلية ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يتقلب في أصلاب
الساجدين وأرحام الطاهرات حتى برز إلى الوجود ، ولم يخرج من سفاح
قط كما أخبر هو عن نفسه ...

فيلادك يا سيدي يا رسول الله كان حادثا سعيدا على البشرية جمعاء ،
اهتز له الكون ، وطربت السماء ، وهتفت له الملائكة وابتهجت به الرسل ،
وتغنت به الأطيّار من فوق أيكتها ، وعمّت الناس البهجة والسرور ،
ومادت الأرض فرحا بأمر ربها وأصغى الكون لما ترتله عليه من الآيات
الباهرات ...

فَهَا هي رسالتك - يا رسول الله - يكتب لها الخلود على الأبد ،
ودعوتك تحرق الحجب الكثيفة ، وتغذي العباد في كل زمان ومكان وأينا
حلّت تزيل الظلام والشرك من طريقها ، وتعصف بالظلم والظالمين ،
ولا زالت تغزو المجاهل والأغوار والأدغال ، والصحاري والبحار فتثير
القلوب الهامدة ، وتهيب بها إلى التوحيد فتقنذها من رذيلة الشرك
والشك ، وتزيل عنها الحيرة والضلال ، وترفع عنها الإلتباس والغموض ،
لا زال الناس يسرون على هديها المستقيم وطريقها الأمثل بعدما مضى
عليها أربعة عشر قرنا من بعثتك الميمونة ، وصيحتك المدويّة في الآفاق
لا زالت ترنّ في الآذان إلى الآن وإلى الغد ...

سيدي يا رسول الله - سيرتك العطرة لا زالت غبطة طرية لم يجد لها
الزمان بديلا ، فأخلاقك العليا التي شهد لك بها التنزيل لا زالت محل
اندهاش وإعجاب من طرف الأجيال المتعاقبة التي جاءت من بعدك ، وفي
مقدمتهم العباقرة والفلاسفة والعلماء ، بل أصبحت شمسا منيرة في كل قلب
طاهر نقي اللهم إلا ما كان من قلب حاسد فأعمى بصره وبصيرته ، نورك
الوهاب فهو لا يبصر النور كالحفافيش التي تعيش في الظلام ، هكذا صاغك
ربك ظاهرا وباطنا فكنت سر الوجود .

فنهاجك الرباني طهر النفوس من دياجير الشرك ، وأنارها بالتوحيد
فرجّعها إلى فطرتها السليمة التي فطر الله الناس عليها ، وأقام صرح العدل
شاخا ، فأصبح الناس سواسية في هذه الحياة لا تفاضل بينهم إلا بالعمل
الصالح النافع للبلاد والعباد ، لا زال هو المنهج الوحيد الذي يكرم
الانسانية ، ويحفظها من شوائب الظلم والطغيان ، لم يرق إليه أيُّ منهج
من مناهج الناس الكثيرة بعدما تقدم العلم وصال الفكر في مجال العلوم

ومعارف الدين الذي جئت به - يا حبيب الله - ظهر على جميع الأديان كلها قال الله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ (سورة الفتح) ...

هذا الدين حق ، وإن ارتاب فيه المبطلون ، وعارضه المكذبون وكفى بالله شهيدا على استقامته ، وما دام هناك تأييد الله لهذا الدين فلا بد أن يسود ...

تجلت عناية الله بهذا الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه فبعث إليه رسوله الكريم على حين فترة من الرسل بالإسلام الذي هو خلاصة الأديان المنزلة من قبله ، فأنقذ صلى الله عليه وآله وسلم العالم مما كان يتخبط فيه من الجهالة والحيرة والشرك والضلال بعد توضحيات جسام فحقق له ما كان ينشده من إيمان بالله وعبادته وحده ، وعدل ومساواة بين الناس ، وكرامة وحرية وإخاء ...

بهذه الرسالة كان المبعوث رحمة للعالمين ، بهذه الرسالة إلتقت السماء مع الأرض ، والروح مع المادة ، بهذا الرسول الكريم كان خاتما للرسالات السماوية ، وإيدانا بالوحدة البشرية ، الوحدة الشاملة التي لا تفرق بين أبيض وأسود ، الناس كلهم لآدم وأدم من تراب ...

لما تمت النعمة وكل الدين ، وبلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رسالة ربه أحسن بقرب أجله وخروجه من الدنيا ذكر الفقراء ، وكان طول حياته لا يرغب في المال ، وكان كلما جمع منه شيئا أنفقه في الصدقات ، وقد أعطى لعائشة رضي الله عنها يسيرا من المال لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب في سِنة ، ولما أفاق سألها إن كانت أنفدت أمره ، فأجابته ب : « لا » ، فأمر بالنقود إلى العائلات المعوزات فوزعت عليهم ،

« عندها استراح ﷺ لأنه كان يخشى أن يلاقي ربه وقد ترك في بيته مالا لم ينفقه على عباد الله » ..

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي بالناس ، وآخر يوم خرج فيه ، وهو متكىء على الفضل بن عباس ، وعلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقصد منبر الخطابة الذي كان يعظ عليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال :

« أيها الناس تسمعون قولي إن كنت ضربت أحداًكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فليتهم من سمعتي وإن كنت سلبت أحداً ماله فأليه مالي يقتص منه ، وهو في حلٍّ من غضبي ، فإن الغلَّ بعيد عن قلبي ، ثم نزل على المنبر وصلى بالجماعة ، ثم دعا لشهداء البقيع ولمن حارب معه ، وطلب الرحمة والغفران ، وكان مشهد النبي في ذلك اليوم مشهد إجلال ووقار ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يبكي ويقول : هلاً افتدينا روحك بأرواحنا » ، ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة رضي الله عنها ، واضطجع تعباً مهزولاً ، وبدأ المرض يشتد عليه ، فتخلف عن الصلاة ، قيل له قد جاء وقت الظهر ، فأشار إلى أبي بكر ليصلي بالناس ، وأخبرت عائشة عن حالة احتضاره ، فقالت كان رأس رسول الله مسنداً إلى صدري وبقربه قدر ماء يقوم ليضع فيها يده ، ويمسح جبينه ويقول : « رب أغني على تحمل سكرات الموت أدن مني يا جبريل رب اغفر لي ، واجمع بيني وبين أصدقائي في السماء » ، ثم ثقلت رأسه ، ومال ثانية إلى صدري ، والتحقت روحه الطاهرة بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم .

محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

يجب علينا - أيها المسلمون - أن يكون الرسول المحبوب لنا أسوة حسنة كما قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، هذه الأسوة تمثلت في أخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حتى فاضت على أصحابه لأن الله تولى أدبه كما أخبر هو عن نفسه قال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » (1) وأخبر الله عن أخلاقه في كتابه الكريم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال أيضا : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَضًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ سئلت السيدة عائشة عن أخلاق الرسول ﷺ قالت كان : « كان خلقه القرآن » (2) .

الأخلاق متفاوتة بين الناس ، وأخلاقه في الذروة منها ، وأنها على درجات ، والقرآن يذكر هذه الدرجات فيقول : فمنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، أو ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، أو درجة المقربين السابقين أو العافين عن الناس والله يحب المحسنين . ولاشك أن رسول الله في أعلاها والقرآن الكريم يحدد هذه الدرجة التي تكلمت عليها السيدة عائشة بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ما هو هذا الخلق - قيل هو القرآن ، أو الاسلام ، أو الطبع الكريم ، أو لاهمة لك الا الله هل هذا الخلق يشاركه فيه أحد من الأنبياء والملائكة ، أم خاص برسول الله ﷺ كإبراهيم عليه السلام إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، أو كسيدنا إسماعيل وكان عند ربه مرضيا ، أو كسيدنا عيسى عليه السلام وقد جعله الله مباركا ، أو الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لكن القرآن يحسم الأمر في ذلك ، ويبين صاحب الخلق الأعلى وهو النبي محمد المبعوث إلى الناس كافة وخاتم الانبياء ، وأول المسلمين على الإطلاق فقال : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة الأنعام) هذه

(1) قال فيه ابن تيمية : المعنى صحيح - لكن لا يعرف له اسناد ثابت

(2) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة . ومسلم عن حكيم بن حزام بلفظ مشابه

الآية الكريمة تبين درجة الأخلاق الكاملة التي وصل إليها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند ربه ، ولقد بعث ﷺ « ليتهم مكارم الأخلاق » (1) فإنه لم يبعث لينشرها فكانت منشورة ولكنها لم تتم ، وعلى هذا كانت الإنسانية ناقصة قبل مجيئه صلى الله عليه وآله وسلم فكانت تريد شخصية أن يزكيها الله ويطهرها ، ويبارك في روحها ، وكان لا بد من هذه الشخصية المباركة ليكمل بها الدين وتم النعمة ، ولما بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد تمت النعمة الكبرى ، وأكمل الله له الدين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وبعدما تم هذا الدين وتمت النعمة قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ وهكذا كانت هدايته لجميع الناس ، وربطت صفاته الخلقية بينهم برباط وثيق ، وكانت قيادته صلى الله عليه وآله وسلم ملهمة الخير لهذه الأمة ...

كان الصدر الأول من سلفنا الصالح مملوئي القلوب بالحبة لله ولرسوله مشغولي الجوارح بالطاعة ، طاعتهم ابتغال لله ، وإنابة إليه ، ألسنتهم ذاكرة ، وقلوبهم خاشعة ، وجوارحهم ساعية حافدة ، كانوا ممثلين لأوامر الله بعيدين عن النواهي فحبتهم لله ولرسوله كانت محلوة في مظاهر الإمتثال وإتباع السنة ، والإقتداء الكامل محفوف بالوقار الشامل . قلوبهم عامرة ، وأجسادهم مجتهدة مجاهدة في كل مظنة قرب من الله ورسوله .

سيدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليك - الهدى ما بين الله وبينت ، وما أمر الله وبلغت فلنذكرك ونعظمك وتقديسك ، وليكن في ذكرنا لك ذكرى لكل قلب منيب ، وليخشى كل مدعي محبتك أن يبتدع فيما جئت به ، فما قصرت يا رسول الله في التبليغ ولا كتمت ، ولا تركت حاجة لمبين بعدك إلا تذكيراً وتعلية وتبصيراً ، فذكرنا لك يا رسول الله هو أن ننشر هديك ، ونحيي سنتك ، ونسلك سبيلك ، ونحارب البدع التي حذرنا منها ...

(1) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي في السنن - عن أبي هريرة .

الصلاة والسلام عليك يا خير مولود ، ويا خير مبعوث ، حق للعالم أن يفرح بمولدك الشريف كما كانت فرحته العظمى ببعثتك السعيدة .
موفقاً من ذكرك ، فإن الله لا يقبل أن يذكر ولا تذكر ، موفقاً من عمر أوقاته بالصلاة والسلام عليك واجتلى أنوارك عند كل مناسبة طيبة تذكر فيها .

كان المسلمون الأولون في احتفال دائم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينفذون شريعته ويطيعون أوامره ويرددون ذكره بكل إجلال وتعظيم ، وإخلاص ومحبة في كلمتي الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفي أذان الصلاة ، والتشهد وغيرها من الشعائر الدينية الأخرى يصلون عليه ويسلمون كلما ذكر اسمه الشريف طاعة وامثالاً لله ﷻ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ...

هكذا كان المسلمون الأولون قلوبهم مملوءة بحبة رسول الله ﷺ ، فإذا قرأوا القرآن يذكرونه ، وإذا يصلون يذكرونه ، وإذا يتحدثون يذكرونه ، فحياتهم كلها كانت ذكراً لله ولرسوله ، وقد اشترط الله فيمن يحبه أن يحب النبي ﷺ قال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ...

لقد كان المسلمون الأولون يتجهون دائماً إلى الحقائق لا إلى صورها ومظاهرها ، وإلى إصلاح المجتمع بالحق والخير والعدل لا إلى خداعه بالشكليات التي لا تغني عن الحق شيئاً ...

وهل كان المسلمون الأولون يتصورون أن تقام الذكرى للزعماء والعظماء ويجهلون ذكرى نبيهم ، كلاً ؟ لم يقع هذا ولكن جذوة الإيمان فترت في القلوب ، وشغل الناس بالشقاشق عن الحقائق ، وتزيين الظاهر عن تعمير الباطن . غلبت البدع والأهواء على مسامي اليوم ، وطراً ما طراً عليهم ما طراً على سوائف الأمم فابتدعوا بدعاً سموها طاعات وظواهر زعموها عبادات مع أن صميم العبادة الاسرار بالذكر وتعمير القلوب بالطاعات ،

والتمسك بالمأمورات والتجافي عن المنهيات . روى عن أوس بن أوس قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن من أفضل أيامكم يوم
الجمعة فأكثرُوا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة
علي » (1) .

(1) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه . من حديث - أوس بن أوس - وإسناده صحيح .

التعريف بالايان

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله حرّم الله جسمه على النار » (1) أخرجه الترمذي . وبقيت الأركان الأخرى فهي من الإيمان أيضا ، وأنها لا تقوم إلا بالشهادتين ، والشهادتان بالنسبة الى الاسلام كالروح بالنسبة إلى الجسد .. فشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله هي حياة كل جزء من أجزاء الاسلام ، والشهادتان لا تنفصل إحداها عن الأخرى ، والمسلم عندما يقول : لا إله إلا الله ، فكأنه قال : لا مطمئن إلا اليه ، ولا مستجار إلا به ، ولا محبوب ولا معبود ، ولا مالك ولا مطاع ولا معظم ، ولا معتمد به ولا سيد ولا حاكم إلا الله ، ولا يقوم الإنسان بلوازم لا إله إلا الله إلا إذا آمن برسوله الكريم ، وتعرف بواسطته على الطريق الذي يريد أن يسلكه ليحقق بذلك التوحيد والطاعة لله ، ولهذا كان الإيمان بالرسول شرط في الإيمان بالله لأنه الدال على الطريق الموصل اليه ، إذ لا يقوم أحد بحق الله إلا إذا عرف رسوله ، ولهذا حكم بكفر من لم يؤمن بالرسول بعد أن أقام الحجة عليهم برسالته ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ﴾ (سورة النساء) . لا إله إلا الله يصدر عنها منهج الحياة ، والمجتمع الاسلامي يقوم على العبودية لله وحده في جميع أموره وشؤونه ...

الإيمان قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، وإن هذه الثلاثة داخلية في معنى الإيمان المطلق ، فالإيمان المطلق يدخل جميع الدين ، ظاهره وباطنه أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا من جمع ذلك كله ، ولم ينقص منه شيئا ، ولما كانت الأعمال والأقوال داخلية في معنى الإيمان كان قابلا للزيادة والنقصان فهو يزيد بالطاعة ،

(1) أخرجه أحمد في مسنده - مسلم - الترمذي - عن عبادة - صحيح -

وينقص بالمعصية كما هو صريح القرآن قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ (سورة فاطر) . الإيمان والإسلام الشرعيان متلازمان في الوجود ، فلا يوجد أحدهما بدون الآخر كلما وجد إيمان صحيح معتد به وجد معه الإسلام وكذلك العكس ، ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر وأما إذا ذكرنا معا مقترنين : أريد بالإيمان التصديق والإعتقاد ، وأريد بالإسلام الإلتقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان ...

أما الايمان وحده فهو أخص من الإسلام ، وقد يوجد إسلام بدون إيمان كما في قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ (سورة الحجرات) . فأخبر بسلامهم مع نفي الإيمان عنهم ...

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله » رواه الترمذي .

الإيمان بالله عز وجل هو المبدأ الوحيد الذي أخذ به المؤمنون في الشرق والغرب ، وفي القديم والحديث بل هو الغاية الوحيدة التي خلق من أجلها الناس قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (سورة الذاريات) .

الإيمان بالله هو التصديق بالحقيقة الكبرى التي لا تحول ولا تزول ، والإعتراف بوجود الله بواسطة مخلوقاته الكثيرة البديعة الشكل العجيبة الصنع ...

الإيمان بالله هو شعور الإنسان المخلوق بمنزلته المحدودة أمام رب عظيم بيده ملكوت السموات والأرض وكل شيء في هذا الوجود ...

الإيمان بالله هو القوة الباعثة على العمل الصالح ، القوة التي توجه الإنسان فيما يأتي ويدع في جميع شؤون الحياة كلها ...

الإيمان هو مبدأ عام لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين وطن ووطن هو هداية من الله إلى الخلق أجمعين ، هو قوة روحية ، ودعوة إلى قوة مادية ، هو نظام كامل يقدم للإنسانية فكرة شاملة عن الكون والحياة ، ويجعل العنصر الأخلاقي هو الغاية في بناء الحياة الإجتماعية ، ويكون المسلم متشبعاً بالعقل والروح لتنبعث الحياة من داخل النفس .

هذا هو الإيمان ، ولكن بعض المسلمين فهموا أن الإيمان ألفاظ جوفاء ، يظنون أن الإيمان هو الإذعان السلبي الذي لا يكلف صاحبه عملاً ، ولا يبعث في قلبه خشية ، ولا يؤثر في خلقه تهذيباً ، ولا يدعوه إلى مشاركة في بر أو معاملة في إصلاح ، أو عمل خير ، ويحرص صاحب هذا الإيمان على أداء صور العبادات المفروضة ، والتظاهر بأهل التقوى والصلاح ...

يحسب هؤلاء المسلمون أن هذا الإيمان مقبول عند الله موصول إلى النجاة من عذاب الله ، والسعادة في الدار الآخرة وهم يتلون كتاب الله ، ويعرفون ما وصف الله به عباده المؤمنين في كثير من الآيات .

القرآن يعرف المؤمنين مستيقنين غير مرتابين ، يعرفهم مجاهدين صابرين ، ويعرفهم أصحاب رأي وأهل غيرة على المجتمع يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويعرفهم متحابين لم يفسد قلوبهم الغل ، ولم تفرقهم الأهواء ، ويعرفهم أقوياء بالحق يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخشون لومة لائم ، ويعرفهم خاشعي القلوب غير مستكبرين على أوامر الله ، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، ويعرفهم حراصاً على إقامة الصلاة وعلى توطيد صلتهم بربهم ، وعلى تحصين كرائم أموالهم بإيتاء الزكاة ، ويعرفهم بأوصاف الخير والبر التي لا صلاح إلا بها ولا استقامة إلا عليها أولئك هم المؤمنون حقاً في نظر القرآن ، وأولئك هم المفلحون ...

السعادة في الإتصال بين الانسان وخالقه ، وليست السعادة في المال كما يعتقد كثير من الناس ، ولا في الجاه والمنصب ، ولا في الأبناء ، هذه الأشياء عارضة تزول لا محالة ، فسعادة المؤمن في طاعة ربه لأن الله معه على الدوام ، لأن المؤمن يتقرب دائما رحمة الله ، فبهذا الإيمان يعالج المسلم مشاكله بالحكمة والصبر ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ الإيمان بالله هو رأس مال المسلم الحقيقي ، وهو شفاء وعزاء للقلوب المحرومة من متاع الحياة الدنيا لأن المؤمن لا ينظر نظرة رغبة إلى من يفوقه في المال ، أو في الجاه ، بل ينظر الى ما عند الله من الرحمة والمغفرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وقال أيضا : ﴿ إِنَّ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الذين يكون سعيهم نيل رحمة لا توهن نفوسهم أية خيبة أمل ، أو أية مصيبة تدهمهم ، فالقوة الروحية تدخل إلى نفوسهم العزاء مما يقاسونه من آلام ومتاعب ، أما الذين يغفلون عن رحمة الله فيقعون في مواطن الخطر ، وما أصدق ما وصف به القرآن فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ .

الصبر من الإيمان :

ومن الكلمات التي حرفت عن معناها كلمة الصبر ، لقد ذكره الله في القرآن أكثر من سبعين مرة عرّف الله عباده بثمراته الطيبة ، وما كان له من عاقبة حسنة في الدنيا والآخرة ، إنه أساس من أسس الدين وينبوع لكثير من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، ولقد أتساءل . ما هو الصبر ؟ أهو الإستسلام والخضوع وقبول النكبات والمصائب بدون مقاومة ؟ أهو الركود والبلادة والإقامة على الظلم ؟

كذلك يصوره الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وكذلك صوّروه للناس ، فرضي الفقير بفقره باسم الصبر ورضي المريض بمرضه باسم الصبر ، ورضي الذليل بذله باسم الصبر ، ورضي المظلوم بظلمه باسم الصبر ، وقد أضلوا الشعوب فعلموها أن جور أهل الجور قضاء وقدر يجب أن يصبروا عليه ، وأن ظلم أهل الظلم مظهر من مظاهر التأديب الإلهي ، فعليهم أن يتقبلوه بالرضى ، وأن الفقر والغنى قسمة ونصيب لا فكاك منها ولا إرادة لأحد فيها ، وهكذا حتى ثبطوا العزائم عن العمل والسعي ، وأضعفوا الهمم ، واستسلم الناس للواقع ، فهل هذا هو الصبر الذي عرّفه القرآن وحث عليه ؟ وهل يمكن أن يكون الله تعالى قد أراد هذا المعنى لما أمر عباده به وأثنى عليه ، ورغب فيه ، وضمن حسن عاقبته ، وأعلن أنه يحب أهله ، وأنه سيوفيه أجورهم بغير حساب ...

الصبر الذي يعرفه القرآن ويأمر به هو الأخلاق الفاضلة التي تهدي إلى الأعمال الصالحة ، وتتقوى به النفوس المؤمنة . الصبر هو مجاهدة النفس وحبسها عن الضجر والتبرم مع متابعة العمل والسعي ، وعدم الإنكاش والإنكسار ، ولذلك كان الصبر من المعاني الباطنية كالشجاعة على مكاره الجهاد صبر والجود على بذل المال صبر ، والكتمان على المثيرات والأسرار صبر ، إلى غير ذلك مثل العفو عند القدرة ، وضبط النفس في حالة الإنفعال والغضب ...

ذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب سيدنا داوود عليه السلام حين رأوا قوة جالوت وأصحابه ، قال بعض منهم : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله - وهم الصابرون - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ (سورة البقرة) لم ترعهم الكثرة الساحقة ، ولم تذهلهم القوة الماحقة ، ولم يتعللوا بعدم التكافؤ ، فمضوا في طريقهم عالمين أن القوة إنما هي قوة الروح لا قوة الأشباح ...

ليس في التكليف أصعب من الصبر ، فيجب على المؤمن أن يصبر على التكليف الشرعية كالصلاة والوضوء والزكاة والصوم والحج ، ويمتنع عن المحرمات والشهوات ، وأن يصبر على القضاء والقدر بعدما يستعمل جميع الوسائل في دفعها ، ولهذا جعل الله الصبر فرضاً على كل مسلم ، ولا أفضل من الرضى به ، فإذا رأى المسلم كافراً بالله قد أتاه الله المال الوفير ، والجاه العريض ، فيلبس الحرير والديباج ، ويتمتع بالذهب والفضة ، والسيارة والقصور الضخمة ، والخدم وما إلى ذلك من الصحة والأولاد والعافية ، وتنظر إلى رجل مسلم من أهل الدين وطلاب العلم محيطاً به البلاء معوزاً فقيراً مقهوراً تحت ولاية ظالم جبار مسلطاً عليه أنواع العذاب ، فالمسلم ضعيف الإيمان ، إذا قارن هذا وذلك يرى عدل الله معدوماً بين هذين الرجلين وتزيده وسوسة الشيطان لأجل هذا يحتاج المؤمن إلى الصبر على ما يلقي من الضر ، وعلى وسوسة إبليس لعنه الله ، وكذلك يجب الصبر على تسليط الكفار على المسلمين مع المقاومة الشديدة ، والتسك القوي بأوامر الدين . الآن أستعرض الآيات القرآنية التي وردت في الصبر ومما يقوي صبر المؤمن القرآن لأنه شفاء لما في الصدور ، قال تعالى في حق الكافر : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا خيراً لأنفسهم إنما نلّهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ (سورة آل عمران) .

ويقول في (سورة الزخرف) : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً

وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴿ وقال في (سورة الإسراء) ﴾ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميراً ﴿ والآيات في هذا المعنى كثيرة ، ويتكلم سبحانه وتعالى على المؤمن الذي يجب أن يتحلى بالصبر ، فقال : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (سورة آل عمران) . وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الخلق على الإطلاق كان يتقلب على رمال حصير أثرت في جنبه الشريف لما رأى عمر بن الخطاب ذلك فبكى وقال : « كسرى وقيصر الروم في الحرير والديباج يتنعمان » قال عليه الصلاة والسلام : « أفي شك أنت يا عمر ؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا » (1) وإذا أراد الله أن يتخذ شهداء عنده فيخلق أقواما يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين . أفيجوز أن يفتك بعمر العادل الملهم المحدث إلا بمثل أبي لؤلؤة المجوسي ، وبعلي كرم الله وجهه إلا بمثل ابن ملجم الخارجي ؟ أيعقل أن يحيي نبي الله عليه السلام يقتل في مهر بغي ؟ إلى غير ذلك من الأمثال الكثيرة من القرآن والأحاديث النبوية ، ولهذا يجب على المؤمن أن يصبر ...

(1) متفق عليه - بلفظ آخر - عن عمر .

الطريق إلى الله هو العلم

يجب على المؤمن أن يسعى في طلب العلم لأنه الطريق الوحيد إلى معرفة الله قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ كلما تعمق الإنسان في الجانب العلمي تكن خشية الله سبحانه وتعالى لأنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان في الصنع ، ومن الحكمة في التدبير ما يجعله يختر ساجدا لله ، فالذين يتخصصون في علم التشريح يرون فيه من إحكام المحكم ، ومن الدقة الدقيقة في مختلف الأجهزة الجسدية ، وفي مفردات هذه الأجهزة ما يضطرهم إضطرارا إلى السجود لرب هذا التنسيق والترتيب والإبداع .

وليس علم التشريح وحده هو الذي يبهر العالم المتبحر فيه ، وإنما يبهر علم الفلك العالم الفلكي ، ويبهر علم الأحياء عالم الأحياء ، وهكذا نجد انبهار النفس في كل ميدان من ميادين المعرفة الكونية أرضها وسماؤها وما بين الأرض والسماء ...

إن العلم النافع هو أهم مطلب في الحياة ، وأجل مقصد في هذا الوجود ، فالعلماء هم الذين يضيئون مسالك الحياة ، ويسيرونها بالناس قدما إلى السمو والكمال .

طلب العلم في الإسلام ليس نافلة ، ولا أمرا كاليا وإنما هو فرض وضروري .

العلم الصحيح هو دليل اليقين الثابت ، ووسيلة الخلق الفاضل ، وكما ازداد الإنسان علما ازداد اعتقادا بالله واستقامة في الأقوال والأفعال ، ومعرفة في الحلال والحرام ، ويصبح قادرا على قيادة نفسه وضبطها وتهذيبها ، وبعيدا عن التأثير بمن يدور حوله من الشهوات والمغريات ...

إلآما ينتهي العلماء الصادقون ؟ يقول الله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ إنهم يصلون عن طريق العلم الذي يثير الخشية إلى

التوحيد ، التوحيد الذي هو سمة الدين الإسلامي كما يرى « البيروني » ،
والذي هو في حقيقة الأمر سمة التدين الصادق .

ويشهد علماء التوحيد مع الله ، ومع الملائكة الأطهار ، إن الله سبحانه
قرن العلماء به ، وبلائكته في شهادة التوحيد ، وهذا أسمى ما يمكن أن
يصل إليه تكريم العلماء من مكانة ...

وشهادة التوحيد التي هي قمة الركن الأول في الإسلام ، وهو أشهد أن
لا إله إلا الله ، لا يشهداها إلا العلماء المؤمنون ، وشهادة التوحيد هي
منتهى ما يمكن أن يصل إليه السالك في معراجهِ إلى الله سبحانه ،
لا تتحقق إلا في العلماء المؤمنين . إن شهادة التوحيد هذه قد وجّه الله
الأنظار إليها بأساليب شتى ، ومن هذه الأساليب ما لا يقدره في دقته
الدقيقة وروعته الرائعة إلا العلماء قال تعالى : ﴿ قل الحمد لله وسلام
على عباده الذين اصطفى الله خير أمّا تشركون ؟ أمن خلق
السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبأنا به حدائق
ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم
يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل
لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله بل أكثرهم
لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء
ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن
يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح نشرًا بين يدي
رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم
يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل هاتوا
برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (سورة النمل) ...

ثم يعقب الله على هذه الآيات بأنه بلغ العلماء بعلمهم فإن المجهول
لديهم كثير ، وأنه لا يعلم هذا المجهول المغيب إلا الله سبحانه ، ﴿ قل
لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون
أيّان يبعثون ﴾ (سورة النمل) ومن أجل شهادة التوحيد حث الإسلام
على العلم ووجه إليه وجعله من أسس الدين ، لقد حثّ عليه في صور

بلغت من الروعة حدا لا يجارى . والآيات والأحاديث التي وجهت الأمة الإسلامية إلى العلم كثيرة مستفيضة .

العلماء لا يعبدون الله إلا بما شرع لهم ، ولا يأخذون إلا بالدليل ، ولا يسيرون إلا على أوضح سبيل ، ولذلك يقبل منهم القليل ويضاعفه لهم حتى يكون كثيرا ، والجاهلون يدينون الله بالباطل ، ويعبدونه بالأهواء والبدع ، ويستجيبون إلى كل ناعق ، ويعملون كثيرا ولا يستفيدون إلا قليلا ، قال تعالى في حق الجاهلين : ﴿ ولوا تتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .

وإذا كان العلماء يشهدون التوحيد فإن منزلتهم بالمكان السامي ، ودرجاتهم في الرفعة والعلو ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (سورة المجادلة) ولهذه الجوانب من فضل العلم والعلماء أمر الله سبحانه وتعالى رسوله - وهو قدوة المسلمين وأسوتهم - أن يقول : ﴿ رب زدني علما ﴾ ...

رب زدني علما في كل يوم ، بل في كل لحظة ، ذلك ما يجب أن يكون شعار المسلم ، وإذا ما زاد المسلم علما ازداد خشية ، وإذا ما ازداد خشية تحقق فيه إسلام الوجه لله على أكمل صورة .

وإذا نظرنا إلى الأحاديث النبوية الخاصة بالعلم فإننا نرى عجا قال عليه الصلاة والسلام : « العلم طريق الجنة » ويقول فيما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما : « العلماء ورثة الأنبياء » (1) ويقول صلى الله عليه وآله وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » (2) رواه الترمذي . وفيما رواه الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

(1) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي الدرداء مرفوعا بزيادة . وصححه الحاكم وابن حبان . وضعفه غيرهم ما لاضطراب في السند . قال ابن حجر له طرق يعرف بها أن للحديث أصلا .
(2) شطر من حديث في سنن الترمذي عن أبي أمامة رواه الطبراني في الأوسط . والباز .

العلم رضا بما يصنع » (1) ومن أجمع الأحاديث في فضل العلم ما رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في البحر ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (2) .

والسنة النبوية حثت على التعلم والتعليم في مواطن كثيرة يقول صلى الله عليه وآله وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (3) رواه ابن ماجه ، ويقول : « كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلکم على الهدى ويردکم عن الردى » من كتاب (أدب الدنيا والدين) . ويقول الرسول الكريم ﷺ : « لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالا فتسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » رواه الشيخان ...

وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل المسجد ، فإذا هو بمجلسين أحدهما يذكر الله والآخر يتفقهون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب إلي من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما المجلس

(1) صحيح - رواه الطيالسي - عن صفوان بن عسال

(2) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة - بلفظ مقارب - وأخرجه أبو خيثمة في - العلم -

(3) الحديث لابن ماجه وأحمد والبيهقي ولفظه مشهور أما أسانيده ضعيفة . أورده ابن الجوزي في الموضوعات وحسنه البعض من المتأخرين -

الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلما
وجلس إلى أهل الفقه « من كتاب (أدب الدنيا والدين) ...

وروى الإمام الغزالي في « الإحياء » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه
قال : ان رسول الله ﷺ قال : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية
وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد وتعلية
لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لاهله قربة ، لأنه معالم الحلال
والحرام ، ومنار سبل لأهل الجنة وهو الأنيس في الوحشة ،
والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء
والضراء ، والسلام من الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، ويرفع
الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة ، تقتفي آثارهم ، ويقتدي
بفعلهم وينتهي إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلقتهم ،
وأجنحتها تمسحهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان
البحر وهوامه ، وسباع (البر) وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب
من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم
منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة التفكير فيه
يعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام وبه
يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام العمل والعمل تابع يلهمه
السعداء ويحرمه الأشقياء » قال عليه الصلاة والسلام : « ما عبد الله
بشيء أفضل من فقهه في دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان
من ألف عابد » (1) أخرجه الترميذي ...

المؤمن يتصف بالعزة :

قال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ إن ذلة العبد
لربه ذلة عز وحق لا باطل فيها فإن الخلق والأمر ، والغنى والملئ لله

(1) قال في المختصر - ضعيف - أسانيده ضعيفة ، لكن يتقوى بعضها ببعض - انظر - الفوائد
المجموعة - للشوكاني -

وحده لا شريك له ، ومصير العباد رهن إشارته وطوع إرادته . والناس حينما يكونون في أرق أحوالهم تغنو جباههم لرب العزة في السجود خاشعين ...

أما ذلة العبد لعبد مثله فباطلة لا ريب فيها ، والمتكبر عن الناس متناول يزعم لنفسه ما ليس لها . وقد حرّم الاسلام الكبر وحرّم الذل ، وأوجب العزة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبّته الله لوجهه في النار » (1) لأن الكبر وصف الله ، ولا ينبغي لبشر أن ينازع الله وصفه المستحق له ، تكبر الناس هي خصال مذمومة وفي طليعتها جحد الحق وجهل الواقع وسوء العشرة وتجاوز الحدود . الاسلام حرم على المسلم أن يهون نفسه ، أو يذل ، وفي الحديث الشريف قال عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين في تراحهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (2) يجب على المؤمنين أن يتعاونوا .

قال الله عز وجل ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (سورة النساء) ويجب عليهم أن يتحابوا كما وصفهم الرسول ﷺ قال : « ان لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة : قال : وكان في ناحية المسجد أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ، ثم قال : حدثني يا رسول الله عنهم من هم ؟ قال : فرأيت في وجه النبي البشر ، فقال النبي ﷺ : « هم عباد من عباد الله هم من بلدان شتى ، وقبائل شتى ، من شعوب القبائل لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها ، ولا دنيا يتبادلون بها ، يتحابون بروح الله ، يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم

(1) رواه مسلم - من حديث ابن مسعود -

(2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما - عن النعمان بن بشير -

منابر من نور يفرع الناس ولا يفرعون ويخاف الناس ولا يخافون « (1) أخرجه الامام البغوي في السنن ورواه ابوداود .

والتوجيه النبوي الشريف يحث على تدعيم علاقة المحبة بين المؤمنين لتحقيق الأمة المجد لنفسها ، والعزة بين الأمم أن تحيا حياة الشرف لتكون مسموعة ، ويكون ذلك من ثمرات الإيمان بالله عز وجل الايمان ليس دعوة تقال بلا عمل وليس شعارا يرفع بلا مضمون ، وليس نظرية بلا تطبيق بل هو طريق الجهاد والتضحية بكل ما هو نفيس وغال .

القرآن يرشدنا الى الايمان الذي لا ينفك عن الجهاد ، بل ان الجهاد تطبيق عملي له ، ويحمل حملة عنيفة عن أولئك الذين يريدون أن يحققوا لأنفسهم ، أو لأمتهم أمجادا رخيصة سهلة عن طريق رفع الأصوات وكثرة الادعاءات ، إن هذا الصنف من الناس وجد في الأمة الاسلامية ، ولكن كشفهم القرآن ليكونوا عبرة لمن يسلك سبيلهم كان هذا الصنف يتنى أن يأذن الله له في القتال قبل مجيء أوانه فلما كتب عليهم القتال أصبحوا يخشون الأعداء أكثر مما يخشون الله ، قال الله عز وجل في هذه الطائفة ﴿ ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ ، هذا الفريق الجبان لا يحقق مصالح ، ولا تعزز به دعوة ، ولا يسعد به وطن ، بل يضع ما حققه غيره من عزة وكرامة ، وعلى كل حال لا تخلوا الأمة من مجاهدين يصمدون في البأساء والضراء وحين البأس لأنهم متيقنون أن النصر من عند الله ، قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله لتقوي عزيز ﴾ (سورة المجادلة) وقال أيضا في (سورة غافر) : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ...

(1) رواه أبو داود .

ولكن نصر الله للمؤمنين له أسباب ثلاثة : الصفة الأولى أن ينفي المسلمون العجز والقصور عن أنفسهم .
الصفة الثانية : أن يكونوا أقوياء بمعنوياتهم أمام الأعداء ، ويتركوا الضعف والخور والخشية منهم .

الصفة الثالثة : أن يتركوا الإستكانة التي تزحف على أنفسهم فتنهار أرواحهم من الملح فيجب أن يبعدوها عن أنفسهم قال تعالى : ﴿ وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (سورة آل عمران) وخير الله الإنسان بين محبته ، ومحبة غيره من مباهج الدنيا فقال : ﴿ قل إن كان آبائكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (سورة التوبة) .

جعل الله سبحانه وتعالى مباهج الدنيا في كفة وحب الله ورسوله وجهاد في سبيله في كفة أخرى ، والإنسان يختار ما بين هذا وذلك ، فإن اختار المباهج قال : ﴿ فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ فيه تهديد ووعيد شديدان ، وإن أختار حب الله ورسوله وجهاد في سبيله على مباهج الدنيا وزينتها فذلك المؤمن حقا ...

المؤمن هو الذي أدرك جمال الله وجلاله ، واستشعر لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم عليه ثم تأثر بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجه إليه ، فلذته وارتياحه في طاعة الله وعدم مخالفة أوامره ، يتحمل في ذلك ما يتحمل راضيا مغتبطا بقرير العين ، مطمئن القلب ...

فحب العبد لله هو إيمان حق ، ولا يكون بمجرد المعرفة واذعان

النفس ، بل يؤثر على النفس ، وتبدو آثاره في جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته ...

أما الإيمان الذي لا يعدو الإذعان النفسي والاقرار القلبي فهذا الإيمان الذي لا يريده الله من عباده قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله . وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (1) رواه البخاري ومسلم فحب الله من أهم القواعد في بناء الاخلاق ، وهو محول أرواح المؤمنين إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شر ولا عدوان ، وهذا بالطبع لا يتيسر إلا عندما يغلب الصفاء على النفس فتتسبب البغض والحقد والحسد وسائر الدسائس والمكائد ...

وحب الله لعباده لم يثبتته القرآن إلا لذوي الأعمال الصالحة قال تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ وقال : ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقال : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ وقال : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ...

ونفي حبه عن الذين يتصفون بصفات الفساد والإلحاد والكفر قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿ وَامَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي

وفي الحديث الشريف : « إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول اني أبغض فلانا فابغضوه فيبغضوه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فابغضوه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » (1) رواه مسلم عن أبي هريرة .

أسأل الله أن يرزقنا محبته ، ويجعل لنا من أنواره يرينا الخير من الشر ، ويعرفنا الحق من الباطل حتى نكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ومن الموصوفين بقوله : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ﴾ إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ...

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة .

الإيمان بالملائكة

من شروط الإيمان بالملائكة ، وهم عالم لطيف غيبي غير محسوس ليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس وهم من عالم ما وراء الطبيعة التي لا يعلم حقيقتها إلا الله ...

خلق الله الملائكة من نور ، كما خلق آدم من طين ، وكما خلق الجن من نار ، وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله ، والخضوع لجبروته ، والقيام بأوامره ، وهم يتصرفون في شؤون العالم بإرادة الله ومشئته وهو سبحانه يدبر بهم ملكه ، وهم لا يقدرّون على شيء من تلقاء أنفسهم ...

علمهم في عالم الطبيعة ، وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنهم موكلون بال مخلوقات ، وأنه سبحانه وتعالى وكلّ بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكّل بالجبال ملائكة ، ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ثم وكلّ بالإنسان ملائكة لحفظه ، وملائكة تحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابه ووكّل بالموت ملائكة ، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها ووكّل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكّل بالنار وإيقادها ، وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ، ووكّل بالجنة وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة ، فالملائكة أعظم جند الله فكل حركة في السموات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم ، والشمس والقمر والرياح ، والسحاب والنبات ، والحيوان ، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بهذه المخلوقات قال تعالى : ﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا ﴾ .

فسرت المرسلات بالملائكة وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة ، وفسرت بالرياح وهو قول ابن مسعود واحدى الروایتين عن ابن عباس وقول قتادة ، وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن . وفسرت بالأنبياء ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس . الله سبحانه يرسل الملائكة ويرسل الأنبياء ، ويرسل الرياح ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، فيأرساله واقع في ذلك كله ...

﴿ والناشرات نشرا ، فالفارقا فرقا ، فالملقيات ذكرا ﴾ قال في تفسير هذه الآية ، الحسن ، ومجاهد وقادة هي الرياح تأتي بالمطر ، وقال مقاتل هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم ، وقال مسروق وعطاء عن ابن عباس هي الملائكة تنشر أجنتها في الجو عند معودها ونزولها وقيل تنشر أوامر الله في الأرض وفي السماء .

﴿ والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا ﴾ أكثر المفسرين في تفسير هذه الآية على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم ، والنزع هو إجتذاب الشيء بقوة ، والإغراق في النزع هو أن يجذبه إلى آخره .

﴿ والصافات صفا فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ﴾ ، أقسم سبحانه وتعالى بالملائكة الصافات للعبودية بين يديه كما قال النبي ﷺ لأصحابه : « ألا تصطفون كما تصطف الملائكة عند ربها ؟ تتمون الصفوف الأولى وتراصون في الصف » (1) والزاجرات عن المعاصي ، والتاليات الجامعات لكلمات الله تعالى .

ومنهم ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة بالصلاة والتسبيح والتقديس إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله . الملائكة الموكلون بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر ، فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور ، وتصويره ، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث ، وكتابة رزقه وعمله ، وأجله ، وشقاوته وسعادته ، وملازمته في جميع أحواله ، وإحصاء أقواله وأفعاله ، وحفظه في حياته ، وقبض روحه عند وفاته ، وعرضها على خالقه وفطره ، وهم الموكلون بعذاب ونعيمه في البرزخ ، وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب . وهم المبتثون للعباد المؤمن بإذن الله ، والمعلمون له ما ينفعه ، والمقاتلون الذابون عنه ، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة ، وهم الذين يورونه في منامه ما يخافه ليحذره ،

(1) رواه مسلم عن جابر بن سمرة

وما يحبه ليقوى قلبه ويزداد شكراً وهم الذين يعدونه بالخير ، ويدعونه إليه ، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه .

وهم الداعون له ، والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه ، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير ، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه ، وعند موته ويوم بعثه ، وهم الذين يزهدونه في الدنيا ، ويرغبونه في الآخرة ، وهم الذين يذكرونه إذا نسي ، وينشطونه إذا كسل ، ويثبتونه إذا جزع ، فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده ، تنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم ، وتصعد إليه بالأمر ، قد أطت بهم السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم ، أو رাকع ، أو ساجد ، ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف ملك لا يعودون آخر الدهر ..

والملك يشعر بأنه ملك منفذ لأمر غيره ، فليس من الأمور شيء بل الأمر كله لله الواحد القهار قال تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ وقال : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ . ومنهم الصافون ، ومنهم المسبحون ، ليس منهم إلا من له مقام معلوم لا يتخطاه ، وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه ، وأعلام الذين عنده سبحانه ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

ورؤساؤهم الأملاك الثلاث : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل . روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي ﷺ يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهديني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة

القلوب والأرواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم .

وقالت اليهود للنبي ﷺ : « من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة ؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك باخبر ؟ قال جبريل . قالوا : ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال ذاك عدونا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالنبات والمطر والرحمة » (1) ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدوا للكافرين ﴾ (سورة البقرة) . إن الله سبحانه وتعالى وكل بالعالم العلوى والسفلى ملائكة فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشئته وأمره ، كما أضاف التوفي إليهم بقوله : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ وإليه تارة كقوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ ، ولهذا كان الايمان بالملائكة عليهم السلام أحد الأصول الخمس التي هي أركان الايمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...

(1) رواه أحمد والترمذي . قال الترمذي حسن غريب .

الإيمان بكتب الله المنزل

الإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن الله كتب أنزلها على أنبيائه ورسله ، وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور ، وهدى ، وأن ما تقتضيه حق وصدق ، ولا يعلم عددها إلا الله ويجب الإيمان بها جملة الا ما سمي منها ، وهي التوراة والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، وصحف إبراهيم وموسى .

قال تعالى : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾ . وقال : ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ وقال : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ﴾ (سورة النجم) وقال : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ (سورة الأعلى) . فيجب الإيمان بها على التفصيل ، والبقية إجمالاً .

وهذه الكتب المنزل من عند الله على أنبيائه ورسله يلتقي فيها النبي بقومه ، وهي مجال الدعوة ، ومركز الثقل فيها ، وفي هذا المجال يشتد الصراع . وتحدث الخصومات وتجتمع قوى الشر وجنود الباطل لتخفت صوت الحق ، ولتطفئ نور الله ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (سورة الصف) . وفي سبيل الدعوة إلى الله ، والتعريف به إحتل أنبياء الله ورسله الكرام من أشد ما عرف الناس من ألوان الأذى أن يهنوا أو يضعفوا أو يستذلوا . إنها رسالة لا يقوم لها ، ولا يستقل بحملها إلا أولوا العزم الموصولون بأسباب السماء ، والموصوفون برعاية الله وتأييده . ولهذا لم يكن رسل الله إلا الصفاة المختارة من عباده ، قد اصطفاهم الله لهذه الرسالة وأعدهم لهذا الأمر العظيم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ومع هذا فإن الرسل بشر تظهر عليهم أعراض البشرية ، وتتجلى فيهم خصائصها : الجسدية ، والنفسية ، والروحية . فهم يألمون كما يألم الناس ، ويضيقون ، ويحزنون ، ويفرحون ، ويغضبون ، ويحلمون ، ولكنهم في جميع الأحوال التي تتقلب بالناس - هم على أكمل الكمال الذي تتسع له

البشرية ، وتحتمله . تقول هذا لنفهم منه أن لكل رسول ، كما لكل إنسان - سعيه وجهده في محاسبة نفسه ، وفي مغالبة ضعفه البشري ، وأنه بقدر ما يعمل وبقدر ما يتحمل ، تكون منزلته عند الله ودرجته بين رسله وأنبيائه كما يقول سبحانه : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ ونفهم من هذا أيضا أن الرسل مطالبون بأن يجاهدوا ، وأن يعملوا ، وأن يستقلوا بحمل العبء الملقى عليهم ، وألا يدخل التواكل على مهمتهم ، بحسب أن الله هو صاحب الدعوة ، وهو الذي يتولى ! كلا فانهم مكلفون بأن يواجهوا بأنفسهم هذه المهمة التي ندبتهم لها السماء ، وأن يقوموا عليها قيام الراعي القوى الحذر الذي يسوق قطيعه إلى مواطن الكلاء ، وموارد الرعي الذي لا يغف عن عينه عن الذئب المتربصة بالقطيع ، ولو شاء الله أن تحمل عن الرسل والأنبياء أعباء ما حَمَلُوا ، وأن يطوع لهم كل شيء - لكانوا مجرد أدوات ، ولم يكن لهم فضل مجاهدة ، ولا ثمرة جهاد ..

ولكن هكذا اقتضت حكمة الله أن يحمل الرسل تبعة مهمتهم العظيمة ، وأن يبذلوا لها من الجهد ، وأن يتحملوا في سبيلها من الأذى على قدر نبيلها ، وشرف غايتها فإن العظائم كفوها العظماء ... ونفهم من هذا كذلك أن أصحاب الرسالات من القادة والزعماء مطالبون بما لم يطالب به غيرهم من الناس من حمل الأعباء ، وتلقى الصدمات بالقدر الذي تضم رسالاتهم من الخير والحق ...

الرسالة الإسلامية

إذا اختص الله سبحانه وتعالى نبيّ الاسلام محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه بأن يكون خاتم الأنبياء وأن رسالته مختتم الرسالات ، فإن أعباء الرسالة التي حملها كانت أضعاف ما حمل الرسل من قبله لأنها رسالة تقف موقف التجمع والشرح والتحديد للرسالات كلها ، ولأنها تواجه الحياة كلها ، وتشترع للانسانية كلها وتتسع لحاضر الزمان ومستقبله جميعا مهمة نبيلة ، ورسالة كريمة ، ولكنها محملة بأعباء ثقال تنوء الجبال بحملها انها تمس الصميم من حياة كل انسان . تمس عقيدته ، وتمس ضميره ووجدانه ، وتحمل قوى الهدم لأربابها وأهله . وليس أعز على الانسان من معتقده أيّا كان مكانه من الضلال أو الهدى حتى يتخلى المرء عن حياته ولا يتخلى عن عقيدته .

وحين قام رسول الله ﷺ بأداء الرسالة ، واحتل فيها ما احتل من أذى - كان أول ما افتتح به رسالته ، هو الدعوة الى الله . حتى إذا آمن الناس به ، وأقروا بوحدانيته جاء دور التشريع الذي ينظم حياة الإنسان الروحية والمادية ويحدد صلته بخالقه ، وصلته بالمجتمع الانساني الذي يعيش فيه ...

وقد اتخذت شريعة الاسلام أعدل الطرق ، وأوضحها ، وأكثرها فعالية في الوصول الى الغاية التي قصدت اليها من الدعوة الى الله ، والتعرف اليه ، فلم تشأ هذه الحقيقة أن تغرق الناس في لجج من الجدل الفلسفي ، وفي تصورات من المنطق السقيم الذي لا يلد إلا خيالات وأوهاما ، ولا ينتهي إلا إلى ظنون يضرب بعضها وجه بعض !

ولكن شريعة الاسلام غير هذا انها جاءت الى الناس كما هم . انهم بشر لهم حدود لا يتجاوزونها ، ولعقولهم مدى لا تتعداه ، والبشر هم غالبية الناس وليسوا فلاسفة ... من أجل هذا لم تفتح شريعة الاسلام بابا للجدل في الله ، ولم تستع الى الذين يدعونها الى الخصومة في الله . بل قطعت عليهم الطريق ، وفوتت عليهم ما يقصدون من صرف الدعوة عن غايتها

الجادة ، في كشف الضلالة عن العقول ، والعناية عن القلوب الى مما حركات .
سقيمة ، وجدل مريض ... وليس هذا شأن الاسلام وحده ، وانما هو سبيل
الشرائع السماوية كلها منهج واحد وطريق واحد لأنه أعدل منهج وأقوم
طريق لا جدال في الله ، ولا بحث في ذاته ! ولكن استدلال على الله ،
ونظرة إلى هذا الوجود الذي يصافح حواسنا ، ويأخذ بمجامع عقولنا
وقلوبنا ، نظرة تمتليء بها القلوب خشية واخباتا لمن خلق فسوى وقدر
فهدى ...

ذلك هو منهج الدعوات الاسلامية في كل أمة ، وعلى لسان كل نبي
﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنة الله
تحويلا ﴾ .

والذي ينظر في هذا المنهج السماوي في الدعوة الى الله يجد بين يديه
دلائل الاعجاز التي تغنو لها الوجوه ، وتخضع لها أعناق المعاندين
والمكابرين .

فإن تدبير هذا المنهج وتدرجه مع التطور العقلي الإنساني ومسايرته
للملكات الفكر الانساني عصرًا بعد عصر ينطق بشهادتين :

الشهادة الأولى : أن هذا التدبير لا يكون إلا من حكيم خبير يعلم من
الناس ما لا يعلمون ذلك هو الله رب العالمين .

الشهادة الثانية : صدق هذا القرآن الذي نأخذ عنه ذلك المنهج الصادق
المعجز لأنه كلام الله ، وأن النبي المبعوث به صادق موصول بأسباب السماء
يتلقى رسالته عن الله ، ويحمل الى الناس شريعته ...

والقرآن الكريم لا يهتم بالتوقيت الزمني لدعوات الأنبياء الذين ذكروا
في الكتاب ، لأن هذا التحديد ليس له أثر في الواقعة التي يذكرها القرآن ،
ولهذا المعنى لم تشر آيات الكتاب الى أماكن الدعوة . إذ أن مرمى الواقعة
لا يراد بها إلا عرض مشهد من مشاهد الصراع بين الايمان والكفر ، وبين
الحق والباطل ، والزمان والمكان قضية تتجدد على مر الأزمنة ، وتقع في
كل مكان ، فلا أثر للزمان أو المكان في موقع الدعوة أو العبرة منها ...

وهنا يبدو وجه الحكمة في إطلاق وقائع الدعوة من ظروف الزمان والمكان في هذا الصراع بين الحق والباطل حيث تظل هذه الوقائع ملء الأزمنة ، وملء الأمكنة وهذا لن تكون غريبة في أي زمان ومكان ، إنها للناس جميعا ، ولأجيال الناس جميعا ، فحيث كان صراع بين حق وباطل كانت وقائع القصص القرآني دستورا محكما يحتكم ويتأسى به .

ونلاحظ أيضا مع إطلاق وقائع الدعوات السماوية من قيود الزمن والمكان ، فإن الترتيب الزمني بين هذه الدعوات قد نال شيئا من اهتمام القرآن به ، فهناك أكثر من وجه يمكن أن يستدل منه على مكان كل دعوة من سابقتها أو لا حققتها في الزمن . ومن هذا دعوة هود عليه السلام يجيء على لسانه ، وهو يخاطب قومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ (سورة الأعراف) . كما يجيء على لسان صالح عليه السلام مخاطبا قومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ (سورة هود) . وكذلك يذكر القرآن مدين في قوله تعالى : ﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ فيفهم من هذا أن دعوة شعيب كانت بعد دعوة صالح لأن صالحا كان رسولا الى ثمود ، وأن شعيبا كان رسول مدين وإني اتبع هذا الترتيب في المنهج الذي وضعته السماء لدعوة الحق ، وفتح عقول الناس وقلوبهم لها ...

كانت دعوة الأنبياء تدعو إلى الله مباشرة دون أن تلفت العقول إلى الاستدلال عليه من النظر في ملكوت السموات والأرض ، وتكاد الدعوة تكون دائرة بين كلمتين : (أعبدوا الله) من غير أن يدعي العقل إلى البحث عن الله ، والاستدلال بالنظر في ظاهر الوجود .

ولهذا كانت دعوة الرسل تحتاج الى قوة قاهرة ، قوة لا تخاطب العقل ، وإنما تجابه الحس ، فتبهر الأبصار وتضم الأذان ، وترعد الفرائص ، إنها المهلكات التي يخوف بها الرسل أقوامهم إن هم أبوا الاستجابة لدعوة الرسل والايان بالله ..

ونذكر بعض الدعوات السماوية التي كانت قبل الاسلام .

دعوة نوح (عليه السلام)

أولا دعوة نوح عليه السلام ، وقد ذكرت في القرآن مرات كثيرة ولها في كل مرة لون جديد إلا أنها جميعها تكل صورة الدعوة وتحدد معالمها .

يقول الله تعالى في (سورة نوح) : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين : أن أعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة بشر ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ (سورة المؤمنون) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أن ألزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ، ولكنني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا من الظالمين ﴾ (سورة هود) .

وكادت دعوة نوح إلى قومه تقتصر على قوله عز وجل : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ولكن عقولهم لا تستجيب لغير العقاب

المادي المباشر ﴿ قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ جاءهم الطوفان فأغرقهم الله ، ونجا نوح ومن آمن معه ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

دعوة هود (عليه السلام)

وهود عليه السلام كانت دعوته إلى قومه قريبة من دعوة نوح ، ولكن فيها اشعار بأن الإنسان الذي يخاطبه هود قد كبر شيئا ما عن ذلك الإنسان الذي كان يخاطبه نوح ، وأنه قادر - نسبيا - على أن يستنبط ويدرك فكان في دعوة هود الى قومه الفات قريب الى بعض المظاهر المادية الملائمة لهم ، والمتصفة بحياتهم ، وأن ما هم فيه من نعمة إنما هو من عند الله الذي يدعوهم إليه ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلمكم تفلحون ﴾ (سورة الأعراف) ...

الإنسان الذي يخاطبه هود قد ترقى عقليا نوعا ما فأصبح هود يذكره بفضل الله عليه ، وأنه أخلف قوم نوح الذين أهلكهم الله بظلمهم ، كما أن الله منّ على قوم هود ببسطة الأجسام وقوة الأبدان ، وتلك نعم جديرة بأن يذكروها ، ويذكروا المنعم بها ، وفي هذا رشدهم وفلاحهم ...

وفي موقف آخر يهتف هود بقومه : ﴿ إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون ، وأتقوا الذي أمدكم بما تعملون أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (سورة الشعراء) .

فهذه أنعام ، وبنين وجنات ، وعيون يعيشون فيها وينعمون بها ، وهي ليست من صنع أيديهم ، وإنما هي من الله الذي يدعوهم إلى الإيمان به ، وفي هذا دعوة إلى العقل أن ينظر ويتدبر ...

دعوة صالح (عليه السلام)

وفي دعوة صالح عليه السلام آفاق للنظر والتأمل أوسع من تلك الآفاق المحدودة التي جاءت بها دعوة هود .

وللزمنا آثاره في تلك الفوارق العظيمة بين قوم صالح وقوم هود ، إذ كان قوم صالح قد خلفوا هوداً وخلفوا الأحداث التي وقعت لهم ، والبلاء الذي صب عليهم ، بعد أن عصوا رسول ربهم ، واستخفوا به وبدعوته ، ولاشك أن هذا قد ترك آثاره في هؤلاء القوم بما فتح عليهم من أبواب البحث والتفكير ..

قال تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ، ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾ (سورة هود) .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (سورة الاعراف) .

﴿ إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فرهين ﴾ ...

إن صالحا عليه السلام يذكر قومه بقدرة الله الذي يدعوهم اليه ، أنشأهم من الأرض ، واستعمرهم فيها ...

والعقل الذي يستطيع أن يتصور خلق الإنسان من تراب ، ويرتب مراحل عملية الخلق ترتيبا منطقيا واقعيا بحيث يرى أن النطفة التي هي بذرة خلق الإنسان ، إنما هي الغذاء الذي يتحول في الجسم الى دم ، ثم الى نطفة ، وأن هذا الغذاء من النبات ، وأن النبات هو أجنة الأرض حملته في بطنها ، وغذته بعصارتها - العقل الذي يستطيع أن يدرك هذا ، أو بعض هذا ، هو غير العقل الذي كان عليه قوم هود أو قوم نوح .

ولهذا لم تحمل دعوة هود معجزة إستدلالية تنبيء عن قدرة الله ، وإنما حملت هلاكا وتدميرا ، بعد أن انتهى دور النصح ، والوعد ، ومن قبلها كانت كذلك دعوة نوح ، لم تصحبها معجزة إستدلالية بينما حملت دعوة صالح معجزة أستدلالية ، ويرى فيها أولوا الرشد إشارة الى الله ، وطريقا اليه ، وتلك المعجزة هي الناقة التي اقترحوا على صالح أن يخرجها لهم من صخرة معروفة عندهم وأن تكون عشراء تمخض وأعطوا العهد لصالح أنهم يؤمنون بإلهه الذي يدعوهم اليه إذا جاءهم بما طلبوا به ، وقد استجاب الله لدعوة صالح ، فخرجت الناقة من الصخرة التي أشاروا اليها ، وجنيها يتحرك في أحشائها ، وقد آمن بعضهم لهذه المعجزة ، ولم يؤمن أكثرهم ، وتآمروا على الناقة فقتلوها ، وهنا حل بهم العذاب الذي أوعدهم به : ﴿ ففعلوها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ ...

دعوة شعيب (عليه السلام)

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محبط . ويا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (سورة هود) ..

✽ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ✽ (سورة الاعراف) ...

ونلاحظ هنا أن دعوة شعيب عليه السلام لم تقف عند حدود الدعوات الثلاثة السابقة ، وهي مجرد الدعوة إلى الله ، بل إنها شملت الأمر بعبادة الله ، ثم تجاوزه إلى بعض أحكام الشرع ، وذلك بمخاطبة الضمير الإنساني ودعوته إلى رعاية حقوق الناس ومعاملاتهم بالعدل ...

والضمير إنما يأخذ مكانه في كيان الإنسان حين يرشد ويكتمل وعيه أما في مرحلة الطفولة والصبي فلا مكان للضمير فيها ...

إننا مع قوم شعيب إزاء انسانية كادت تستكمل حظها من العقل والإدراك ، فهم لهذا أهل لكي تخاطب فيهم ضائرتهم وأن يطلب إليهم إقامة حياة إجتماعية يؤدي فيها الفرد حقوق الآخرين لكي يؤديوا له حقه وقد كان القوم معاصرين لقوم لوط عليه السلام وهلاك هؤلاء الأمم الذين عصوا رسلهم ، فبعضهم هلك بالطوفان ، وبعضهم أرسل عليهم الصواعق ، وبعضهم بالريح العاصفة المدمرة ، وبعضهم بالصيحة ✽ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ✽ وهذا العذاب الأليم الذي أصاب الذين ظلموا أنفسهم لم يذهبوا هباء وإنما خلفوا وراءهم عبرة ماثلة وموعظة بالغة لمن كان من غيرهم - في أيامهم ، ولبن أتى من الجماعات من بعدهم . إن طوفان نوح وعواصف هود ورجفة صالح - وقد هلك بها من هلك - قد كانت عبرة وعظة إنتفع بها كثير ، واهتدى بها كثير ، ولا تزال إلى اليوم درسا نافعا وعظة ، ماثلة لكل من أراد العبرة والموعظة .

ولا نذهب بعيدا ، فقد كانت كل زاجرة من تلك الزواجر مثلا يسوقه

الرسول لقومه ، ويشرف منه بهم على مصارع الذين عصوا رسل ربهم ،
وأنكروا مكانهم فيهم ...

فهذا هود عليه السلام يذكر قومه بما حلّ بقوم نوح فيقول لهم :
﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ وهذا سيدنا صالح
يذكر قومه بما وقع لقوم هود فيقول : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء
من بعد عاد ﴾ ...

وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يحمل المثل لقومه ويستعرض مشاهد
الدمار والبلاء التي نزلت بمن سبقوهم في تحدى الرسل وإغنائهم :
﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصابكم مثل ما أصاب قوم
نوح ، أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾
(سورة هود) . فهذه المهلكات التي رمى بها أولئك الأغبياء المعاندون لم
تكن إلا مثلاً تخيف من حولهم ومن بعدهم ، وتدعوهم إلى الإنصياح والتسليم
للهداة الراشدين الذين يدعونهم إلى الصراط المستقيم ، وهذا ما تنطق به
الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها
وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ (سورة الاسراء) ...

وإذا كانت دعوة إبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام قد استرخى
بها الزمن حتى رشتت الإنسانية أو كادت - قد حملت إلى الناس دعوة إلى
الله قائمة على النظر في ملكوته ، وعلى الإيمان به عن طريق هذا النظر
الذي يرسله الإنسان في هذا الوجود فيعود إليه محملاً بالآيات الدالة على
قدرة الله الناطقة بحكمة الخالق وعظمته ...

دعوة إبراهيم (عليه السلام)

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال
لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا
آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين .
قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب

السموات والارض الذي فطرهن ، وأنا على ذلك من الشاهدين .
وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴿ (سورة
الأنبياء) ..

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن
كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن
الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند
الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ (سورة
العنكبوت) ...

إن إبراهيم يضع قومه أمام موقف يحتاج إلى عقل ونظر ، وإلى حساب
وتقدير ، ليميز الخبيث من الطيب ويفرق بين الحق والباطل ﴿ ما هذه
التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا
وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه
ترجعون ﴾ ...

إن العقل الرشيد المكتمل هو الذي يدعى إلى هذا النظر ويحمل على
المراجعة والموازنة بين الأشياء .

دعوة موسى (عليه السلام)

موسى رسول إلى جبهتين : الى قومه بني إسرائيل ، وإلى فرعون الذي
طغى ، وامتد طغيانه إلى بني إسرائيل . يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ،
وموسى يحمل إلى فرعون معجزات لا تقبل التحدي ، ولكن فرعون
يتحداها ، وينتهي التحدي بانتصار المعجزة السماوية فيؤمن سحرة
فرعون ، ويجن جنون فرعون ، وتأخذه العزة بالإثم فيضاعف البلاء الذي
يصبه على بني إسرائيل ، ولا يجد موسى سبيلا إلا الهرب بقومه فيتبعهم
فرعون ، وهناك على مشارف سيناء عند البحر الأحمر يقف موسى وقومه ،
ومن وراءه فرعون وجنوده يكادون يلحقون بهم ، ويضرب موسى بعصاه

البحر ، ويفتح له ولقومه طريق فيه ، وينسحب بقومه إلى الشاطئ
الشرقي من البحر ، وفرعون وجنوده جادون في أثرهم ، يركبون نفس
الطريق في قلب البحر ، وهنا تنتهي المعجزة بعد أن أدت دورها ، حيث
يطبق البحر على فرعون وجنوده ، فيغرقون جميعا .

وهذه المعجزات قد شهدها بنو إسرائيل ، وكان من شأنها أن تقع من
القوم موقع الإيمان ، وأن تقوم شاهد صدق على رسالة موسى ، ولكن القوم
قد إلتوت نفوسهم فلم تعبأ فيها بتلك المعجزات ، ولم تصادف نفوسا طيبة ،
وظل القوم في حاجة إلى معجزات أخرى يتلو بعضها بعضا وجاء موسى
بالبينات ، ضرب بعصاه الحجر فانجست منه اثنتا عشرة عينا لكل قبيلة
منهم عين تستقي منها ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى وجاءهم بالتوراة فيها
هدى ونور ، وفيها تذكير لهم ، بما تفضل الله عليهم من نعمة إذ نجاهم من
آل فرعون . ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ انحأكم من آل
فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون
نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، وإذ فرقنا بكم البحر
فأخينأكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ (سورة البقرة) ومع
هذا فقد لجأ في الضلال والعناد ، وأبوا أن يقتنعوا بكل هذه الآيات ،
وطلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن
لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وقد كان من المتوقع - في ظاهر الأمر - أن
ينزل العذاب الشامل بهم جميعا ، وأن يقع البلاء المأحق الذي لا يبقى
ولا يذر ، كما كان الشأن في المكذبين من الأقبام السابقة ، ولكن يجيء
الأمر على غير هذا فيقع البلاء ، ويحل العذاب ، وإنما في حدود معينة تنال
المعتدين ، وتأخذ الظالمين ...

فألذين اعتدوا في السبت وأخرجوا على الشريعة هؤلاء مسخأ مسخأ
أخرج بهم عن الإنسانية فكانوا قردة يسخر منهم ، ويستهزأ بهم . وتكون
فيهم العبرة لمن اعتبر ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت
فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما
أخلفها وموعظة للمتقين ﴾ (سورة البقرة) ...

والذين صغر في أعينهم شأن الله حتى طلبوا أن يروه عيانا كما يرون الأشياء ، هؤلاء أخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكَ الصَّاعِقَةُ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (سورة البقرة) ، وأما الذين عبدوا العجل وجعلوه إلها فقد نالهم من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا ، ولكنهم قد تابوا ، ورجعوا عن ضلالهم بعد أن راجعهم موسى ونسف العجل الذي عبدوه ، وهم ينظرون ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (سورة الأعراف) ...

ورأس الفتنة هو السامري الذي دعا إلى اتخاذ العجل من الحلي التي جمعها من القوم ، وصوره منها ، فقد مثل به فكان لا يمس شيئا إلا أصابه منه الضر والأذى ...

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ (سورة طه) . فهنا لم يقع العذاب شاملا ، ولم يأخذ القوم جميعا ، وإنما وقع على من استحقوه بما ظلموا ، لأن في البقية رجاء ، وفيهم مكان لمغارس الهداية والإيمان ، إن الجسم الذي يصلح ببيت عضو من أعضائه المريضة فبقية الأعضاء الأخرى السالمة يجب أن تبقى ...

وقد كان في بني إسرائيل مفسدون لم تستقم مع الحق والخير نفوسهم ، وكانوا نبثا سيئا ، فتولت السماء إقتلاعه ...

أرأيت إذا كيف كان المنهج الذي قامت عليه دعوة الرسل رسولا بعد رسول ، وعصرا بعد عصر ؟

فقد سائر هذا المنهج عقلية الإنسانية ، وتقابل معها على المستوى الذي كان لها من الوعي والإدراك . كان المنهج في الرسائل الأولى منهجا تلقائيا يلقي الإنسانية في طفولتها مبادئ العقيدة : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ كما يلقي الطفل أسماء المسميات ، فيقال له : هذا مصباح ، وهذا مذياع ، وذلك كرسي ، وتلك سيارة وهكذا ...

ثم دخل المنهج مدخلا آخر حين تطورت الإنسانية واتسعت مداركها بعض الشيء ، فكان إلى جانب الدعوة إلى الله إلفات إلى الوجود المادي ليستدل به على النظام المسك به من غير عظمة الخالق وقدرته كذلك صحب هذه الرحلة من دعوات الرسل معجزات غير انتقامية يراد بها تأييد الرسول وتزكية دعوته بأنه رسول من رب العالمين . فحين يرى الناس المعجزة يرون معها ما لا يمكن لبشر أن يأتي به . وذلك عمل يحتاج إلى وعي وإدراك لا يبلغه المرء إلا بعد أن يجاوز مرحلة الصبا ، ويشرف على مرحلة الرجولة أو يبلغها ...

ونعود لنقرر مرة أخرى أن في هذا المنهج الذي احتوته دعوات الرسل ، والذي نقله إلينا القرآن الكريم دليلا قائما على أن القرآن منزل من عند الله ، وذلك لما اشتمل عليه هذا المنهج من مساهمة لتطور الإنسانية ومواءمة لوعيها وإدراكها ، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما كان فيه هذا الضبط الدقيق ، وتلك اليقظة الواعية لسير الحياة ، ورصد حركات العقول فيها ولو وقع - على أقل تقدير - في هذا المنهج ، بعض الخلل في ترابطه وتماسكه ، ولكننا إزاء منهج متماسك أقوى ما يكون التماسك سواء في وحداته ، وعناصرها ، أم في تدرج هذه الوحدات واحدة بعد أخرى - تدرج الكائن الحي نحو النضج والكمال ، فيألى جانب الأدلة الكثيرة على إعجاز القرآن وصدق الرسول يمكن أن يضاف هذا الدليل إليها ، ويحسب في حسابها ...

أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله

الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية ، لقد انتهى الدور التلقيني بعد ان أشرف العقل بنفسه على دلائل كثيرة تشير الى وجود الله .

فالله في واقع الحياة - في هذه المرحلة الأخيرة من رسالات السماء - ليس ذاتا مجهولة أو منكورة في عقول الكثرة الغالبة من الناس ، فقد كان لدعوات الرسل المتتابعة ، ولواقف الراشدين والعالمين من أتباعها آثار كبيرة في كشف الطريق الى الله ، والتعريف به ، كما كان للزمن وتطور العقل الإنساني ، نحو الكمال أثره القوي كذلك في هذا الأمر .

لقد جاء الإسلام والعرب يعرفون في لغتهم كلمة الله ويتعاملون بها في حياتهم على أنها قوة مسكة بالوجود وقائمة على كل شيء ، وأنها تعلم ما يخفي الناس وما يعلنون ، يقول زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي وأحد أصحاب المعلقات :

فلا تكتنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخره فيوضع في كتاب فيذخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

فقد كان العرب في جاهليتهم يعتقدون في الحياة بعد الموت ، وفي الجزاء وفي الجنة والنار ، يقول الشهرستاني عن عرب الجاهلية : (ومن العرب من كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وينتظر النبوة ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو ابن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول « أيها الناس ، هلموا إلي ، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري » ، ومنهم قس بن ساعدة الإيادي وكان يقول : « هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى وإليه المآب غذا » ، ومنهم عامر بن الظرب العدواني ، وكان يقول : « إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ، ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ») .

فالرسالة المحمدية تواجه إنسانية فيها وعي ، ولها إدراك ، وعندها إستعداد للبحث عن الله ، والتشوق إليه من خلال هذا الوجود الذي يعيش

فيه الناس ، وإذن فلن تكون الدعوة إلى الله دعوة تلقائية لأنّ مواجهة العقل المدرك المستعد للبحث والنظر - إلى مواجهته بالأمر الواقع والحكم الملمزم ، فيه تعسف وإعنات لا تلقاه مثل هذه العقول إلا بالتردد والعناد ...

وحين ننظر في دعوة الإسلام نجدها قد مرت في مراحل إنتقلت بالناس من حال إلى حال ...

وفي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة نجد أن أول ما افتتح به الوحي رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، هو قوله تعالى : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (سورة العلق) .. هذه الآيات كانت عنوان الموضوع الذي تدور حوله الدعوة في مراحلها الأولى : الخالق وما خلق ، وذكر الخالق وما خلق هنا هو تحديد للموضوع الذي من أجله كان توجيه النظر إلى المخلوقات ، والوقوف على ما في صورها وألوانها وأشكالها من عجائب وأسرار ، فإذا استبان لعين الناظر المتأمل تنبئه إلى الخالق الذي خلق ..

ويكاد العهد المكي كله من تاريخ الرسالة - يقوم على أداء هذا الدور ، والعمل على التعريف بالله من طريق الإقناع ، بالنظر والتفكير في آيات الله ...

ولقد جاء القرآن الكريم في هذا الباب ، بما لم يكن لدعوة من الدعوات السماوية أو غير السماوية أن تحيي بمثله ، وبما لم تنفذ إليه من قلوب الناس وعقولهم أجهزة الدعايات العصرية التي تبشر بالمذاهب السياسية أو الإقتصادية ، والتي تحشد لها كل قوى الدعاية من ملايين الأنفس ، وملايين الأموال تعمل جميعا في كل ميدان يصل إلى الناس من الإذاعات والكتب والصحف ، كل أولئك لم يكن شيئا إلى جانب المنهج الذي اتبعه الإسلام في دعوته إلى الله ، واذ كان منهجا قائما على الحق ، وداعيا إليه عن طريق النظر ، والإستدلال والإقناع ...

وما يشوق العقل الإنساني ويوقظ وجدانه أكثر من نظرة واعية إلى

صامت وناطق في الوجود ، فيبدو الوجود كله في مسرح نظره ، ومسبح خاطره ، ومجلى تفكيره يقلبه كيف يشاء ، ويأخذ منه ما يريد ..

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْغُرْزِ
فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾
(سورة السجدة) . وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تُرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلْقَاءَ رَبِّكُمْ
تَوْقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ،
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ، إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قُطُوعٌ مُّتَجَاوِرَاتُ ،
وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ ، تَسْقَى
بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الرعد) .

واقرا قوله جل شأنه : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ إِنََّّا صَبَبْنَا
الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَاهُ الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَنْبًا وَقَضْبًا
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (سورة عبس) .

فتلك دعوات يستحضر بها العقل هذه الظواهر التي تتبدل بها الطبيعة
حالا بعد حال ، وتلبس فيها أثوابا بعد أثواب ، وهي تجيء وتذهب بين
يدي الإنسان دون أن يلتفت إليها كثير من الناس ، أو يقفوا عندها ، فإذا
جاءهم من يدعوهم إليها ، ويلفتهم نحوها ، أحسوا بها ، وعجبوا منها كأنما
يرونها لأول مرة .

وقد ذهب القرآن الكريم في هذا كل مذهب ، وجاء إلى العقل من كل
أفق يثريه ، ويحدد صور الوجود في نظره ...

ومن تدبر القرآن في هذا ، استعراض مظاهر قدرة الله وعظمته ،

وحكته وتديره فيما يبدو عليه هذا النظام الكوني من روعة ودقة وإحكام ...

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ (سورة فصلت) . ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثَ فيها من دابة ﴾ (سورة الشورى) ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (سورة غافر) .

ومن الأساليب التي نهجها القرآن في الإلفات إلى عظمة الله وقدرته - أسلوب الاستفهام التقريري الذي يتحدث عن خلق من خلق الله ، أو عن آية من آياته ، ونعمة من نعمه . وفي هذا الأسلوب يجد القاريء نفسه أمام سؤال ليس له إلا جواب واحد هو الإقرار بالله . فان استجاب للحق أقر به وإلا أفحم ووجم وخرس ..

﴿ آمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون ﴾ (سورة النمل) . ﴿ آمن هذا الذي هو جنـد لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون إلا في غرور ﴾ ﴿ آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ، بل لجوا في عتو ونفور ﴾ (سورة الملك) .. فهذه قضايا يطالب الخصم فيها بإقامة الدليل على بطلانها إن كان في إمكانه أن يفعل ، وإلا فقد لزمه الإيمان بالله ..

﴿ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (سورة البقرة) ...

هذا أسلوب القرآن قد جاء بألوان من ضروب الاعجاز الذي خرس له
الأسنة ، وتضاءلت أمامه العقول وتصاغرت بين يديه الأفهام ...

أما أسلوب الملاحدة الذين يدعون وجود قدرة غير قدرة الله ، فيقولون
أن الطبيعة هي الخالقة لهذا الكون والمدبرة له ، فإنهم مطالبون أن يقيموا
الدليل على دعواهم الباطلة . كيف تخلق الطبيعة ؟ هل من خالق غير
الله ؟

سأل أحد الملحدين تلميذا فقال : أقم لي دليلا واحدا على وجود الله .
وأنا أؤمن لك به . فأجاب التلميذ : وأنت أقم لي دليلا واحدا على عدم
وجوده ، وأنا أكفر به ! فبهت الذي كفر ...

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر ، الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يكون بعد الموت فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ، ونعيمه ، فأما الفتنة ، فإن الناس يفتنون في قبورهم ، فيقال للرجل من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فيقول المؤمن : الله ربي ، والاسلام ديني ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي ...

وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها لصعق ، ثم بعد هذه الفتنة ، إما نعيم ، وإما عذاب .

الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يكون بعد الموت ، وهذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، والمؤمنون يؤمنون بالبعث بعد الموت ، وهو إعادة الأبدان بأرواحها إلى الحياة مرة ثانية كما صرحت به الكتب السماوية ، ونادت به جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لِصَادِقٍ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ويجب الإيمان من بعد الموت بفتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والبعث والحشر ، والنشر والصحف ، والميزان والحساب ، والجزاء والصراف ، والحوض والشفاعة ، والجنة والنار وأحوالها ، وما أعد الله لأهلها ، إجمالاً وتفصيلاً ، وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَضَعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فَيَقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ

الجنة فيراها جميعا ، قال وذكر لنا أنه يفسح له في القبر مد البصر ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

وأخرج الترمذي ، وابن حبان في صحيحها من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا : ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا ، ثم ينور له فيه ، وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون شيئا فقلت مثله ، ولا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : إلتمي عليه ، فتلتم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه » . وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لقد أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل - أو قريبا - من فتنة المسيح الدجال » . وفيها عن أبي أيوب قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد وجبت الشمس وقد سمع صوتا فقال : « يهود تعذب في قبورها » . وعن أبي داود : فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقولان له : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله تعالى ، فأمنت به وصدقت ، فينادي مناد أن صدق عبي ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، وألبسوه من الجنة ، ويفسح له مد بصره » . وقال في الكافر : « فيأتيانه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، إلى أن قال : فينادي مناد من السماء أن كذب عبي ، فأفرشوه

من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه » . ومن الأدلة الدالة على عذاب القبر قوله تعالى في حق آل فرعون : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ﴾ وقوله : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ إن السؤال والنعيم والعذاب في القبر يشبه بعثا للحشر في أنه واجب سمعا ، بل وعقلا وحكمة ، فإن الأدلة القاطعة قامت على أن الله تعالى حكم في صنعه ، لم يخلق الناس عبثا ، ولم يتركهم سدى ، بل جعل لهم حياة وراء هذه الحياة لينصف فيها المظلوم من الظالم ، ويقام فيها قانون العدل بين الخلائق ﴿ أيجب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني تمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ، ولو فكر الإنسان فيما حوله من نبات مختلف ، وجنات منشآت ، وكيف يحيي الله بالماء الأرض بعد موتها وتهتز وتربو بعد يسها وجودها ؟

لعلم أن من قدر على ذلك قادر على أن يعيد الخلق الى ماكانوا عليه « فأنظر الى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير » وأي فرق بين البدء والإعادة إذا كان الله تعالى هو الذي بدأ الخلق ووهبهم الحياة فما الذي يحول بينهم وبين إعادتهم ؟ « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » على أن من شأن الإعادة أيسر من البدء ، وإن كان الكل تناوله القدرة « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

البعث

يبدأ اليوم الآخر بالبعث ، وهو إعادة الإنسان روحا وجسدا كما كان في الدنيا ، وهذه الإعادة تكون بعد العدم التام ، ولا يستطيع الإنسان معرفة هذه النشأة الأخرى لأنها تختلف تمام الاختلاف عن النشأة الأولى ..

أدلة البعث :

ولقد أورد القرآن الكريم أدلة كثيرة على البعث مستدلا بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة ، ومبيناً أن الله تادر على كل شيء ، وعالم بكل شيء ، فلا تعجزه إعادة الأجسام لنفوذ قدرته ولا يضع منها شيء لسعة علمه .

قيل في شرح الطحاوية : الإيمان بالمعاد مما دلّ عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطرة السلية ، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه ، وأقام الدليل عليه ، وردّ على المنكرين في غالب سور القرآن ، وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله ، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقرون بالرب إلّا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم لما كان خاتم النبيين وكان قد بعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المقفى بين تفصيل الآخرة بيانا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء .

الإنسان يتطور في الخلق ويتحول من حال الى حال كالأرض وماتخرجه من نبات مظهر العلم والقدرة قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِّنْ نَّطْفَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ «سورة الحج» وإذا

كان الله لم يعي بخلق السموات والأرض ولا يزال يخلق ويرزق ، ويحي ويميت ، فهل يستبعد بعد هذه المشاهدة المنظورة أن يعيد الخلق مرة أخرى ﴿ أفعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ إن إنكار البعث وإعادة الحياة مرة أخرى بعد هذه الدلائل البينة في الأنفس والآفاق لامعنى لها ...

وأما الذين أنكروا البعث فرد الله عليهم بأن استبعادهم لامعنى له ، لأنهم يجهلون عظمة الله وقدرته وعلمه وحكمته ، وأنهم لا يبصرون في أنفسهم ، فأنتفهم أدل الدلائل وأقوى الحجج على نفي ما ينكرونه من البعث ، فالله أحيائهم أولا ، وأماتهم ثانيا ، ولا تزال القدرة صالحة لإحيائهم مرة ، وجمعهم مرة أخرى يوم القيامة ، فأى أستبعاد في هذا ؟..

قال في شرح الطحاوية : (فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتأثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجوه . المعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم الإعادة ، ولوازم (البدء) فرق ، فعجب الذنب هو الذي يبقى ، وأما سائر فيستحيل ، فيعاد من المادة التي استحال إليها ، ومعلوم أن من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا علم أن هذا هو ذاك ، مع أنه دائم في تحلل واستحالة ، وكذلك سائر الحيوان والنبات ، من رأى شجرة وهي صغيرة ، ثم رآها كبيرة قال : هذه تلك ، وليست صفة لتلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال : إن الصفات هي المغيرة ، لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها ، فإنهم يدخلونها على صورة آدم عليه السلام طوله ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرها ، وروي أن عرضه سبعة أذرع ، وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات ، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات) اهـ .

النفخات الثلاث :

النفخات ثلاثة : الأولى : نفخة الفزع وهي التي يتغير بها العالم قال تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ ، والنفخة الثانية : نفخة الصعق قال تعالى :

﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ والنفخة هذه هي التي فيها الهلاك لكل شيء ، والنفخة الثالثة : نفخة البعث والنشور قال تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ..

وفائدة الإخبار بالآخرة لينتبه الإنسان فيأخذ بالأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ، ويبادر الى التوبة من التبعات ، ويلجأ الى الكرم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ، ويتضرع اليه في سلامته من دار الهوان ، وإدخاله دار الكرامة ..

وقد جعل الله الدار ثلاثا : دار الدنيا ، ودار البرزخ ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تخصها . وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعاً لها ، ولهذا جعل أحكام الشريعة مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضرت بالنفوس .

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبعاً لها فإذا كان يوم القيامة عند بعث الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين ، صار النعيم والعذاب على الأرواح والأجسام معا .

واختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت الى قيام الساعة أين تكون ؟ والراجح في ذلك أن الأرواح تكون متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وأرواح بعض الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وبعض الشهداء تحبس أرواحهم عن دخول الجنة لدين عليهم ، أو غيره كما جاء في المسند عن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : « الجنة » فلما تولى قال : « إلا الدين ، سارني به جبريل أنفا » ، ومنهم من يكون محبوسا على باب الجنة ، ومنهم من يكون محبوسا في

قبره ، كحديث صاحب الشملة التي غلبها ثم استشهد ، فقال النبي ﷺ :
« والذي نفسي بيده أن الشملة التي عليه لتشتعل عليه نارا في قبره » . ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس :
« الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشيا » (1) رواه أحمد . وهذا بخلاف جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بها في الجنة حيث شاء (2) ، ومنهم من يكون محبوسا في الأرض لم تغل روحه الى الملا الأعلى ، إنها كانت روحا سفلية ، ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني ، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه ، وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لاتصعد عن الأرض .

كل شيء هالك إلا وجهه :

جاء في شرح الطحاوية : (إذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون : لاتموت الأرواح ، فإنما خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان وقد دلت على ذلك الأحاديث الدالة على نعم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها والصحيح موت النفس هي مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإذا أريد بموتها هذا القدر ، فهي دائمة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتنفى فهي لاتموت وعلى هذا الإعتبار فهي باقية بعد قبضها في نعيم أو عذاب وأجمعت الرسل عليهم السلام أنها محدثة مخلوقة ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله وحده هو الخالق ، وكل ماسواه مخلوق له ، وقد أنطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهي القرون المفضلة في الإسلام ، على أن الروح مخلوقة من غير خلاف بينهم ، حتى ظهر بعض من قصر فهمه عن الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة .

(1) أخرجه أحمد في مسنده - الطبراني - الحاكم - عن ابن عباس - حسن -

(2) أخرجه الحاكم . وذكره ابن حجر في الفتوح عن الحاكم والطبراني وجود اسناده وله شاهد من حديث أبي هريرة عن الترميذي والحاكم وفي اسناده ضعيف - وله شواهد أخرى عن أبي سعد يصح بها الحديث .

وأجمع المسلمون على أن الناس يقومون من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا ، وتدنو منهم الشمس ويلجهم العرق وتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينهم فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين (وروى مسلم عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق قدر أعمالهم ، منهم من يأخذه الى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبته ، ومنهم من يأخذه الى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاما قال بعض العلماء : ظاهر الحديث التعميم ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر ، ويستثني - من هذا العرق - الأنبياء والشهداء ومن شاء الله ، فأشدهم في العرق الكفار ، ثم أصحاب الكبائر ، ثم من الذين عملوا المعاصي دون الكبائر ، وماتوا على ذلك ، والمسلمون منهم قليلون بالنسبة للكفار .

ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها وذلك أن النار تحف بأرض الموقف ، وتدنو الشمس من الرؤوس قدر ميل ، فكيف تكون حرارة تلك الأرض وماذا يرونها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعا مع أن كل واحد لا يجد الا موضع قدمه فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟ إن هذا لمما يبهز العقول ، ويدل على عظم القدرة ، وعلى هذا يقتضي الإيمان بأمور الآخرة وأن ليس للعقل فيها مجال .

ولا يعترض بقياس ولاعادة وإنما يؤخذ بالقبول ، ويدخل تحت الايمان بالغيب ، ومن توقف في ذلك دل على خسارته وحرمانه ..

إختلاف الناس عند البعث :

الناس يختلفون عند البعث إختلافا كبيرا حسب أعمالهم ، فالذين صلحت أعمالهم وعقائدهم ، وزكت نفوسهم يكونون أكمل أجسادا وأرواحا ، والذين خبثت أرواحهم ، وفسدت عقائدهم يكونون أنقص أجسادا وأرواحا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم ، قيل : يا رسول الله كيف يحشرون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما انهم يتقنون بوجوههم ؟ كل حذب وشوك » رواه الترمذي . وفي الحديث يقول الرسول الكريم ﷺ : « يحشر المتكبرون المتجبرون يوم القيامة في صور الدر يطأهم الناس لهونا هم على الله عز وجل » وروى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله يقول : « يبعث كل عبد على مامات عليه » أي إن مات على حسنة يبعث على حال سارة ، ومن مات على شر يبعث على حال سيئة .

والبعث يكون بالأجساد والأرواح إلا أن القوى الروحية تكون هي القادرة على التصرف في الأجساد ، فتستطيع قطع المسافات البعيدة في أقصر مدة ، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة والنار ، ويكون مثلهم في ذلك مثل الملائكة والجن في قدرتها على التشكل وظهورها في أجساد تأخذها من مادة الكون ، وقد ثبت ذلك ثبوتا علميا .

الحساب حق

هو وقف الله عباده قبل انصرافهم من المحشر على أعمالهم خيرا ان كانت أو شرا تفصيلا ، وهو مختلف فيه السير والعسير ، والسر والجهر ، والتوبيخ ، والفضل ، والعدل ، يستثنى من لأحساب عليهم ، كالسبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وكالمبشرين بالجنة ، وحساب الله تعالى الناس بأن يخلق في قلوبهم علوما ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب ، أو يقف عباده بين يديه ، يؤتهم كتب أعمالهم ، فيها سيئاتهم وحسناتهم ، أو يكلم عباده في شأن أعمالهم ، وكيفية مالها من ثواب ، وماعليها من العقاب ، وتتسع قدرة الله تعالى لمحاسبتهم جميعا كما اتسعت لإجادهم ، وتنظيم شؤونهم ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربعة : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه ما عمل به ؟ وعن ماله من أين أكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟ » وقال حديث حسن صحيح . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ ، من نوقش الحساب عذب ، فقلت : أليس يقول الله : ﴿ وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا ﴾ قال : (إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة الا هلك) . (شرح عبد السلام والعقيدة) .

فالله يحاسب عباده على أن يجازي على السيئة بسيئة مثلها الماثلة يحددها هو وحده . ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يجازي عليها بأكثر من ذلك لأنَّ الناس يتفاوتون في اتقان أعمالهم ، والإحسان فيه ، كما يتفاوتون في الإخلاص لله تعالى في مثل الصلاة ، والصيام ، والحج ، أما في الصدقة فهم مع تباينهم في الإخلاص يتفاوتون أيضا في تحري من يستحقها ، فربَّ قرش يعطى لفقير أفضل عند الله من قرش يعطى لسائل

ورب قرش يعطى لأسرة بائسة أفضل عند الله تعالى من دينار يعطى جزافا ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ ، ويقول : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ ، ويقول : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ كل ذلك عدل من الله تعالى وحكمة وفضل ..

والأدلة قائمة على غفران الذنوب الصغائر لتارك الكبائر ، والصغائر كالشتم والنظرة ، والكبائر كالزنا والقذف إلى غير ذلك من الأعمال القبيحة ، ومن شأن التاركين للكبائر أن تغلب حسناتهم على سيئاتهم فتذهب بها : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

اتفقت الكتب السماوية والشرائع الإلهية على أن هناك يوماً هو آخر أيام الدنيا ، تساق فيه الخلائق ، بعد خروجها من القبور سوقا ، ويجمع الله فيه الموق فلا يترك منهم فردا ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ، وعرضوا على ربك صفا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ (الكهف) وكثيرا ما يخوفنا الله تعالى شدة ذلك اليوم ويحذرنا شره ، ﴿ وأتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ يوم يحاسب فيه كل على ما قدم ، ويجزي عليه الجزاء الأوفى ، لا ينفع فيه مال صاحبه ، ولا يدفع فيه ولد عن أبيه ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ هو يوم تنقطع فيه الصلات وتنفك الجماعات إلا صلة أساسها الدين ، وعروتها الإيمان

﴿ إلا خلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ يشتد فيه بالخلائق الأمر ، ويعظم بينهم الخوف ، فلا يجرؤ نبي مرسل ولا ملك مقرب أن يشفع لأحد من خلقه ، إلا من بعد أن يستأذن ربه في وساطته ويرضي عنه في شفاعته ، ﴿ وقالوا اتحد الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ولا تزال الناس كذلك حتى يفصل بين الخلائق ، فإما إلى جنة أعدها الله للمتقين ، وإما إلى نار أعدت للعصاة والمجرمين : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ .

فوجب الإيمان بالصحف جمع صحيفة ، والمراد الكتب التي تدون فيها أعمال الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ ، ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ وقال : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله ، فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ﴾ .

وكذلك يجب الإيمان بالوزن والميزان ، الوزن هو تعرف مقدار الشيء حسا أو معنى ، كما يزن القاضي العادل مقدار حجج الخصوم ليتعرف قويا من ضعيفا ، ومنها سمى العلماء علم المنطق ميزانا لأن به توزن الحجج والبراهين ، قال تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ ويقول : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ..

الصراط :

يجب الإيمان بالصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم بين الجنة والنار
ير الناس عليه ، على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كالمح البصر ، ومنهم من
ير كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم
من يمر كراكب الإبل ، ومنهم من يعدو عدوا ، ومنهم من يمشي ، ومنهم
من يزحف ، ومنهم من يخطف ، فيلقى في جهنم ، فإن الجسر عليه
كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط ، دخل الجنة ، فإذا
مروا عليه عبروا على قطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض ،
فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة .. (1)

العرش والكرسي :

يجب الإيمان بعرش الله تعالى وكرسيه ، وبالعلم وبالملائكة الكاتبين ،
وباللووح المحفوظ ، وإذا وفقنا لمعرفة هذه الأشياء ، ولو من طريق
الخصائص والمميزات ، فذلك فضل من الله واسع ، وإن لم نعرفها آمنّا بها
مع تفويض علم حقيقتها إليه تعالى ، كما نؤمن بأن الله تعالى لم يخلقها
عبثاً ، وإنما خلقها لحكمة تقتضيها ويتطلبها نظام الملك ، ﴿ وما خلقنا
السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ .

يجب الإيمان بالنار والجنة : النار أعدها الله للعصاة ، والجنة أعدها
للمتقين ، والمراد بهما دار النعيم والعذاب ، حق ثابت بالكتاب والسنة
والإجماع ، وهما موجودتان الآن ، قال تعالى في الجنة : ﴿ أعدت
للمتقين ﴾ وفي النار ﴿ أعدت للكافرين ﴾ ، وقال في الجنة : ﴿ ما
موجودة : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة
المأوى ﴾ وفي وجود النار قال في حق قوم نوح عليه السلام ﴿ مما
خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ ، وأن الجنة والنار لاتفنيان ..

الحوض :

يجب الإيمان بالحوض الذي يزده المؤمنون في الآخرة وهو حوض نبينا
محمد ﷺ حتم لوزود الخبر الصحيح به ، روى البخاري عن عبد الله بن

(1) العقيدة الواسطية لابن تيمية ، وصحيح البخاري .

عرو قال : قال رسول الله ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، مأؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظلم أبدا » ..

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إني فرطكم -1- على الحوض ، من مر عليه شرب منه ، ومن شرب منه لم يظلم أبدا ، ليردني علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ، » وفي رواية فأقول يا ربّي أصحابي ، فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم . هذه الأحاديث ومثلها في الصحيحين وردت في الحوض ، والعقل لا يحيله فوجب الإيمان به لأن ذلك هو الأصل في السمعات .

الشفاعة

الشفاعة لغة الوسيلة والطلب وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير ،
وقيل : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ..

والشفاعة تنقسم إلى قسمين مثبتة ومنفية : فالمثبتة هي التي أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص ، ولها شرطان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ، وأما الشفاعة المنفية فهي التي تطلب من غير الله ، أو بغير إذنه ، أو لأهل الشرك قال تعالى : ﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ...

وشرح العلماء الشفاعة الى ثمانية انصاف :

(1) الشفاعة العظمى : وهي شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف حتى يقض بينهم حين يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعا صلوات رب وسلامه ، وهي المقام المحمود .

(2) شفاعة في أهل الجنة أن يدخلوها .

(3) شفاعة سائر النبئين والصدّقين والشهداء والصالحين وغيرهم فيشفعون فيمن استحق النار أن لا يدخلها وهو تكريم من الله - يوم القيامة - لبعض التقاة ، يشفع الله من يشاء فيمن شاء ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

(4) وفيمن دخلها أن يخرج منها . بعد أن يردها حقا ويرأها عين اليقين ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ آلَاءٌ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

(5) في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم ، فيشفع ﷺ فيهم .

(6) الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب .

(7) الشفاعة في تخفيف العذاب عن يستحقه .

(8) الشفاعة في أهل الكبائر من أمتهم ممن دخلوها فيخرجون منها .

وانقسم الناس في الشفاعة الى طرفين ووسط ، قسم نفوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة فنفوا شفاعته ﷺ في أهل الكبائر ، وقسم أثبتوها حتى للأصنام وهم المشركون كما ذكر الله عنهم بقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وقسم توسطوا وهم أهل السنة فأثبتوها بشرطها وهما : إذن الله للشافع أن يشفع والثاني رضاه عن المشفوع له ولا يرضى من العمل الا ما كان خالصا صوابا ...

وعلى كل حال فمن أراد أن يعرف اليوم الآخر وماتشتمل عليه فأحليه على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل الآخرة ، وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وصنفوا المصنفات الكثيرة المطولة والمبسوطة ، وأن ذلك كله داخل في الإيمان باليوم الآخر .

رأي الاستاذ محمد عبده في الشفاعة

نقل صاحب المنار عن الأستاذ الامام في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ قال ما معناه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ لأنهم ملكه وعبيده مقهورون لسننه خاضعون لمشيئته ، وهو وحده المصرف لشئونهم ، والحافظ لوجودهم ﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ منهم فيحمله على ترك مقتضى ماضى به سنته ، وقضت به حكمته ، وأوعدت به شريعته من تعذيب من دسّ نفسه بالعقائد الباطلة ، ودسّسها بالأخلاق السافلة ، وأفسد في الأرض ، وأعرض عن السنة والفرض من ذَا الَّذِي يَقْدِمُ عَلَى هَذَا مِنْ عِبِيدِهِ ﴾ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هذا الإستثناء نصا في أن الإذن سيقع ، وإنما كقوله ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فهو تمثيل له بانفراد الله بالسلطان والملك في ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ولهذا

قال البيضاوي في تفسير الجمل ، بيان لكبرياء شأنه ، وأنه لأحد يساويه أو يدانيه ، ويستحيل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلا عن أن يعوقه عنادا أو مناصبة

وقال الأستاذ الإمام ما حاصله : إن في هذا الإستثناء قطعاً لأمر الشافعين المتكلمين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة لانفراده تعالى بالسلطان والملك وعدم جراءة أحد من عبيده على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه ، وإذنه غير معروف لأحد من خلقه ...

ثم قال : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس ، أو أمور الدنيا التي خلفوها ، أو أمور الآخرة التي يستقبلونها ، ما يدركون وما يحفلون ، وهذا دليل على نفي الشفاعة بالمعنى المعروف .

فالشفاعة المعروفة التي يعلق عليها الكافرون والفاسقون آمالهم ، ويظنون أن الله تعالى يرجع عن تعذيب من أستحق العذاب منهم لأجل أشخاص ينتظرون شفاعتهم هي مما يستحيل على الله تعالى لأنها من شأن أهل الظلم والبغي تستلزم الجهل وهو ذو العلم المحيط ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ ومن علم شيئاً منك فلا سبيل له إلا التصدي بإعلامك ، فما عسى أن يقول من يريد الشفاعة عنده بالمعنى الذي يعهده الناس ويفتربه الحمقى الذين يرجون النجاة في الآخرة بدون رضا الله تعالى في الدنيا . قال الامام : معناه أن الشفاعة تتوقف على إذنه ، وإذنه لا يعلم إلا بوحى منه تعالى . يريد أن ذلك ترق في نفيها من دليل الى آخر أي إذا أمكن أن يكون هناك شفاعة بمعنى آخر يليق بجلال الله تعالى كالدعاء المحض ، فإنه لا يجرو عليها أحد في ذلك اليوم العصيب إلا بإذن من الله تعالى ، وإذنه تعالى مما استأثر بعلمه فلا يعلمه غيره إلا إذا شاء إعلامه به ، ثم قال وإنا نعرف إذنه بما حدده من الأحكام في كتابه ، أي فمن بين أنه مستحق لعقابه ، فهو مستحق له ، لا يجرو أحد أن يدعو له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه على هفوات ألم بها لم تحول وجهه عن الله تعالى الى الباطل والفساد الذي يطبع على الروح فتسترسل في

الخطايا حتى تحيط بها ، فتلك عليها أمرها ، فذلك مستحق له منته إليه
بوء الله في كتابه وفضله على عباده كما سبق في علمه الأزلي .

ثم قال الأستاذ الامام : قالوا أن الإستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا
بِأَذْنِهِ ﴾ واقع ، وهو أن نبينا عليه الصلاة والسلام يشفع في فصل
القضاء ، فيفتح باب الشفاعة فيدخل فيه غيره من الشفعاء كالأنبياء
والأصفياء كما ثبت في الأحاديث ، وهي حالة أنكرها المعتزلة وأثبتها أهل
السنة ، والله تعالى يأذن لمن يشاء ويطلع على علمه باستحقاق الشفاعة من
يشاء كما علم من الإستثناء ، ونقول : أجمع كل من أهل السنة والمعتزلة
وسائر فرق المسلمين على كمال علم الله تعالى واحاطته وذلك يستلزم إستحالة
الشفاعة عنده بالمعنى المعبود كما سبق القول ، وقلنا هناك أن مثل هذا
الإستثناء ورد في القرآن لتأكيد النفي وبذلك نجمع بين الآيات التي تنفي
الشفاعة بدون إستثناء وبين هذه ، وقلنا أن ماورد في الحديث يأتي فيه
الخلاف بين السلف والخلف في التشابهات فنفوض معنى ذلك إليه تعالى ، أو
يحملة على الدعاء الذي يفعل الله تعالى عقبه ماسبق في علمه الأزلي أنه
سيفعله مع القطع بأن الشافع لم يغير شيئا من علمه ، ولم يحدث تأثيرا مافي
إرادته تعالى وبذلك يظهر كرامة الله لعبده بما أوقع الفعل عقب دعائه
ا هـ (1) .

الركن السادس الايمان بالقدر

الايمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر بقضاء الله وقدره ، وأنه الفعال لما يريد ، لا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج عن مشيئته ، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا يحيد لاحد عن القدر ، ولا يتجاوز ماخط في اللوح المحفوظ ، وأنه خالق أفعال العباد من الطاعات والمعاصي ، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها ، بل هي واقعة بحسب قدرتهم ، وإرادتهم يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ...

وأول ما خلق الله القلم قال له : أكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه رفعت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ، إن ذلك في كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (سورة الحديد) . وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء ، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ، بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، فقال : « أكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد » ونحو ذلك ..

الإيمان بالقدر بأن الله علم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا ، فالأزل القديم الذي لانهاية له ، فالأزل هو الدوام في الماضي ، والأبد ما ليس له آخر ، فهو الدوام في المستقبل ، فالأول هو الذي لم يزل كائنا ، والأبد هو الذي لا يزال كائنا ، وكونه لم يزل ، ولا يزال معناه دوامه وبقاؤه الذي ليس له مبتدأ ولا منتهى ..

وأن الله عالم بأعمال العباد قبل خلقهم وجميع أحوالهم لا يغيب عن علمه شيء ، فيعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ،

ويعلم الواجبات والممكنات والمستحيلات ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ...

والعلم أعم من الإرادة ، وهو أصل لها ، والمعلوم أعم من المراد ، فالعلم يتناول الموجود ، والمعدوم ، والواجب والممكن ، وما كان وما سيكون ، وما يختاره العالم وما لا يختاره . وأما الإرادة فتختص ببعض الأمور دون بعض ، والخبر يطابق العلم ، فكل ما يعلم يمكن الخبر به ، والإنشاء يطابق الإرادة ، فإن الأمر إما محبوب يؤمر به ، وإما مكروه ينهى عنه ، وأما ما ليس بمحبوب ، ولا مكروه ، فلا يؤمر به ، ولا ينهى عنه ..

ومرتبة العلم من أول مراتب القدر ، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم الى آخرهم ، وأتفق عليها الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، وقد كفر السلف من الصحابة ، فمن بعدهم من أنكر علم الله ، قال ابن عمر : « والذي يخلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ، ثم أنفقه في سبيل الله ماقبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا كلام ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وواثلة بن الاسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة الإسلام ، حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم إن المنكرين لعلم الله القديم يكفرون . فإن الله سبحانه وتعالى علم أهل الجنة من أهل النار قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حق يجب الإيمان به ، بل نص الأئمة كمالك والشافعي ، وأحمد أن من جحد هذا ، فقد كفر ، بل يجب الإيمان به ، فإن الله علم ماسيكون قبل أن يكون . وفي الصحيح قالوا يارسول الله علم الله أهل الجنة من أهل النار ، قال : نعم ، قيل : فيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكلكم ميسر لما خلق له » وأن الله علم الأشياء كما هي ، وقد جعل لها أسبابا تكون بها ، وعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، فلا بد من الأسباب التي قد علمها الله سبحانه وتعالى من الدعاء ، والسؤال وغيره فلا ينال العبد شيئاً الا ما قدره الله من جميع الأسباب ، والله خالق ذلك الشيء ، وخالق الأسباب ، ولهذا قيل الإلتفات الى الأسباب شرك في التوحيد وترك الأسباب نقص في العقل ، والإعراض عنها بالكلية قدح في الشرع ، ومجرد الأسباب لاتوجب حصول

السبب إلا إذا كان بقضاء الله وقدره ، فإن لم يكل الله الأسباب ، ويدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو سبحانه ماشاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وماشاء الناس لا يكون إلا أن يشاء ، لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئا سببا بلا علم ، أو تخالف الشرع كان مبطلا ، مثل أن يظن أن النذر سبب في دفع البلاء ، أو حصول النعماء أن الأعمال البدنية لا يجوز أن يتخذ منها سببا إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناهها على التوقيف وكذلك عمل الآخرة ، فليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، قال النبي ﷺ : « لن يدخل أحد الجنة بعمله » قالوا ولأنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » فالعمل الصالح مع رحمة الله هو طريق الجنة ، أي ليس العمل عوضا أو ثمنا كافيا في دخول الجنة ، بل لا بد معه من عفوه تعالى ورحمته وفضله ومغفرته ، فمغفرته تحو السيئات ورحمته تأتي بالخيرات ، وتضاعف الحسنات ...

وقد ضلّ فريقان في القدر : أحدهما أخذ بالقدر وأعرض عن الأسباب الشرعية ، والأعمال الصالحة وظنوا أن ذلك كاف ، وهؤلاء يؤول أمرهم الى الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والفريق الثاني أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلب الأجير من المستأجر معتمدين على حولهم وقوتهم وعملهم ، وهم جهال ضلال ، فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعيد ناظرا إلى القدر ، فقد ضل ، ومن طلب المقام بالأمر والنهي معرضا عن القدر ، فقد ضل ، بل لا بد من الأمرين فكل عمل يعمله العامل ولا يكون طاعة وعبادة وعملا صالحا ، فهو باطل ، وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ، لأن تفاصيل الجزاء فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ..

مشيئة الله :

وأما مشيئة الله سبحانه وتعالى ، هي تتضمن شيئين أولهما الإيمان بعموم

مشيئته تعالى وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد وإن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله و يرضاه أم لا . وثانيهما الايمان بأن جميع الاشياء واقعة بقدرة الله تعالى ، وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، ولا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها كما قال تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ويجب الايمان بالأصل الشرعي ، بحيث أن الله تعالى كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته ولا منافاة أصلاً بيننا ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه للعباد بما شاء من أمر ونهي فإن تلك المشيئة لا تنافي حرية العبد واختياره للفعل ، ولهذا جمع الله بين الشئيين بقوله : « لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعي المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله ما لا يحبه كمشيئة وجود إبليس وجنوده ، وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء وبين كون العبد فاعلاً لفعله ، فالعبد هو الذي يوصف بفعله ، فهو المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمصلي والصائم ، والله خالقه وخالق فعله لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والارادة اللتين بهما يفعل : يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر : إن العبد اذا صلى وصام وفعل الخير وعمل شيئاً من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العلم الصالح ، وذلك العمل السيئ وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحسن أنه غير مجبور على الفعل أو الترك ، وأنه لو شاء لم يفعل ، وكان هذا هو الواقع ، فهو الذي نص الله عليه في كتابه ، ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها ، وأنهم ممدحون عليها إن كانت صالحة ، ومثابون ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها ، فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شأوا فعلوا ، وإذا شأوا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحسّاً وشرعاً ومشاهدة ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلية في القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال بأي شيء وقعت هذه الاعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها فإنها بقدرتهم وإرادتهم ، هذا

يعترف به كل أحد ؟ فالله هو الذي خلق ذلك فيهم وهو خالق للأفعال وهو الذي أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة ، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ « أما من كان من أهل السعادة فييسره لعمل أهل السعادة » وكذلك خذل الفاسقين ووكّلهم إلى أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكّلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم .

خلاصة في القدر والمشيئة

مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها ، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة ، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقا لما علمه منها بعلمه القديم ، ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض إختيارهم ولهذا يستحقون عليها الجزاء . إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة ، وأن نسبة هذه الأفعال الى العباد فعلا فلا تنافي نسبتها الى الله إيجادا وخلقاً لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها .

الإيمان بالقدر جزء من عقيدة المسلم ، وليس معنى الإيجاب ، قال الخطابي : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمون وإنما معناه الإخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير منه تعالى ، وخلقها لها خيرها وشرها والقدر اسم لما صدر مقدرًا عن فعل المقادر » .

وعلم الله سبحانه بما سيقع ، ووقوعه حسب هذا العلم لا تأثير له في إرادة العبد ، فإن العلم صفة انكشاف لصفة تأثير .

حكمة الإيمان بالقدر :

وحكمة ذلك : أن تنطلق قوى الإنسان وطاقته لتعرف السنن والقوانين الإلهية ، وتعمل بمقتضاها في البناء والتعمير ، وفي إستخراج كنوز الأرض ، والإنتفاع بما أودع في الكون من خيرات .

وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل ، والإيجابية في الحياة ، كما أن الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا

الوجود ، فيرفع من نفسه الى معالي الأمور : من الالباء والشجاعة والقوة من أجل احقاق الحق والقيام بالواجب .

الإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا ، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولا يبطر ، وإذا برئ الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح كان إنسانا سويا متزنا بالغا منتهى السمو والرفعة وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (سورة الحديد) . هذا ما ينبغي أن نفهمه من القدر ، وهو مقتضى فهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفهم أصحابه رضوان الله عنهم أجمعين ..

وقد دخل رسول الله يوما على الإمام علي كرم الله وجهه بعد صلاة العشاء فوجده قد بكر بالنوم فقال له : « هلا قتت من الليل ؟ فقال يارسول الله أنفسنا بيد الله إن شاء بسطها ، وإن شاء قبضها ، فغضب رسول الله ﷺ ، وخرج وهو يضرب على فخذه ويقول ، « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » وسرق أحد اللصوص ، فلما حضر بين يدي عمر رضي الله عنه سأله لم سرقت ؟ فقال قدر الله ذلك ، فقال عمر رضي الله عنه أضربوه ثلاثين سوطا ، ثم أقطعوا يده ، ف قيل له : ولم ؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله » .

إن القدر لا يتخذ سبيلا الى التواكل ، ولا ذريعة الى المعاصي ولا طريقا الى القول بالجبر ، وإنما يجب أن يتخذ سبيلا الى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال ، إن القدر يدفع بالقدر ، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر الظمأ بقدر الري ، وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حينما فرّ من الطاعون : أتفر من قدر الله قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله ، أي يفرّ من قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية ، ثم ضرب له مثلاً بالارض الجدباء ، والأرض الخصبة ، وأنه إذا انتقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة لترعى فيها ابله ، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر (1)

لقد كان يمكن للرسول وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهين معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذي يتعلل به الفاشلون ، ولكنه جاء يكشف عن وجهه الصواب ، فلم يهن ولم يضعف ، وأستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى ملتزماً سنة الله في نصره لعباده

فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد ، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، وما غزواته المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره

وقد حذر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أن يفهم القدر فهماً خاطئاً ، ودعا إلى مجاهدة من يرى هذا الفهم الخطأ ، فقد روى عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي ، ثم يقولون : الله قدرها علينا . الرادة عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله »

هذا هو القدر الذي ينبغي أن نعرفه عن القدر . وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحل لنا البحث فيه ، ولا التنازع في شأنه ، فإن هذا من أسرار الله التي لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفكار

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمرّ وجهه ،

(1) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما

وقال : أبهذا أرسلت إليكم ؟ إنما أهلك من قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه « وفي هذا يقول رضي الله عنه لمن سأل في مثل هذا : طريق مظلّم لا تسلكه ، كرر عليه السؤال فقال : بحر عميق لا تلجّه ، كرر عليه السؤال فقال : سر الله قد خفي عليك فلا تفشه « فمثل هذا النهي إنما ينصب على السؤال عن نظام الله في الحياة والموت ، وبسط الرزق وضيقه وهكذا لا على الكلام في القدر نفسه .

حرية الإنسان :

منذ أقدم العصور أخذ الإنسان يفكر في نفسه ، وفي الكون المحيط به ، وكانت حرية الإنسان إحدى القضايا التي تناولها عقله ، وشغلت حيزا كبيرا من تفكيره ولا تزال هذه القضية الى يومنا هذا مثار جدل ومناقشة بين المفكرين والفلاسفة ، ولا يزال اهتمامهم بها اهتماما بالغا ، إذ أنها قضية تتعلق بحياة الإنسان ، وتتصل بمصيره فهو يبحث فيها ، ويكدّ ، ويجد في البحث عنه يهتدي الى الحل الصحيح كي يرسم لنفسه السلوك على ضوء الحل الذي يهتدي اليه وبديهي أن الانسان حينما حاول الكشف عن وجه الصواب في هذه القضية ، وأراد البحث فيها لم يجعل ميدان بحثه الاعمال الخارجة عن إرادته واختياره ، ككونه أبيض ، أو أسود ، وككونه ولد من هذا الوالد ، أو ذاك ، وكنبضات قلبه ، وتنفسه ، وجريان الدم في عروقه ، فان هذه الاشياء خارجة عن نطاق البحث ، لأن الانسان لا اختيار له فيها ، وهي غير خاضعة لارادته .

وانما اتجه الانسان الى البحث الى الاعمال الارادية التي تدخل في نطاق ارادته واختياره ، ومدى حريته في ممارسة هذه الاعمال مثل تفضيله لونا من العلم أو الكتابة ، أو ممارسة حرفة من الحرف ، وزيارته لغيره وهكذا في كل عمل من الاعمال الاختيارية .

وقد اختلفت الأنظار ، وتضاربت الأفكار تضاربا كادت تضع معه معالم الحق ، فمن قائل : بأن الانسان مسيرا (1) غير مخير ، ومجبر على ممارسة

نشاطه الاختياري ، وأنه كالريشة في مهب الريح ، تتفادفها ذات اليمين وذات الشمال .

ومن قائل : بأن الانسان مخير (1) غير مسير ، وأنه يمارس أعماله الاختيارية بمحض ارادته ومشئته .

ومن قائل : بأن الانسان ليس له من أعماله إلا الكسب (2) أي أن الله يخلق الشيء عند مباشرته - أي أن الله يخلق الشبع عند الأكل ، ويخلق المعرفة عند الدراسة ، وهكذا وليس للعبد إلا الكسب ، وبه يصح التكليف والثواب والعقاب ، والمدح والذم ، والذي نراه في هذه القضية ونختاره هو ما قرره الاسلام فيما يلي :

تقرير الاسلام حرية الارادة :

قرر الاسلام أن الانسان خلق مزوداً بقوى وملكات واستعدادات ، وهذه القوى يمكن أن توجه الى الخير ، كما يمكن أن توجه الى الشر ، فهي ليست خيراً محضاً ، ولا شراً محضاً ، وان كانت ارادة الخير في بعض الناس أقوى ، وارادة الشر في البعض الآخر أقوى ، وبينهما تفاوت لا يعلمه إلا الله وفي الحديث الصحيح : « كل مولود يولد على الفطرة » وفي الحديث أيضاً : « الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » (3) ويؤيد هذا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (سورة الشمس) أي أن الله خلق النفس مسواة ، ومعتدلة قابلة للتقوى والفجور ومستعدة للخير والشر ، والله سبحانه زود الانسان بالعقل الذي يميز به بين الحق والباطل في العقائد ، وبين الخير والشر في الافعال وبين الصدق والكذب في الأقوال ، وأعطاه القدرة التي يستطيع بها أن يحق الحق ، ويبطل الباطل وأن يأتي الخير ويدع الشر ، وأن يقول الصدق ، ويحجب

(1) هذا مذهب المعتزلة والإمامية .

(2) هذا رأي الاشاعرة .

(3) رواه مسلم - عن أبي هريرة - صحيح

الكذب ورسم له منهج الحق والخير والصدق مما أنزل من كتب ، وبما أرسل من رسل ، وما دام العقل المميز موجودا ، والقدرة على الفعل صالحة ، والمنهج المرسوم واضحا ، فقد ثبت للإنسان حرية الإرادة واختيار الفعل وعلى الإنسان أن يوجه قواه الى ما يختاره لنفسه من حق ، أو باطل ، ومن خير أو شر ، ومن صدق أو كذب ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ أي هديناه ، وأرشدناه الى طريق الحق والباطل . والخير والشر ، والصدق والكذب ، فهو إما أن يسلك السبيل الأهدى فيكون شاكرا ، أو الطريق المعوج فيكون كفورا ، وفي هذا المعنى أيضا يقول القرآن الكريم : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي الطريقين . كل انسان مسؤول عن تهذيب نفسه واصلاحها حتى تصل الى كمالها المقدر لها ، فإصلاحها وتركيتها وتنميتها يكون بالعلم النافع والعمل الصالح وهو سبيل فلاحها وفوزها برضا الله ، والقرب من مشاهدة جلاله وجماله ، كما ان إهمالها هو السبيل إلى خيبتها وخسارتها « قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها » « بل الإنسان على نفسه بصيرة » « كل نفس بما كسبت رهينة » « كل امرئ بما كسب رهين » والآيات التي تقرر حرية الإنسان كثيرة جدا ﴿ ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

فأسند العمل الصالح ، والعمل السيئ الى الإنسان ، ولو لم يكن الإنسان حرا ماأسند إليه الفعل ، وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي أن الشرور التي تعرض للإنسان إنما هي أثر من آثار عمله ، ونتائج اختياره وتصرفه .

وإن القرآن يتحدث عن المفساد والجرائم التي تحيط بالناس فيبين أنها ليست من صنع الله ، وإنما هي من صنع البشر ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ وهذا الذي يقرره القرآن هو مايشعر به الإنسان من نفسه ، فهو يشعر بأنه يمارس أعماله الإرادية بحض إرادته وإختياره ، فهو

يفعل ، ويدع منها مايشاء ، وهو إذا فعل منها ما هو نافع استحق المدح ، وإذا فعل منها ما هو ضار استوجب الذم فلو لم يكن مختار لما توجه إليه المدح على فعل ما هو نافع ، ولما توجه إليه الذم على فعل ما هو ضار بل لو لم يكن الإنسان مختاراً لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء ، إذ أن كلا منهما مجبر على مايفعله ، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي على المنكر ، إذ لافائدة لهما حيث أن الإنسان مسلوب الإرادة ، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله العباد ، لأن تكليفه إياهم مع سلب إختيارهم هو منتهى الظلم الذي يتنزه الله عنه ، ويكون الأمر كما قال القائل :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له اياك اياك أن تبتلّ بالماء ، بل لو كان الإنسان مسيراً لضاعت فائدة القوانين ولبطل الجزاء من الثواب والعقاب . وقد أراد المشركون أن يحتجوا بمشيئة الله على شركهم وأنه لو لم يشأ أن يكونوا مشركين لما كانوا كذلك ، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فالله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (سورة الانعام) . فالقرآن يرد على المشركين من وجهين : الاول : ان الله أذاق الكافرين بأسه ، وأنزل بهم عقابه فلو لم يكونوا مختارين للجرائم والمآثم ، والكفر والشرك لما عذبهم الله لأن الله عادل لا يظلم مثقال ذرة .

والوجه الثاني : أنهم زعموا ذلك عن جهل بالله ، وجهل بدينه ، وأنه ليس عندهم من علم يمكن أن يستند إليه ، ويرجع إليه ، وإنما كفرهم هذا تمرد على دينه ، وافتيات على الحق الذي أنزله على السنة الرسل ..

وإذا كان الله قد عذب الأمم السابقة على كفرها وإذا كان المشركون ليس لهم من حجة يحتجون بها فقد تقرر أن دعوى المشركين دعوى ظنييه لا تقوم عليها حجة ولا ينهض بها دليل ، وبذلك قامت حجة الله البالغة على هؤلاء ، ولو شاء الله لأجبرهم على الهداية ، وحينئذ لم يكونوا من البشر لأن البشر فطروا على الحرية والإختيار ..

مشيئة الرب ، ومشيئة العبد :

وقد يقال إذا كان الله منح العبد الحرية والإختيار فما معنى قوله : ﴿لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَاتَشَآؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة التكوير) . فنقول معناها أن الإنسان لا يشاء شيئا إلا إذا كان في حدود مشيئة الله وإرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين : « طريق الهداية » أو « طريق الضلالة » فإذا أختار الطريق الأول في نطاق المشيئة الإلهية وإذا أختار الطريق الثاني ففي نطاقها أيضا ، وكل الآيات التي جاءت ، على هذا النحو فمعناها لا يختلف عما ذكرناه ..

الهداية والإضلال :

يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، أي أن الله يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته ، وإذا كان الله يضل ويهدي ، فليس للعبد حرية الإختيار ، والواقع أن الهداية والإضلال نتائج لمقدمات ، ومسببات لأسباب ..

فكما أن الطعام يغدي والماء يروي ، والسكين تقطع والنار تحرق فكذلك هنا أسباب توصل الى الهداية وأسباب توصل الى الإضلال ، فالهداية إنما هي ثمر علا صالحا ، والضلal إنما هو نتائج عمل خبيث ، فإسناد الهداية والإضلال الى الله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال أو الهداية ...

وحينا ترجع الى الآيات القرآنية تجد هذا المعنى واضحا لالبس فيه ولا غموض فالله يقول : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ أَنَابٍ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ، فهداية الله للناس بمعنى لطفه بهم ، وتوفيقهم للعمل الصالح ، إنما هي ثمرة جهاد للنفس ، وإنابة الى الله ، واستسآك بإرشاده ووحيه ، يقول القرآن الكريم في الإضلال : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

أولئك هم الخاسرون ﴿﴾ كذلك يطبع على كل قلب متكبر جبار ﴿﴾ ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿﴾ ، كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿﴾ ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴿﴾ نرى من هذه الآيات أن سبب الإضلال هو الزيف والخروج عن تعاليم الله ، والكبر والجبروت والتعالي على الناس بغير حق وتقض عهد الله ، وقطع مأمراً الله به أن يوصل ، ووصل مأمراً الله به أن يقطع والفساد في الأرض والكفر واقتراف الآثام ..

فهذه هي الأسباب التي أضلت الناس ، وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى ، واستحبوا الظلام على النور ، فكافأهم الله ، فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ، بمقتضى نظامه في ارتباط الأسباب بمسبباتها ، قال تعالى : ﴿﴾ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿﴾ فهؤلاء أهملوا منافذ العلم والعرفان ، وعطلوها عما خلقت له ، فلم يصل إليها نور الحق .

فقلوبهم غلف لاتعقل عن الله وحيه ، وعيونهم عمى لاترى الله في ملكوته ، وأذانهم صم لاتسمع آيات الله ، فهم مثل الأنعام التي لاتنتفع بحواسها الظاهرة والباطنة ، بل أضل من الأنعام إذ الأنعام لم تزود بما زود به الإنسان من قوى نفسية وعقلية وروحية .

خاتمة التمضاء والقدر

قال أبو الوفاء محمد درويش رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية :
قال رحمه الله : يقول الله تعالى في كتابه الكريم مخاطباً رسوله الأمين ﷺ : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (سورة النحل) . ويقول أيضاً : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (سورة النساء) . ويقول جل شأنه : ﴿ وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب ﴾ (سورة الشورى) . إذا الكتاب الحكيم يقضي على كل خلاف ، ويحكم الحكم الفصل في كل نزاع فلنلتصق بين نصوصه الحكم في هذه القضية التي شغلت الأذهان في كل زمان ومكان .

وإذا رجعنا الى حكم الله تعالى نجونا من شر الخلاف الذي نهى عنه أحكم الحاكمين في كثير من آيات كتابه الحكيم ، قال تعالى : ﴿ إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شئ إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ (سورة الانعام) . قال عليه الصلاة والسلام : « اقرأوا القرآن ما اجتمعت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه » (1) .

أقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد هذا العالم كأمراد على أتم نظام ، وأبدع إحكام ، وأن يدبره بعلمه وحكمته خير تدبير ، وأن يضع له نوااميس دقيقة محكمة ، وقوانين ثابتة وسننا لا تتحول ولا تتبدل ترتبط فيها الأسباب بالمسببات وتعتد النتائج على المقدمات ، هذا النظام الحكم وهذا التدبير العجيب بأسبابه ومسبباته ، ونتائجه ومقدماته ، ونوااميسه وقوانينه وسننه وأحكامه هو القدر ...

(1) ابن جرير عن ابن مسعود

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (سورة القمر) .
 ﴿ وَمَا تَنْزِيلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (سورة الحجر) . ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ
 الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ
 بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الشورى) . ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ
 بِمَاءٍ مِنْهُمْ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عَيْنُونَا فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ
 قَدَرْنَا (سورة القمر) . ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى
 قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ (سورة طه) . ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾
 (سورة الاحزاب) . إذا فالقدر هو القانون الحكيم الذي وضعه أحكم الحاكمين
 بعلمه وإرادته وحكمته ليسيّر على أحكامه كل شيء في هذا الوجود من السماء
 وما فيها الى الأرض وما عليها ، وما بين ذلك ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

الأقْدَار :

قدر الله سبحانه أن تدور الأرض حول محورها أمام الشمس مرة كل
 أربع وعشرين ساعة ، وقدر أن تدور حول الشمس مرة في كل خمسة وستين
 وثلاثمائة يوم وربع يوم ، وقدر أن الجسم إذا قذف في الفضاء عاد الى
 الأرض ، إذا تلاشت القوة الدافعة ، وغلبت القوة الجاذبية ، وقدر أن
 الضوء إذا سقط على جسم انعكس عنه ، وكانت زاوية الانعكاس مساوية
 لزاوية السقوط ، وقدر أن الماء إذا اشتدت حرارته استحال بخارا ، وإذا
 اشتدت برودته استحال جليدا ، وقدر أن النار اذا حيل بينها وبين
 أكسجين الهواء خبت ، وقدر الفلزات تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة ،
 وقدر أن الجسم المنغمس في الماء يزيغ منه بقدر حجمه ، وأن الجسم الطافي
 عليه يزيغ منه بقدر وزنه ، وقدر أن الجهازين الكهربائيين إذا توافقت
 مفاتيحيهما ، وكان أحدهما مرسلا والآخر مستقبلا ، تم الإتصال بينهما مهما
 بعد أحدهما عن الآخر . وقدر أن الحبة الصالحة إذا ألقيت في التربة
 الطيبة ، وأجري عليها الماء نبت منها نبات ، وقدر أن نواة التمر نبتت
 منها نخلة ولا يمكن أن تنبت غير النخلة ، فلا يمكن أن تنبت منها زيتونة
 مثلا ، وقدر أنه إذا اتصل الذكر بالأنثى من الإنسان والحيوان والطيور مع
 سلامة الأعضاء وموافقة الزمن والإستعداد تكون نسلا من جنسها وقدر أن
 يولد الإنسان طفلا ، ثم يصير صبيا فمراهقا فمدركا فشابا ، فكهلا ،

فشيخا ، فهرما ، وإذا قدر له أن يرد الى أرذل العمر ، وقدر أن يمنحه قدرة وإرادة يزاوِلَ بها - بإذن ربه - مصالحه ، ويسعى في كسب رزقه وجلب ماينفعه ودفع ما يضره .

وقدر أن يمنحه أنواعا من الهدايا يميز بها النافع من الضار والخير من الشر ، والهدى من الضلال ، وقدر أن يرسل اليه رسله يرشدونه الى ما فيه خيره وصلاحه ، وأناط بأتباعهم وطاعتهم سعادته ، وبمعصيتهم والخالفه عن أمرهم شقاوته ، وقدر أن يكلفه أنواعا من التكليف كلها ، فإن نهض بها أثابه وإن لم يفعل عاقبه ، وقدر أن يجعله مختارا فيما يأتي ويدع ، وأن يجعل هذا الاختيار أساسا للتكليف الشرعية ، حتى إذا ذهب الاختيار سقط التكليف ولا يتسع الوقت لإيراد جميع المقادير الإلهية التي سماها ذو الجلال والإكرام بكلماته ، والتي قال في شأنها في سورة لقان : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ وقال في سورة الكهف : ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ .

هذه القوانين الإلهية ، والنواميس الربانية ، والسنن الكونية أزلية أبدية سرمدية خالدة ، وضعها رب العزة قبل أن يخلق السموات والأرض ، فكانت هذه النواميس قائمة ، ولم يكن في الدنيا شيء من الموجودات ، بل لم تكن الدنيا قد تمخض عنها الوجود ، وهذه القوانين الأزلية الأبدية لاتتغير ، ولاتتبدل ، ولاتتحول بشهادة القرآن الكريم كما قال تعالى في سورة فاطر : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ ..

ذلك هو القدر ، أي القانون الأزلي الأبدى السرمدي الذي لايعتريه تبدل ولا تغير ولاتحول ، والذي لو اجتمعت كل قوى العالم السماوية والأرضية على أن تغير منه مثقال ذرة ماوجدت الى ذلك سبيلا ، ولو كان بعضها لبعض ظهيرا .

ذلك هو القدر فما القضاء ؟

القضاء :

إبراز هذا القانون في الخارج أي إيجاد الكائنات وتسييرها على حسب ما قدر الله لها في الأزل .

فهو كما قال ابن الاثير : كالبناء ، والقدر كالأساس ولأضرب مثلاً يزيد الأمر وضوحاً ، آلة ميكانيكية قبل أن تبرز الى الوجود ، كان لها في ذهن المهندس الذي اخترعها صورة واضحة الخطوط والمعالن ، ولكنها لاوجود لها في الخارج ، ثم صنعت ، فبرزت الى الوجود فوجود صورة الآلة في ذهن المهندس يشبه القدر وصنعها وإبرازها في الخارج يشبه القضاء . والله المثل الأعلى ليس كمثل شيء ..

وإنما ضربت هذا المثل لأقرب الأمر الى الأذهان فقط وأما الحقيقة العليا ، فهي وراء المدارك والأفهام ..

ذكرت للقدر أمثلة كثيرة ، فلا أطيل بذكر أمثلة أخرى للقضاء ، وحسبنا أن نرجع الى الأمثلة السابقة لنعلم أن إيجادها في الخارج ، وإبرازها في الوجود هو القضاء ..

فإيجاد الكائنات وتسييرها على حسب ما قدر لها قضاء ، وشروق الشمس وغروبها على هذا النظام المقدر لها قضاء ، ونزول المطر من السحاب قضاء ، ونمو النبات والشجر على حسب سنة الوجود قضاء ، وتفتح الأزهار وذبولها وسقوطها قضاء ، ومرض من يمرض اذا تعرض لأسباب المرض قضاء ، وموت من يموت إذا جاء أجله المسمى المرتبط بالأسباب المقدرة قضاء ، وشفاء من يشفى إذا تعاطى أسباب الشفاء قضاء ، والأمثال معروفة المخاصة والعامة ...

قدر الله سبحانه في الأزل أن يخلق السموات والأرض فلما جاء الأجل المحدود أبرزها الى الوجود ، فكان إبرازها قضاء قال تعالى في سورة فصلت : ﴿ ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إيتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمراً وزينا السماء الدنيا

بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ وقد سبحانه في الأزل
أن يخلق غلاما تحمله فتاة لم يسها بشر ليكون هو وأمه آية للناس ، فلما
جاء الموعد المحدود قضي ما قدر قال تعالى في سورة مريم : ﴿ واذكر في
الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من
دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ، قالت
إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك
لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر
ولم أك بغيا ؟ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية
للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾ ..

فالمراد بالقدر التقدير ، وبالقضاء الخلق ، فالقضاء والقدر أمران
متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فأحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر ،
والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء ، فمن فصل بينهما فقد رام هدم
البناء ونقضه ..

الإنسان والأقدار

الأقدار المحيطة بالإنسان على ثلاثة أنواع :

النوع الاول : لا يستطيع الإنسان دفعه منها يكن له من القوة والبطش ، ولا بد أن ينفذ ، وأنف الإنسان راغم .

النوع الثاني : لا يمكن للإنسان أن يقاومه كل المقاومة ، ولكن يمكنه تخفيف حدته ، وتلطيف شدته .

النوع الثالث : نوع جعل الله في وسع الإنسان أن يدفعه بل أوجب عليه أن يدفعه ، وأن يبذل في سبيل ذلك كلما يملك من قوة وجهد . وهذا إجمال يحتاج الى تفصيل : ..

النوع الأول :

أما القدر الذي هو وراء قدرة الإنسان ، ولاتناله قوته ، ولا يستطيع دفعه منها يكن له من قوة وسلطان فهو القدر المتصل بنواميس الكون ، وقوانين الوجود وهو القدر الغالب إبتداء وإنتهاء ، فليس في وسع الإنسان أن يوقف دورة الفلك ، أو يأتي بالربيع مكان الخريف ، أو بالشتاء مكان الصيف ، أو يعطل جاذبية الأرض .

ومن ذلك سنن الوجود : أن يولد الإنسان دون غيره ، ومن فلانة دون غيرها ، وأن يكون أبيض اللون أو أسمره ، طويل القامة أو قصيرها ، ذكيا أو غيبيا ، الى غير ذلك من الأقدار التي ليس للإنسان يد في إحداثها ولا قدرة له على تغييرها ...

ومن أجل ذلك لم يكلف الله الناس شيئا بهذا لأنه لم يكن في وسع أحد أن ينهض به ، ويلحق بهذا النوع . المصادفات البحتة التي لا بد للإنسان في إحداثها ، والتي لم يأت الخير فيها بجده ، ولا الشر بسعيه ، كأن علق شخص أماله على إنسان فمات ، أو وضع ماله في حرز أمين فاحترق أو وافته صفقه تجارية ماكان ينتظرها فربح منها مالا كثيرا ، أو غير ذلك

من الأسباب التي لا يد فيها للإنسان ، وهذه الأمور تهدي فطرة الإنسان الى أن هناك قوة فوق قوى البشر تسيطر على الإنسان وتخضعه لتصرفاتها فتأتيه بالخير من حيث لا يحتسب لحكمة لا يعلمها وترميه بالنوائب من حيث لا يقدّر، لير يجهله ...

تلك قدرة الله الغالب على أمره ، القائم على كل نفس بما كسبت الذي له الخلق والأمر ، وهو أحكم الحاكمين ، ذلكم هو القدر الذي ينبغي أن يتلقى الإنسان أحكامه بالرضا والتسليم والإمتثال ، وإن رآها شراً ، وبالحمد والشكر ، وإن رآها خيراً ، ذلكم هو القدر الذي يشير إليه الله سبحانه : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كَمُخْتَالَ فُخُورٍ ﴾ (سورة الحديد) . ويقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة التغابن) . فلو تدبرنا هذه الآيات حق تدبرها لوجدناها تنطق بالحق ، وتشهد بالصدق ، وتعلن في صراحة وجلالة أنه سبحانه يدبر الكون بعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته فلا يقع فيه شيء إلا بإذنه لوجدنا فيها عزاء للذين تعزّيهم الكوارث ، وتسهم النكبات إذ تنزل السكينة في قلوبهم وترد إليهم عازب الصبر ، أو تلهيهم الرضا والتسليم

ولوجدنا فيها كذلك كبحا لجحاح النفوس السادرة في غلوائها المدلة بما حوّلها ربها من الخير والنعمة التي يستهويها شيطان الغرور فينسيها شكر المنعم وحمد المتفضل .

إمتحان :

يمتحن الله سبحانه عباده ، وهو أعلم بهم لتنهض حجته عليهم وتنقطع أعذارهم ، وتدحض حجّتهم ولستوحي الصابر جزاء صبره ، ويستحق الشاكر ثواب شكره قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة الأنبياء) . وقال تعالى : ﴿ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ

يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم
فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿ (سورة العنكبوت) .

النوع الثاني :

أما القدر الذي لا يستطيع الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ولكن في
إمكانه تخفيف حدته وتلطيق شدته فهو ما يتصل بالغرائز والبيئة والوراثة ،
وما الى ذلك ، فهو غالب إبتداء ، ولكنه مخير انتهاء .

توضيح ذلك : إن الله تعالى قدّر على الإنسان غريزة حفظ الذات .
وهذه الغريزة جاححة طاغية عنيفة لو ألقى جبلها على غار بها لاقتحمت
بالإنسان مخاطر ومهالك ، ودفعته الى أن يطفر بكل ماتكنه قوته من
الظفر به غير مبال ولا حافل بسواه .

لم يفرض الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن ينتزع هذه الغريزة من
جذورها ، أو يقتلعها من أصولها لأنها قدر غالب لاسبيل الى دفعه ،
ولكنه أمره أن يكبح جاحها ويردها عن طغيانها ، وعلمه كيف يخفف
من حدة هذا القدر ، وكيف يلطف من جموحها قال تعالى : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة
عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾
(سورة النساء) ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى
ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ (سورة
النساء) ، قال أيضا : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً
ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (سورة البقرة) ،
ومن هذه النصوص الحكيمة ترون أن الله حَصَرَ على الإنسان أن يعتدي على
حق غيره ، وأن يأكل مالم يكسبه من طريق طيب مباح ، وبذلك يخفف
من حدة هذه الغريزة ، ويحد من طغيانها .

وهنا يشعر الإنسان بأنه حر مخير بين أن يستجيب لداعي الغريزة
المجوح ، وأن يستجيب لأمر الله الحكيم الذي لم يكلفه إلا ماله به طاقة .

وقدر عليه سبحانه غريزة حفظ النوع ، وهي كذلك جماعة شرود
طاغية ، فلو أرخى لها العنان لأصاب الرجل كل امرأة تروقه ، واستسلمت
المرأة لكل رجل يحظى باعجابها ...

وكذلك لم يكلف الله الإنسان أن يجتث هذه الغريزة من عروقها ،
لأن ذلك قدر غالب لا قبل للإنسان بمقاومته والخروج على أحكامه ، ولكنه
تعالى كلفه المستطاع وهو الحد من طغيان هذه الغريزة ، وكبح جماحها ،
وتدبير أمرها ، فحرم الزنا ، وحرم أنواعا من النساء تحريما مؤبدا وحرم
أنواعا منهن تحريما مؤقتا وأباح سائرهن بشرط الإيجاب والقبول ، والمهر
والشهود ، وإذن الولي وقد نصح الرسول ﷺ بما يكسر من حدة هذه
الغريزة إذا طغت فقال : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة
فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع
فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ونهى سبحانه وتعالى عن مخالطة
الأشرار للتخلص من شرور البيئة فقال تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في
الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزئ بها فلا
تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله
جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ (سورة النساء) ، وقال
تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى
يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد
الذكرى مع القوم الظالمين ، وما على الذين يتقون من حسابهم
من شيء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ (سورة الانعام) ،
وقال ﷺ : « مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء : كبائع
المسك ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا
زكية » (1) ، فنشأة الإنسان في بيئة خبيثة من القدر الغالب الذي
لاسلطان له عليه ، وأما محاولة التخلص من شرها ففي وسعه ، ومن أجل
ذلك كلفه الله تعالى إياها .

(1) رواه البخاري - عن أبي موسى - صحيح .

ولكي يقاوم سلطان الوراثة غالب الناس يحرصون على اتباع ماوجدوا عليه آباءهم فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة) ، وقال في الأثر : « إياكم وخضراء الدمن قالوا وماخضراء الدمن قال المرأة الحسناء في منبت السوء »(1)، ففرى من هذا أن أقدار الغرائز والبيئات والوراثات غالبية لاسلطان للإنسان عليها ، ولكنه يستطيع أن يصد طغيانها ويحد من سني أثارها وأن يلجمها بلجام الحكمة فتكون كلها خيرا نافعا .

النوع الثالث :

أما النوع الثالث - وهي الأقدار التي أوجب الله تعالى على الإنسان أن يدفعها - فهي الأقدار المتصلة بالأعمال الاختيارية ، ومنها التكليف الشرعي ، وهذه الأقدار المخيرة ابتداء وغاية .

جاء رسول الله ﷺ قومه بالهدى ودين الحق فكذبوه ورموه بما رموه به ، وحالوا دون نشر دعوته ، وإعلان كلمة الحق ، ولاجرم أن ذلك كله من قدر الله ، فإذا كان من أمره عليه الصلاة والسلام ؟ أتظنون أنه خضع لأحكام هذا القدر ، واستسلم لسلطانه ووقف أمام أعدائه مكتوف اليدين ؟ أتظنون أنه ترك جبل الدعوة على غارها ، وقبع في كسر بيته انتظارا لما تأتي به الأقدار ؟ كلا بل قاوم ، وناضل وجاهد ، وقاتل وبذل كل ما في وسعه ، وأنفق جهد طاقته لينحي أعداء الحق من طريقه ، حتى أيده الله بنصره ، وذلك من قدر الله أيضا فنحن أولا قد رأينا رسول الله ﷺ قد دفع قدرا بقدر ، ونحن في كل حين ندافع أقدارا بأقدار ...

فالجوع مثلا من القدر ونحن ندفعه بقدر الطعام ، والعطش من القدر ، ونحن ندفعه بقدر الشراب ، والمرض من القدر ، ونحن ندفعه بالدواء وهو من القدر أيضا ولو أن امرأ استسلم لقدر الجوع أو الظمأ مثلا وهو قادر على دفعه ، ثم مات مات عاصيا لله تعالى الذي نهاه عن أن

(1) قال الدرقي - لا يصح من وجه وفي المختصر - ضعيف قال في فاصد - تفرد به الواقدي .

يلقي بنفسه الى التهلكة قال تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا فإن الله يحب المحسنين ﴾ (سورة البقرة) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ (سورة النساء) .

وقد أفصح رسول الله ﷺ عن هذا كل الإفصاح ، وأوضحه كل الإيضاح حين قيل له : « يا رسول الله أرأيت أدوية تتداوى بها ، ورقى نستقي بها ، وتقى نتقي بها أترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام هي من قدر الله » (1) . فأنظر الى هذا الجواب الحكيم الذي يحفز الهمم الى العمل النافع ويهيب بالناس الى إتخاذ الأسباب والإمعان في الحذر . قال تعالى في الثناء على المؤمنين : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدعرون بالحسنة والسيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ (سورة الرعد) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ (سورة فصلت) ، فقد أخبرنا سبحانه وتعالى في الآية الأولى عن المؤمنين بأنهم يدعرون بالحسنة السيئة ، والسيئة من قدر الله ، والحسنة التي يدفعونها بها من قدر الله أيضا فهم يدفعون قدرا بقدر كما رأيت ، وفي الآية الثانية يأمر الله سبحانه بالدفع بالتي هي أحسن . والتي هي أحسن هي الحالة أو الصفة الحسنة تدفع بها الحالة أو الصفة السيئة وكلتها من قدر الله سبحانه ، فهو يأمر أن تدفع القدر بالقدر

وقال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ (سورة الانقال) . فقد أمر الله تعالى بإعداد المستطاع من العدة ارهابا للعدو والمستطاع هو مايدخل في قدرة الإنسان وإختياره وكل هذا من باب دفع الاقدار بالأقدار وهو في وسع الإنسان وفي صميم إمكانه

(1) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجه - في سنده مجهول وباقي رجاله ثقات انظر ترجمة أبي حزيمة في التهذيب وفي الباب عن حكيم بن حزام عند الحاكم وصححه ووافقه الذهبي

قال تعالى : ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودا الذين كفروا لو
تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ،
ولا جناح عليكم إن كان بكم اذى من مطر أو كنتم مرضى أن
تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعاد للكافرين
عذابا مهينا ﴾ (سورة النساء) ، فلو لا أن اتخذ الحذر مستطاع ، وفي
الإمكان وفي مقدار الإنسان ما أمر الله العليم الحكيم به لأن الله لا يكلف
نفسا إلا وسعها كما قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾
(سورة البقرة) .

لا تتم مصالح إلا بمدافة الاقدار

ومدافة الاقدار على ضربين : أولهما مدافة أقدار قد أنعدت أسبابها ، ولما تقع بأقدار تدفعها وتحول دون وقوعها ، كمدافة عدو مغير بالإعداد له . ثانيها : مدافة أقدار قد وقعت بأقدار تدفعها أما القعود عن مدافة الأقدار مع القدرة عليها فهي من العجز الآثم الذي نهينا عنه والذي كان الرسول ﷺ يستعيز بالله منه ، وكان يكثر أن يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل » (1) ولقد صح أنه ﷺ قال : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » (2) « إحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو إني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » ومعنى هذا الحديث أن المؤمن القوي الذي يأخذ أموره بقوة وعزم وتبصر ، أحب الى الله من المؤمن العاجز المتواكل . أما الخير الذي يشتركان فيه ، فهو الإيمان ، ولكن المؤمن القوي ممتاز عند الله لأنه نافع لنفسه ووطنه وأمته .

ثم يحض الرسول ﷺ على النافع من الأمور مع الإستعانة بالله جل شأنه ، والتوجه إليه ، والإستعداد من فيض رحمته وفضله ، فإن الإنسان لا يستغني عن قوة الله مهما بلغ من القوة والمعرفة ، ولا عن توفيقه ، وينهي الرسول ﷺ عن العجز ، وهو القعود عن العمل مع القدرة عليه كسلا وتهونا ، فإذا خرج الأمر من يده أصبح في يد الأقدار التي لا يمكن دفعها فالحرص على ما ينفع هو مدافة الأقدار بالأقدار ، لا ينبغي أن يحول الإيمان بالقدر بيننا وبين إتخاذ الحيلة والنظر في أعقاب الأمور بالحزم والحرص على الخير والعمل على الظفر به ، والفرار من الشر ، والعمل على النجاة منه وقد علم الله سبحانه وتعالى ضعف الإنسان أمام قوة الغرائز ، أو أثر البيئة ، أو الوراثة وعلم سبحانه أنها قد تطغى عليه فتورطه في الإثم أو

1 (الحديث لاحد في مسنده ومسلم والنسائي عن زيد بن ارقم - وهو صحيح -

2 (رواه أحمد في مسنده . ومسلم وابن ماجه - عن أبي هريرة - حسن -

تعرضه لألوان من الفتون ، فاقتضت رحمته أن يحو بالتوبة النصوح أثر هذا الطغيان ، وأمر بالتوبة ليحو بها قدر المعصية التي دفع إليها قدر الغريزة ، أو البيئة أو الوراثة ...

فمن دفع قدر التوبة قدر المعصية - كما يدفع قدر الدواء قدر المرض - فقد استسك بالعروة الوثقى ، ومن لجّ في عتوه ونفوره ، فعلى نفسه جنى واياها أوبق ، وما ربك بظلام للعبيد ..

قدّر الله سبحانه أن الجد سبب الظفر في الدنيا ، وأن عمل الصالحات سبب الفوز بالنعيم في الآخرة ، فان قصرنا في العمل حاق بنا سوء تقصيرنا وكنا خلقاء باللوم والتثريب أحرياء بما أعد الله للمقصرين من الخيبة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، لا ينبغي أن يحتج بالقدر إذا قصرنا في عمل كان في وسعنا أن نعمله فلم نعمله ، فحاق بنا ما يستوجبه التقصير ، لأننا مأمورون أن نأخذ الحذر ، وأن نحتاط للأمر ما أستطعنا الى ذلك سبيلا ...

كل امرئ يدرك ادراكا تاما الفرق بين ما يأتية أو ما يدعه طوعا واختيارا ، وما يصيبه وليس له فيه إختيار ومن أنكر ذلك فقد سقّه نفسه ، وأنكر عقله ، إننا نرى أن الإنسان إذا أخفق في الحصول على مطلب عاد باللائمة على نفسه ثم عاود الطلب بعد إحكام وسائله واتخاذ الأسباب التي يعتقد أنها كفيلة بأن تحقق أمله حتى يظفر بحاجته ، وإن رأى سبب إخفاقه منافسة خصم اشتد غضبه عليه ، وإن اعتدى عليه معتدٍ بالقول أو بالفعل لم يقف أمامه مكتوف اليدين متى كان قادرا على الانتقام ، ومن العجيب أن القدر لا يخطر بباله في كل هذه الأمور ، ولا يخطر بباله إلا إذا اقترف سيئة ليحمل الأقدار تبعه ماجنى وجريرة ما اقترف .

ضلت أفهام المسلمين ولاسيا الصوفية ، فصاروا جبرية لا يفكرون في جلب خير ولا دفع ضر كأنهم بين أيدي الأقدار كالريشة في مهب الرياح ، فإذا وجهت إليهم عتابا أو ملاما أو نصحت لهم بأن يرجعوا الى الإسلام ويعملوا بالاسباب وأن يسلكوا سبل الخير أحتجوا بالقدر ، وحملوا الأقدار

تبعة ماجنوا من أوزار » وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها أباءنا والله أمرنا بها » وهذا أقبح ما انتهى إليه جهل الجاهل وغفلة الغافل ، وحق الأحمق وغباء الغبي .

إذا أغرى الشيطان الإنسان بالمنكر أو زين في قلبه القعود عن صالح العمل ، ولوح له بالقدر يتخذه تكأة يتكئ عليها ، وعذرا يعتذر به ، فعليه أن يدفعه بذكر الأمر والنهي ، وأن يقول له في حزم وتبصر ، إن الشريعة المطهرة ما أنزلها الله إلا ليلسح بها المكلفين ليدافعوا الأقدار ، وليعلمهم كيف يدفعونها بأقدار مثلها ، فمن شق أمواج الأقدار بسفينة الأمر والنهي وصل الى ساحل النجاة ، وسلم من المعاطب ونجا من الأخطار ...

لولا أن الإنسان يشعر كل الشعور بأنه مختار فيما يأتي وما يدع ، ولولا أن الطاعات في وسعه وفي قدرته ما نزلت الشرائع ، ولا جاءت الأوامر والنواهي ، ولا أرسل الله الرسل ، ولا أنزل الكتب ، ولا أنذر ، ولا بشر ولا رغب ، ولا حذر ، ولا جعل جنة ونعما ولا نارا وجحما ، لو كان الإنسان مجبرا على أعماله الاختيارية لبطل الثواب والعقاب ، والتأديب والتهديب ، والنصح والأرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى الخير والصد عن الشر ..

وما لاشك فيه أن الإنسان يشعر بأنه تام الاختيار في فعل ما يفعل ، وترك ما يترك ، وكثيرا ما يتردد بين عملين ، فيفكر ويتروى ، ويوازن بين نتائجهما حتى إذا تبين له فضل أحدهما على الآخر أثره ومضى فيه .

وقد أتفق المختلفون على أن هذه الأعمال تسمى أعمال الإنسان الاختيارية أي الصادرة عنه بمحض اختياره ، ولا يمارى في ذلك منهم أحد .

ولو نظرنا الى القرآن الكريم لوجدناه دالا كله على أن للإنسان اختيارا لا يكاد القارئ ينشر المصحف على أية صفحة من صفحاته حتى يجد الآيات تنطق بأن للإنسان عملا أو فعلا أو كسبا ، أو سعيًا وأنه مسؤول عن عمله

ويجزى به ، والشاهد والحس والبديهة كفيلة ببيان أن للإنسان عملا صادرا عن ذاته ...

فترى الطفل لأول عهده بالكتابة يحرك يده بالقلم فلا يكاد يقيم حرفا ، وكلما ازداد تدريبا جاد خطه ووضحت كتابته ، والصانع المبتدئ كثير الأخطاء وكلما مضى في الصناعة قلت أخطاؤه ...

والمبتدئ في تعلم الخطابة لا يكاد يقيم لسانه ، فإذا أشتد إستقام لسانه بعض الشيء ، فإذا حذق الفن جاد بيانه وأنطلق لسانه ، ونرى من أنفسنا الخطأ والنسيان والضلال ، والخضوع لوسوسة الشيطان ، واقتراف الفحشاء والمنكر ، والبغي والظلم والعدوان وغير ذلك من المعاصي والآثام . ثم التوبة والإستغفار والندم مما لاتصح نسبته الى الله حقيقة ولا مجازا ، ولا يجوز عقلا ولا شرعا ولا أدبا ، ولا ذوقا أن ينسب إلا الى فاعله المسؤول عنه المحاسب عليه الجزى به ..

قال الله عزوجل : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ينج الله غفورا رحيم ﴾ (سورة النساء) ، هذه الآية أسند الله فيها الى العبد عمل السوء وظلم النفس والإستغفار ، وأسند الى نفسه المغفرة والرحمة فأسند الى الله ما أسند الى نفسه ، ولنسند الى العبد ما أسند الله إليه وليس علينا في ذلك جناح ولو تدبرنا القرآن كله لوجدناه على هذه الشاكلة ، فلم يقولون يخلق العبد أفعال نفسه ، ثم يختلفون ؟ أما إنهم لو قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ يفعل أو يعمل أو يكسب أو يقترب ماأختلفوا ، وإذا كانوا جميعا متفقين على أن أعمال العباد اختيارية قدرها الله أن تكون لهم فما بالهم يحاولون نسبتها الى الله تعالى .

أمر الله :

رجل تنكب طريق الحق ، وحاد عن الرشد ، وضل عن قصد السبيل ، فما يكون جوابه إلا أن يقول - هذا أمر الله - وهذا كذب على الله ، واقتراء عليه والله تعالى يقول : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين

كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى
 للمتكبرين ﴿ (سورة الزمر) ، أجل كذب على الله وافتراء عليه ، وقد رد
 الله على أمثال هذا المفتري بقوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا
 وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء
 أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ (سورة الاعراف) ، صدق الله
 العظيم ، فرتكب الخطيئة لا يرتكبها بأمر الله ولكن بأمر الشيطان الذي
 يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء كما قال الله : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر
 ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع
 عليم ﴾ (سورة البقرة) ...

إرادة الله :

قد يلوم أحدكم بعض من يقتربون المنكر فيدفع عن نفسه بقوله : هذه
 إرادة الله أجل هذه إرادة الله ، ولكن الله يكره من عباده أن يعملوا
 الشر ، وإن وقع بإرادته ، إذ لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، وليس معنى
 المشيئة أنه يجب ذلك الشر بل معناه : أن الشر لا يقع على الرغم منه -
 وحاشا له وإرادة الله تعالى لا ترغم العبد على فعل الشر ، ولو أن العبد فعل
 الخير بدل الشر لكان فعل الخير بإرادته سبحانه - أيضا .

فإن الله سبحانه بعد أن أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وبين الحلال
 والحرام ، وأخبر بما أعد للمطيعين ، وما أعد للعصاة المارقين ، ترك العباد
 لاختيارهم كما قال تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن
 ومن شاء فاليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بها سرادقها ،
 وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب
 وساءت مرتفقا ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع
 أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها
 الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا
 من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب
 وحسنت مرتفقا ﴾ (سورة الكهف) .

ترك الله العباد لاختيارهم ، وان كان يحب منهم أن يأتوا الطاعات ،
ويكره أن يأتوا المعاصي . فالطاعة والمعاصي تقع من العبد بإرادة الله
ومشيئته أي بغير أن يكون مكرها على وقوعها كما أن مشيئته تعالى لم نكره
العبد على المعصية التي تقع منه .

دفع اعتراض

فإذا سأل سائل عن قوله عز وجل : ﴿ فَم تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَارْمِيْت اِذْ رَمَيْت وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ والحس والمشاهدة قاضيان بأن المسلمين هم الذين قتلوا كفار قريش يوم بدر ، وبأن النبي ﷺ هو الذي رمى قبضة التراب التي أصابت أعين المشركين وكانت سببا في هزيمتهم ، ولكن الآية تسند القتل والرمي الى الله ، أفليس في هذا الدليل على أن العبد لا عمل له ، وأن العمل لله وحده وهذه هي الحيرة دفع هذا الإعراض وهذه الآية الكريمة وردت في سورة الأنفال في معرض نهي المسلمين عن التولي يوم الزحف ، فقد جاء قبلها قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَنْ حَرَفَ لِقِتَالٍ أَوْ مُحْتَزًّا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير ﴾ .

فكان الله يقول للمؤمنين : ما الذي يحملكم على الفرار أو يدفعكم الى تولية الأدبار ، والله قد كفل تأييدكم ونصركم ، فاذكروا يوم بدر ، وقد كنتم قلة لا تقومون لكثرة المشركين ، ولكن الله أمكنكم منهم حتى قتلتم سبعين رجلا وإن قوتكم الطبيعية لا تتيح لكم هذا النصر ، ولا تمكنكم من هذا القتل ، فالله ربط على قلوبكم ، وثبت أقدامكم حتى أظفركم بهم ، وأظهركم عليهم ، فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم بما خولكم من أسباب النصر والغلب التي لم تكن لتتاح لكم ، ثم يلتفت الى خطاب رسول الله ﷺ فيقول له ، وحين ألقى كفا من التراب في وجوه المشركين فأصاب التراب أعينهم جميعا لم تكن لتدرك ذلك بقوتك الطبيعية ، ولكن الله تعالى هو الذي كثّر ذلك التراب بمحض قدرته ، وأوصله الى أعينهم حتى ثقلوا بها عن الالتفات لمن يقاتلهم .

فإن كان النبي ﷺ قد رمى التراب فإنه لم يكن بوسع أن يوصله الى أعينهم جميعا ، فذلك من فضل الله وحده ، كما ألقى موسى عليه السلام العصى فكانت حية تسعى ، فإلقاء العصى عمل موسى ولكن قلبها حية عمل

الله تعالى وحده ، وكذلك إلقاء التراب عمل النبي ، ولكن توصيله الى أعين المشركين على الرغم من بعدهم عن مكان الرمي ، وكثرتهم ، واختلاف اتجاههم هو عمل الله تعالى ، ولذلك صح أن يسند الرمي الى النبي وينفى عنه أثره ، ويسند الى رب العزة .

هذا هو نظام القرآن الكريم ، وهذه بلاغته ، وهي كما ترون فوق النزعات والأهواء الجدلية ، ووراء الفرق والمذاهب ...

تفسير قوله عز وجل :

﴿ قل كل من عند الله ﴾ وقوله : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ذلك أن المنافقين والكافرين الذين كانوا بالمدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ إليها كانوا إذا أصابتهم حسنة : من نزول غيث ، وغناء زرع ، وجودة حاصل قالوا : هذه من عند الله زاعمين أن الله تعالى ماأنعم عليهم إلا لكرامتهم عليه ومنزلتهم عنده . وإذا أصابتهم شدة من احتباس المطر ، أو جفاف زرع قالوا هذه من عندك يا محمد ، أي إنهم كانوا يتشاءمون بقدمه ، ويتطيرون بدعوته ، فرد الله عليهم مقالتهم الخاطئة الآتمة ، وقال تعالى مخاطبا نبيه الكريم : ﴿ قل كل من عند الله فاهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ أي : أن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله لوقوعها في ملكه على حسب ماوضع من النواميس والسنن ، ومن الأسباب وارتباطها بمسبباتها ، وإن هؤلاء القوم ماأتوا إلا من سوء فهمهم وقلة فقههم لما يقولون وما يسمعون : ولوأنهم كانوا على شيء من الفهم والفقه لردوا كل شيء الى سببه القريب أي الى واضع السنن ومسبب الأسباب سبحانه وتعالى ولعلموا أن السيئة لم تقع بشؤم ، ولا بتأثير دعوة ولا بظهور دين .

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الأمر في الحسنة والسيئة بالنسبة الى موضعها وقوانين الوجود ، وسنن الله تعالى فيها ، وأوضع تعالى أن كل شيء مما يحسن وقعه عند الناس أو يسوؤهم بهذا الاعتبار يضاف الى رب العزة ، لأنه مسبب الأسباب ، وواضع النواميس والسنن أراد سبحانه أن يبين حقيقة الأمر فيها من وجه آخر فقال : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن

الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك رسولا وكفى بالله شهيدا ﴿ ومعنى هذا : أن كل حسنة تصيب العبد من صحة وعافية ورزق ، واعتدال زمان ، وخصب أرض ، ونزول غيث وغير ذلك مما يحسن عنده وقعه ، فهي من فضل الله عليه . فهو الذي سخر له المنافع التي بها حياته ، وحياة ماينتفع به من حيوان ونبات وهو الذي أرشده بما وهبه من أنواع الهدايات ، بما أنزل عليه من الشرائع والآيات البينات الى سبيل الإنتفاع بهذه الموجودات . وقد مكن الله الإنسان من ناصية الوجود ، ووهبه العقل والقوى مايكفيه من توفير أسباب السعادة ، والبعد عن مزالق الشقاء ، وهذه النعم مصدرها المواهب الإلهية فهي من الله تعالى .

وكل سيئة تصيب العبد فهي من نفسه لأنه أوتي قدرة على العمل ، واختيارا في التقدير الباعث عليه ، من دفع المضار ، وجلب المنافع .

فإذا أساء العبد التصرف في عمله ، وأهمل العقل وإنصراف عن سر مأودع الله في سننه ، واتبع الهوى ومال مع الشهوات جلب الشر على نفسه لأن ربه وهبه هبات ليصرفها فيما ينفعه ، فوجهها بسوء اختياره الى مايضره ، فحق أن ينسب اليه ماجنى على نفسه ، ويقال له : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ..

وهنا حقيقتان متفقتان ينبغي تدبرهما وفقهما :
الأولى : أن كل شيء من عند الله بمعنى أنه خالق الأشياء ، وواضع النظام والسنن ، ومسبب الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وهذا كله بسعي الإنسان واختياره لأنه مظهر الحكمة الإلهي ...

الثانية : ان الإنسان لايقع في شيء يسؤه إلا بتقصيره في استبانة الأسباب وتعرف السبب والأحكام فإذا قصر الإنسان في العلم وأساء الاختيار في استعمال قواه في غير مايقضيه نظام الفطرة وقع فيما يسؤه وكان على نفسه جانبا ﴿ وكذلك يُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أفلا يدل على أن الهدى والضلال بيد الله تعالى ، وليس للعبد فيما كسب ولاعمل ؟ ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله تعالى حكيم ، والحكيم يضع

الأشياء في مواضعها ، ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (سورة الليل) . فدل سبحانه بهذا القول الحكيم على أن أعمال العباد مختلفة وعلى أنها مقدمات تفضي الى نتائجها ، وأسباب تؤدي الى مسبباتها فمن أعطى واتقى وصدق للحسنى سيسره الله الحسنى : وذلك هو الذي يشاء الله أن يهديه ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ، وذلك هو الله الذي يشاء أن يضله وهذا اختيار من جانب العبد ، واتجاه وعمل ، ومن فضل الله ورحمته أن الذي يختار الخير ويتجه إليه يعينه الله عليه ، وييسره له كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ (سورة محمد) ، وكما قال أيضا : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا مَرَدًّا ﴾ (سورة مريم) ..

وأما الذين يختارون الشر ، ويتجهون إليه ، فإن الله تعالى يوليهم ماتولوا ، ويتركهم ومأخثاروا لأنفسهم كما قال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (سورة النساء) ، وهذا معنى إضلالهم فمن حيث أن الله سبحانه دعاهم الى الطريق الخير وسبيل الهداية على لسان رسله ، وفي كتبه المنزل بعد أن منحهم من أنواع الهدايات ما فيه بلاغ فأبوا أن يستجيبوا لداعي الحق ، واستكبروا أن يسلكوا سبل الرشد ، فلا جرم أن الله يتركهم ومأخثاروا لأنفسهم فلا يأتي إضلالهم إلا من بعد أن أجهوا الى الشر وإعراضهم عن الخير قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (سورة البقرة) ، إن الذين وقع عليهم الإضلال هم الموصوفون بما ذكر ، فالإضلال قد وقع على الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ،

ويفسدون في الأرض ، فهو نتيجة مترتبة على مقدمات أتوا بها ، ومسبب عن أسباب وهو ليس إلا تركهم يسرون في الطريق الذي أختاروا سلوكه ، ولو وقع الضلال على الصالحين يصلون مأمراً به أن يوصل ، ويصلحون في الأرض لقلنا أن الله أرغهم على الضلال وحاشا الله ...

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ (سورة الاسراء) .

وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ (سورة الشورى) ، وقال تعالى : ﴿ أفأرىتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت إنا لمغرومون بل نحن محرومون ﴾ في هذه النصوص الحكمة أكبر العبرة لمن شاء أن يعتبر ، فقد بين سبحانه وتعالى أنه يعطي العبد ما يسعى للحصول عليه والظفر به ، فمن سعى الى الدنيا أعطاه منها ، ومن سعى الى الآخرة شكر الله سعيه .

وقد أسند رب العزة الى العبد إرادة وسعياً كما أسند إليه الحرث وأسند الى نفسه الزرع ، فالحرث ما يقوم به العباد من حرث الأرض وتهيتها وإعدادها ، وبذر الحب ، وإفاضة الماء ، وتعهيد النبات بالعزق والتسميد وما الى ذلك .

والزرع : إخراج النبات من الحب ، وهو الأمر الذي لا يدخل في طوق البشر ، ولا يستطيعون إليه سبيلاً ، ولا يقدر عليه إلا رب العالمين سبحانه .

وعلى ذكر الحرث والزرع ، أرايم إنساناً بذراً فنبت له شعيراً ، أو غرس نخلاً فنبت له دوماً ، أو بذراً حنظلاً فنبت له موزاً .

وكذلك الشأن في المعنويات ، فمن أتجه الى الخير وأخذ بأسبابه هياً

الله له ، ومن اتجه الى الشر وتعلق بوسائله : ولآه الله ماتولى ، وتركه
وماأختار كما أن من حرث التبن زرع الله له التبن ، ومن حرث الشوك
زرع الله له الشوك ، وكل يجني ماغرست يده ، ولايظلم ربك أحدا .

التوفيق والخذلان :

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام :
﴿ وما توفقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب ﴾ (سورة هود) ،
ونسبع يدعون لبعضهم بعضا وفقك الله ، أو كتب لك التوفيق ، أو أدام
الله توفيقك ، وأمثال هذه الدعوات . فما معنى هذا التوفيق ؟ إن العبد مهما
يُؤْت من العلم والفطنة والذكاء والمعرفة ومهما تواته التجارب والإختبارات
فإن وراء علمه علما لاحد له ولاغاية ، ذلك هو علم الله الذي إذا قيست
جميع علوم البشر ومعارفهم وتجاربهم إليه كانت هباء ، بل لم تكن شيئا
مذكورا قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾
(سورة الاسراء) ، وقال أيضا : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات
والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ (سورة البقرة) ، قال
تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾
(سورة آل عمران) . إذا علم الإنسان قاصر منقوص مهما يتسع أفقه ، ولقصور
علمه يتنى أمرا تكون فيه أمنيته ، وقد ينفر من شيء يكون له فيه
كل الخير ...

قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى
أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾
(سورة البقرة) ، وقال أيضا : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله
فيه خيرا كثيرا ﴾ (سورة النساء) ، وإذا تقرر هذا قلت إن التوفيق عناية
خاصة يتولاها رب العزة لبعض عباده فضلا منه ونعمة فيجعل أعمال هذا
العبد ومساعيه موافقة لأسباب ظفره بالخير الذي يجهل طريقه ..

فإذا تفضل العليم الحكيم سبحانه على عبده بهذه العناية فإنه يهيء له
وسائل النجاح وإصابة الخير ، مالا يبلغه بعلمه ، ولا بارادته ، ولا بقدرته ،

ولا يكسبه ولا يتجاربه أي أنه تعالى يمنحه قوة مافي مقدوره ما يكون سببا في بلوغه الى الخير ..

قال تعالى : ﴿ وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ (سورة الحجرات) ، والله عليم بمن يصلح اهذا الفضل ، ومن لا يصلح له ...

أما الخذلان فهو أن يترك العبد لاجتهاده ومأمّنه من المواهب العامة ، فلا يمنحه شيئا من العناية التي يمنحها ممن كتب لهم التوفيق ، والله سبحانه لا يظلم العبد بذلك شيئا.

هذا والتقوى والصدق والتوكل على الله تعالى مع إتخاذ الأسباب ، والتعرض لنفحات الله تعالى من أعظم أسباب التوفيق قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ (سورة الطلاق) .

كلمة جامعة :

أجاب سيدنا علي كرم الله وجهه حين سئل : أكان مسيرنا الى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ فقال للسائل : « ويحك ، لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حاتما ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الـرعد والوعيد .. إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يُعصى مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتاب للناس عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » .

إصلاح المجتمعات الإسلامية الحالية من الانحراف والفساد عن طريق الدين

من أمعن النظر في حياة المسلمين وجدها بحاجة ماسة الى إصلاح جذري يشمل حياتهم كلها الفردية والجماعية الحكومة والدستور ، والمناهج والبرامج ، بل في كل شأن من شؤونهم ، ويتغلغل في صميم أمورهم عن طريق الدين والأخلاق ، لأنهم انحرفوا انحرافا شنيعا عن الإسلام والأخلاق الفاضلة قل من تراه متمسكا بهما ...

فشباب المسلمين غالبهم في الحانات والمواخير مع الفتيات يتعاطون الفحش والعهر علانية ، وعلى مسمع ومرأى من الحكومة ، والآباء لا يحركون ساكنا ، بل الحكومة هي التي تنظم السياحة في القرى والأرياف للذكور والإناث يبيت بعضهم مع بعض ، وهي التي تأمر باختلاط الجنسين مع المراهقين في التعليم وغيره كالمستشفيات والعامل ومكاتب الموظفين يرتكبون الموبقات والجرائم ، ويتركون واجباتهم العملية ، والويل لمن أنكر عليهم يتهم بالرجعية وعدم الذوق ، فأصبحت نساء المسلمين خارجات عن آداب الإسلام ، وعن الحياء الشرعي ، مستخفات بأوامره ، فياله من منكر عظيم وشر مستطير أصاب المسلمين ، بناتهم -أبنائهم يتعرضون للفتنة والفساد الكبير ، وقد أستوى في هذه الحالة الأسير والمأمور ، والملك والوزير ، والغني والفقير ، والكبير والصغير ، فلا الصغير يخاف من الكبير ، ولا الكبير يستحي من الصغير ففحش وجور وظلم وقمار ولهو ، وخرم وفسوق ، وتهور وسفور وتبرج منكر ، وخيانة وزور ، وجهل وغرور ، ونعم تصرف في المعاصي والفجور ﴿ آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور ﴾ فلا يخافون من الله ولا من الناس يستخفون ، ولا من أنفسهم ينصفون تالله إنهم لمسرفون ، وعن الحق يعزفون ، وعن الصراط لناكبون ، وفي طريق الضلالة يتيهون ، فالله المستعان على ما يصفون ، ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا وما للظالمين من أنصار ﴾ (سورة الاعراف) .

المسلمون اليوم عن الحق معرضون ، وفي الباطل يخوضون ، ولصرح الإسلام ينقصون ، وفي طريق الفساد يركضون وبالملاهي يفرحون .

أين الصالح من الفاسد في هذه المجتمعات والعابد من الفاسق ، والطامع من الزاهد ، أين المساجد من الملاهي ودور السينما ، أين المعابد من بيوت الدعارة والحانات أين الصائم القائم المجاهد من الطامع الكاسي الراقد .

لهذا يجب إصلاح المجتمع الإسلامي عن طريق الدين الحنيف والأخلاق الإسلامية لأنها هي العنصر الفعال في إصلاح الشعوب والأمم في جميع الاتجاهات ، وهي الزاد والمجد للوصول الى الغاية المنشودة ، وفقدانها يجر حتما الى الفشل والإندحار ، ويدفع الأفراد والجماعات الى الهلاك والدمار ، وضعف المسلمين الحالي سببه الانحطاط الملقى عليهم الأخلاق الإسلامية تدعوا الى التعاون والتراحم ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

المؤمن يتحلى بكل فضيلة . وينفر من كل رذيلة ، وتأبأها له همة عالية ، وآداب سامية ، وآمال أعمال صالحة متوالية يحبها الله منه ويرضاها ، المؤمن تمنعه ديانته عن إرتكاب الذنوب والمعاصي ، وتحجزه مروءته عن العيوب . وليس من الدين أن توحداوا الله - أيها المسلمون - بالسنتكم وأنتم بدينه متساهلون ، ولأحكامه مهملون ، وعن الوعد والوعيد ذاهلون تحللون وتحرمون ماتشاؤون ، وليس من الإيمان أن تتظاهروا بالخير فيما تقولون ، وأنتم تنشرون الشرفيا تفعلون .

لو أصلح المسلمون مابأنفسهم ، واعتصموا بحبل الله جميعا كما أمروا وأصلحوا ذات بينهم لعادوا الى ماكانوا عليه من المجد والعظمة أيام تمسكهم بتعاليم دينهم ، ولو أنهم احتكموا في خصوماتهم الى كتاب الله وسنة رسوله ، ومااستنبط العلماء للمسلمين في مهمات الحوادث لما اختلفوا ، ولو أنهم نشروا العلم الديني ، والإصلاح الحقيقي في أوطانهم لما اختلفوا ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ أيها المؤمنون أين ماوعدكم الله به من العزة ؟؟

أتشكون في وعد الله ؟ والله لا يخلف الميعاد ، المسلم يعبد ربه بظاهره

وباطنه وقلبه ، يجاهد في سبيل الله بسيفه ، وقلمه ، ولسانه ، لإعلاء كلمة الله ، وينفق في الخير ماله إبتغاء وجه ربه الأعلى أن يعمل لله ، أو يتكلم بالحق وإن أضر نفسه فعال منفاق مصداق ..

المسلمون في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر ، كلمتهم واحدة ، ومهمتهم واحدة ، وجهادهم لله وقبالهم في سبيل الله ، من أفترق أعانوه ، ومن حضر عدوه ، ومن غاب إفتقدوه ، ومن مات شيعوه ، ومن مرض عادوه ، وبالدين الصحيح تكون سعادة المسلمين ، وحين تفرقوا شيعا وأحزابا ، وأختلفوا مذاهب ونحلا ، وتبينوا أهواء وسبلا ، وملأوا المجالس جدلا ذهب سلطانهم ، وضعف كيانهم ، وصغر شأنهم ، وتداعت عليهم الأمم ، وكذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ...

اليوم الذي تخلى فيه العالم الإسلامي عن الدين والأخلاق تخلت عنه السعادة ، وتاهت به الحياة في مجال القلق ومتاهات الحيرة ، ومجالات الشك والاضطراب .

الفقر الحقيقي ليس هو فقر المال ولا الأوراق ، وإنما هو فقر الكرامة والأخلاق ، فقر الإنسانية ، فقر الصفات والشمائل والمحامد والعلم .

أزمة المسلمين ليست أزمة الإقتصاد والسياسة والمال ، الأزمة في الواقع أزمة الرجال ، أزمة الضمير ، أزمة الخلق ، أزمة الدين ، أزمة الوعي والنضج والرشد ، أزمة الأخلاق ، أزمة العقيدة ، أزمة المثل العليا ، أزمة المبادي والقيم ، والمعالي والمفاهيم ، أزمة الأمانة والواجب والتضحية ، أزمة الضمير والإيمان ، فهذه الأزمات كلها ناشئة عن عدم اهتمام المسلمين بأمور الدين وجهلهم به ..

الإسلام جاء ليجمع القلب إلى القلب ويضم الصف إلى الصف ، جاء ليكون مجتمعا راقيا نقيًا من عوامل الفرقة والضعف المعنوي والمادي ، وأسباب الفشل والهزيمة حتى يصل إلى المقاصد السامية ، والأهداف النبيلة ، التي جاءت بها رسالة سيدنا محمد ﷺ من عبادة الله ، وإعلاء

كلمته ، واقامة الحق ونشر العدل وفعل الخير ، والجهاد من أجل استقرار مبادئ الإسلام التي يعيش الناس في ظلها آمنين مطمئنين .

جاء الإسلام ليربط المسلمين برباط الأخوة التي لاتنفصم عراها ، بحيث تزول أمامها جميع الفوارق من نسب ومال وجاه الى غير ذلك مما درج عليه الناس من المميزات ﴿ إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ هذا الإخاء يستلزم تبعيات وحقوقا ، فليس هو إخاء عقينا لاثرة له ...

أوجب الإسلام على المسلمين أن يحترموا بعضهم بعضا وأن يحافظ كل فرد على كرامة أخيه من أن يعيبه أو يحط من قدره ، أو يطعن في شخصيته ، أو يلقبه بلقب يكرهه ، فهذه السيآت تقطع الصلة ، وتمزق روابط المودة ، وترفع البغضاء في القلوب ، وتنشر العداوة في النفوس .

أمر الإسلام المسلمين بالتواضع وخفض الجناح ولين الجانب ، فالمسلم لا يتكبر ، ولا يخال ، ولا يزهو بنفسه ، قال تعالى في حق المتكبرين : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ﴾ وقد جاء في الحديث الشريف « إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد. » (1) ...

الإسلام يهتم بتعاون المسلمين فيما بينهم حتى يتحدوا لتقوى جماعتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « يا بني إذا أصبحت وأمسيت وليس في قلبك غش لأحد فأفعل فإن ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة » .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » (2) هذا الحديث الشريف ينبه المسلمين من

(1) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، عن عياض بن حمار - حسن -

(2) قال المختصر - ضعيف - اسناده واه جدا والمعنى صحيح

غفلتهم ويحثهم على أن يقوموا بواجباتهم نحو بعضهم بعضاً ، لأن كل واحد منا عليه واجبات وحقوق ، ومسؤوليات نحو المجتمع . فإصلاح المجتمع متوقف على اصلاح الفرد ، فإذا كان الفرد شاعراً بواجباته الكثيرة نحو ربه الذي خلقه وأغدق عليه من نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ، وخافه في السر والعلن ، واستحضر عظمته في ضميره ، وخشيته في قلبه ، فيصبح هذا الفرد لا يتعدى ما أمر الله به ، ولا يتجاوز ما نهاه عنه ، فيسير في طريق الصواب التي لا أعوجاج فيها ، فيصير إنساناً كاملاً فيؤدي رسالته التي خلق من أجلها ، ألا وهي فعل الخير في هذه الدنيا ، فيعمل بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » (1) ...

العلم هو السبيل الوحيد إلى بناء العقيدة الصحيحة ، وهو السبيل إلى هداية الإنسان وسعادته ، ولهذا رفع الإسلام من شأنه ، ونوه بمكانته ، وحث الناس على اعتناقه ، وقد مثله بالنور ، ومثل الجهل بالظلمات قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ .

ولقد وجه الإسلام الناس إلى أخذ الأحكام عن العلماء فقال عز وجل : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ والعلم في نظر الإسلام حق مشترك بين الناس ، وقد ألزم العالم أن يعلم غيره من الناس ، وجعل كاتم العلم ملعوناً كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة » (2) وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ .

(1) مختصر صحيح مسلم - عن عبد الله بن عمرو في كتاب الايمان

(2) رواه ابن عدى في « الكامل » عن ابن مسعود - صحيح -

ليس العلم أن تعرف الطهارة والصلاة والحج والزكاة والصيام فحسب بل يجب أن تتعلم معرفة الحق من الباطل ، والحسن من القبيح ، والحلال من الحرام ، وليس القصد من التعلم أن تحمل الشهادة من التعليم اللايكي ، ولكنه ذلك ، وأن تحمل أيضا شهادة الدين والأخلاق لتترك الأحاد والإباحة .

إن التهاون في القيام بالواجب سمه من لا خلاق لهم ، وإن الله العلي القدير حكم حكما جازما بأن التهاونين فيما كلفوا به من تطبيق الإسلام مكذبون ، ولهم الويل في الدنيا ، والندامة والحسرة والخزي يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فهل يليق بنا - معاشر المسلمين - أن نقطع الصلة بيننا وبين تعاليم الإسلام ، أو نحصرها في طائفة معينة من الناس ؟ أنتظر مرشدا غير القرآن الكريم ؟ أم هاديا غير محمد ﷺ ؟ استولت علينا الأهواء فأنستنا ما أوجب علينا الإيمان ، أم طبعت النفوس على الشر فضلت سواء السبيل ، أم صار على القلوب اقفال ، عجا يأمرنا ربنا بالتعاون على البر والتقوى ، ونحن نتعاون على الإثم والعدوان .

كان المجتمع الإسلامي فيما مضى تنظره شعوب الدنيا بعين الإجلال والإكبار ، فما لنا ونحن لم نكن كما كنا من قبل إلا اننا غيرنا ما بأنفسنا ، فتغيرت أخلاقنا ، وتباعدنا عن صالح العادات وجميل السجايا . يجب على المسلمين أن يحاربوا الشهوات التي تزين لهم مخالفة الدين والعقل ، ويتبعوا عن الأرواح الخبيثة التي حذرهم منها القرآن كالنفس الأمارة بالسوء ، ووساوس شياطين الإنس والجن حتى ترجع نفوسهم الى طريق الحق والصواب ، فالمسلم يجب أن يلازم الاستقامة في الأقوال والأفعال ، ويأخذ نفسه بالوفاء بالعهد ، وصدق العزيمة وعدم مجاراة السفهاء ، لهذا كان المسلمون : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ (سورة آل عمران) .

فما بال المسلمين اليوم يتجهون إلى الترد على الله وإلى قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ووصل ما أمر الله به أن يقطع ، فما من شر في الأرض ،

ولا فساد في الوجود إلا ولهم به صلة ، فزين لهم الشياطين سوء أعمالهم وحسنوا لهم الكفر والمعاصي ، ودعواهم إلى تكذيب الله ورسوله ومخالفة أوامرها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قدسي : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وانهم قد اتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا » .

الشياطين هي التي دعت الناس إلى تحريف الدين والخروج عن الفطرة إلى الشرك بالله ، وحرمت عليهم الحلال وأحلّت لهم الحرام ، ولا تزال تقعد لهم بكل سبيل حتى تصدهم عن طاعة الله .

الشیطان هو الذي قام بدور رئيسي في القضاء على دعوة الاسلام في أول مشاورة له مع كفار قريش قال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما ترات الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

رسالة الاسلام قائمة لهدفين رئيسيين :

أولها : تصحيح العقيدة من جميع الشوائب ، وذلك بالعدل مع الله الذي خلق وأنعم وسوى وهدى ، ورزق فأعطى ، وليس من العدل الإشرار في عبادة الله والتقصير في طاعته .

ثانيها : أن يأخذ المسلم نفسه بالعدل في جميع تصرفاتها ، ويلزمها طريق الإنصاف مع الناس فلا يأخذ من الحياة إلا ما كان عادلا ، وعندما يفقد الإنسان العدل مع نفسه يفقد الطريق المستقيم للحياة الصحيحة .

دعا الإسلام إلى العدل في الأخذ والعطاء في الجور والإخاء ، وأوجب العدل في الحكم والقضاء .

بيان جملة من أنواع الشرك

هذه الجمل تأتي على ألسنة الناس من غير أن يعلموا أنها شرك ، فتحبط أعمالهم ، ويخلدون في أعظم العذاب وأشد العقاب ، ومعرفة ذلك واجبه ، وقد قال بعض الأئمة : أن الردة تحبط الأعمال ، وتبين منه زوجته ، المرتد عن دينه هو الكافر بعد إسلامه ، فمن أشرك بالله ، أو جحد ربوبيته ، أو صفة من صفاته ، أو بعض كتبه ، أو رسله أو سب الله إلى غير ذلك مما تذكره كتب الردة تشمل أنواعا من اعتقاد وقول وفعل واستهزاء .

فيتعين على كل مسلم أن يعرف القول أو الفعل الذي يؤدي إلى الكفر حتى يجتنبه ولا يقع فيه فيحبط عمله ، ويلزمه قضاؤه ، وتبين زوجته عند هؤلاء الأئمة ، والشافعي رضي الله عنه يقول إن الردة إذا لم تحبط العمل لكنها تحبط ثوابه ، فلم يبق الخلاف بينه وبين غيره إلا في القضاء فقط ، فمن أنواع الكفر والشرك أن يعزم الإنسان عليه في زمن بعيد أو قريب ، أو يعلقه باللسان أو القلب على شيء ، فيكفر حالا ، أو يعتقد ما يوجبه أو يفعل أو يتلفظ بما يدل عليه ، سواء أصدر عن اعتقاد أو عناد ، أو استهزاء ، كأن يعتقد قدم العالم ولو بالنوع ، أو نفى ما هو ثابت لله تعالى بالاجماع المعلوم من الدين بالضرورة كإنكار أصل علمه أو قدرته ، أو كونه يعلم الجزء أو اثبات ما هو منفي عنه ، وكذلك اللون ، أو أنه متصل بالعالم أو خارج عنه ...

وكل من فعل فعلا أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر ، وإن كان مصرحا بالاسلام كالشي إلى الكنائس مع أهلها بزيمهم من الزناير ، أو يلقي ورقة فيها شيء من القرآن ، أو علم شرعي ، أو فيها اسم الله تعالى ، بل أو اسم نبي أو ملك في نجاسة ، أو قدر ظاهر كمي أو مخاظ ، أو بصاق أو يلطخ مسجدا بنجس ، أو يشك في نبوة نبي ، أو في إنزال كتاب كالتوراة ، والإنجيل أو زبور داود ، وصحف إبراهيم عليه السلام ، أو في آية من القرآن جمع عليها ، وفي تكفير من يضل الأمة ، أو تكفير الصحابة رضوان الله عليهم ، أو ينكر مكة ، أو الكعبة ، أو المسجد الحرام ، أو ينفي صفة

الحج أو هيئته المعروفة ، وكذلك الصلاة والصوم ، أو كصلاة العيدين ، أو استحل محرما كصلاة بغير وضوء ، وكأيذاء مسلم ، أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي ، أو حرّم حلالا كالبيع والنكاح ، أو يقول عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كان أسود اللون ، أو ليس بقريشي ، وكل من أنكر صفة كانت ثابتة له فقد كفر ، أو قال يأتي نبي بعده فقد كفر أو قال لا أدري أهو الذي بعث بمكة ومات بالمدينة أو غيره ، أو قال النبوة مكتسبة ، أو يصل إليها بصفاء القلب ، أو الولي أفضل من النبي ، أو أنه يوحى إليه ، وإن لم يدّع النبوة ، أو يدخل الجنة قبل موته ، أو يعيب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومثله غيره من الأنبياء وكذلك الملائكة ، أو يلعنه ، أو يسبه ، أو يستخف أو يستهزيء به ، أو بشيء من أفعاله كلحس الأصابع أو يلحق به نقصا في نفسه ، أو نسبه ، أو دينه ، أو فعله أو يعرض به ، أو يشبهه بشيء على طريق الإزدراء ، أو التصغير لشأنه ، أو الغض منه ، أو تمنى له مضرة أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم ، أو عبث في جبهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور ، أو ما جرى له من البلاء والمحنة عليه ، أو بعوارض البشرية الجائزة أو المعهودة لديه ، فيكفر بواحدة مما ذكر إجماعا ، ولا تقبل توبته عند أكثر العلماء ، وقد قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه من قال له عند صاحبكم ، وعدّ هذه الكلمة تنقيصا له صلى الله عليه وآله وسلم ...

أو يرضى بالكفر لكافر أو يقول كافر لمسلم ، لقني كلمة الاسلام ويكون المسلم خطيبا فيؤخر ويقول حتى أفرغ من الخطبة ، أو يقول لمسلم يا كافر بلا تأويل لأنه سمى الإسلام كفرا ، أو يسخر بأمر من أوامر الله ، أو نهيه ، أو وعده ووعيده ، كأن يقول لو أمرني بكلام لم أفعله ، أو جعل القبلة ها هنا ما صليت إليها ، أو لو أعطاني الجنة ما دخلتها استخفافا أو عنادا ، أو لو أخذني بترك الصلاة مع ما بي من الشدة أو المرض ظلمي ، أو شهد ملك أو نبي ما صدقته أو إن كان ما قاله النبي صدقا نجونا فقد كفر لأن فيه نقصا لمرتبة النبوة ، أو قيل قلّم أظافرك فانه سنة قال لا أفعل ، أو قال لا حول ولا قوة إلا بالله لا تغني من جوع ومثلها في ذلك سائر الأذكار ، أو قال المؤذن يكذب ، أو صوته كالجرس ، وأراه تشبيهه لناقوس

النصارى ، أو سمى الله على محرم كالخمر استهزاء ، أو (قال) لا أخاف
القيامه استهزاء ، أو نسب إلى الله أو شبه العلماء والوعاظ والمعلمين على
هيئة مزرية بحضور جماعة حتى يضحكوا ، أو قال إن شئت توفي مسلماً أو
كافراً ، أو نسب إلى زور في التحريم ، أو قال اليهود خير من المسلمين ، أو
قال استخفافاً شبعث من القرآن ، أو الصلاة ، أو الذكر أو نحو ذلك ، أو
قال سماع الأغاني من الدين ، أو أنه يؤثر في القلب أكثر من القرآن إلى غير
ذلك من الأقوال والأفعال التي تخالف الله ورسوله سواء كان عناداً أو
استهزاء فإن صاحبها يخرج عن الإسلام وتسمى هذه الأقوال ردة ، ومعنى
الردة الرجوع عن الإسلام كما جاء في كتاب الله عز وجل في (سورة
البقرة) : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك
حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون ﴾ .

ومن أراد الاستيفاء في هذا الباب ، فليرجع الى كتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وآله وسلم ، وما استنبطه العلماء المجتهدون العاملون في
ذلك ...

مقام المراقبة

مقام المراقبة وهو مقام شريف قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ هذا المقام أصله علم وحال ثم يثمر حالين : أما العلم : فهو معرفة العبد أنّ الله مطلع عليه ، ناظر إليه يرى جميع أعماله ، ويعلم كل ما يخطر على باله . وأما الحال فهو ملازمة هذا العلم للقلب بحيث يغلب عليه ، ولا يغفل عنه ، ولا يكفي العلم دون هذا الحال ، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتها عند أصحاب اليقين : الخياء من الله ، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي ، والجد في الطاعات ، وكانت ثمرتها عند المقربين : الشهادة التي توجب التعظيم والاحلال لذى الجلال ، الى هاتين الثمرتين أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (1) فقلوه أن تعبد الله كأنك تراه إشارة إلى الثمرة الثانية ، وهي المراقبة الموجبة للتعظيم . كمن يشاهد ملكا عظيما فإنه يعظمه بالضرورة ، وقوله فإن لم تكن تراه فإنه يراك إشارة إلى الثمرة الأولى ، ومعناه ان لم تكن من أهل التقوى والعفاف بحيث تراقب الله في كل عمل هو لك ، فأعلم أنه يراك ، فكن من أهل الخياء الذي هو مقام أصحاب اليقين ، فلما فسر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى : رأى أن كثيرا من الناس قد يعجزون عليه ، فنزل إلى المقام الآخر ، وأعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتحقق فيها المشاركة والمراقبة ، وتتأخر عنها المحاسبة والمعاقبة ، فأما المشاركة فهي اشتراط العبد على نفسه بالتزام الطاعة وترك المعاصي ، وأما المراقبة ، فهي معاهدة العبد لربه على ذلك ، ثم بعد المشاركة والمراقبة ، أول الأمر تكون المراقبة إلى آخره ، وبعد ذلك يحاسب العبد لنفسه على ما اشترطه وعاهد عليه ، فإن وجد نفسه قد أوفى بما عاهد عليه الله حمد الله ، وان وجد نفسه قد حل عقد المشاركة ، ونقض عهد المراقبة عاقب النفس عقابا يزجرها عن العودة إلى

(1) مسلم عن عمر - أحمد في مسنده والشيخان وابن ماجه عن ابي هريرة - صحيح -

مثل ذلك ، ثم عاد إلى المشاركة والمراقبة ، وحافظ على المراقبة ، ثم اختبر بالمحاسبة ، فهكذا يكون حتى يلقي الله تعالى ...

التوكل : هو الاعتماد على الله . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ التوكل على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها ، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها ، وهو من أعلى المقامات لوجهين : أحدهما قوله إن الله يحب المتوكلين ، والآخر الضمان الذي في قوله : ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وقد يكون واجبا لقوله تعالى : وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، فجعله شرطا في الإيمان ، والظاهر قوله جل جلاله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، فإن الأمر محمول على الوجوب .

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب : الأولى أن يعتمد العبد على ربه ، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له ، وقيامه بمصلحه ، والثانية : أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف سواها ، ولا يلجأ إلا إليها ، والثالثة : أن يكون مع ربه ، كملت بين يدي الغاسل قد أسلم نفسه إليه بالكلية . فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه بخلاف صاحب الثانية ، وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختبار بخلاف صاحب الثالثة ، وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخالص الذي في قوله عز وجل : ﴿ وَالْهَكْمَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ الواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى : أحدها أنه لا ثاني له ، فهو نفي للعدد ، والآخر أنه لا شريك له ، والثالث أنه لا يتبعض ، ولا ينقسم ، وقد فسر المراد به هنا في قوله : لا إله إلا هو ...

واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات : الأولى توحيد عامة المسلمين ، وهو الذي يعصم النفس من الهلاك في الدنيا ، وينجي من الخلود في النار في الآخرة ، وهو نفي الشركاء ، والأنبياء ، والصاحبة والأولاد ، والأشباه والأضداد ، الدرجة الثانية توحيد الخاصة ، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ، ويعلم يقينا أن الكون قائم بعلمه سائر بمشيئته واقع تحت رحمته ... وإنما مقام الخاص في التوحيد يغني القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل ، وثمره هذا العلم الإنقطاع الى الله والتوكل

عليه وحده ، وإطراح جميع الخلق في قبضة القهر ، ليس بيدهم شيء من الأمر ، الدرجة الثالثة ، ألا يرى في الوجود إلا الله وحده ، فيغيب النظر عن المخلوقات حتى كأنها عنده معدومة ، وهذه الذي تسميه الصوفية مقام الغناء بمعنى الغيبة عن الخلق ، حتى أنه قد يغنى عن نفسه ، وعن توحيده : أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله ، وهذه درجة مرفوضة لأنه لا يوجد - ولا يمكن أن يوجد - من هو أكثر توحيدا واعمق إيمانا وأشد إخلاصا لله من محمد ﷺ ومع ذلك لم يغب ولم يستغرق ! فإن قيل هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا ؟

فالجواب : أن الأسباب على ثلاثة أقسام : أحدها : سبب معلوم قطعاً قد أجراه الله تعالى ، فهذا لا يجوز تركه كالأكل لدفع الجوع ، واللباس لدفع البرد . والثاني سبب مظنون كالتجارة وطلب المعاش وشبه ذلك ، فهذا لا يقدم فعله في التوكل ، لأن التوكل من أعمال القلب لا من أعمال البدن ويجوز تركه لمن قوى عليه . والثالث سبب موهوم بعيد ، فهذا يقدم فعله في التوكل ثم ان فوق التوكل التفويض وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية ، فإن التوكل له مراد واختيار ، وهو يطلب مراده باعتماده على ربه ، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار ، بل أسند المراد والأختيار إلى الله تعالى ، فهو أكمل أدبا مع الله تعالى ...

التوبة : قال تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا ﴾ التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وفرائضها ثلاثة : الندم على الذنب من حيث عصي به ذا الجلال ، والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان ، والعزم ألا يعود إليها أبدا ، ومهما قضى عليه بالعودة أحدث عزمًا مجددا . وأدائها ثلاثة : الإعراف بالذنب مقرونا بالإنكسار ، والإكثار من التضرع والإستغفار ، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من السيئات ، ومراتبها سبع : فتوبة الكفار من الكفر ، وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر ، وتوبة العدول من الصفائر ، وتوبة العابدين من الفترات ، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات ،

وتوبة أهل الورع من الشبهات ، وتوبة أهل المراقبة (1) من الغفلات ،
والبواعث على التوبة سبعة : خوف العقاب ، ورجاء الثواب ، والخجل من
الحساب ، ومحبة المحبوب ، ومراقبة الرقيب القريب ، وتعظيم بالمقام ،
وشكر الأنعام ...

الخوف من الله والرجاء : جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفا
راجيا كما قال تعالى : ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ فإن
موجب موجب الخوف معرفة سطوة الله ، وشدة عقابه ، وموجب الرجاء
معرفة رحمة الله ، وعظيم ثوابه قال تعالى : ﴿ نَبِيءٌ عِبَادِي أَنَا
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ومن عرف فضل
الله رجاء ، ومن عرف عذابه خافه ، ولذلك جاء في الحديث : « لو وزن
خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا » (2) إلا أنه يستحب أن يكون
العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات ، وترك
السيئات ، وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت لقوله صلى الله عليه
 وآله وسلم : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى (3) »
واعلم أن الخوف على ثلاث درجات : الأولى أن يكون ضعيفا يخطر على
القلب ولا يؤثر في الباطن ، ولا في الظاهر ، فوجود هذا الخوف كالعدم ،
والثانية أن يكون قويا ، فيوقظ العبد من الغفلة ويحمله على الاستقامة ،
الثالثة أن يشتد حتى يبلغ الى القنوط واليأس ، وهذا لا يجوز ، وخير
الأمر أوسطها ، والناس في الخوف على ثلاث درجات : فخوف العامة من
الذنوب ، وخوف الخاصة من الخاتمة ، وخوف خاصة الخاصة من السابقة ،
فإن الخاتمة مبنية عليها ، والرجاء على ثلاث مقامات : الأولى رجاء رحمة

(1) المؤمن لا يففل عن عبادة الله لأن أعماله كلها مرتبطة بالعبادة ، فعمله بيديه لتحصيل
الرزق الحلال لا يقل درجة عن صلاته وزكاته ولذلك فهذه التقسيمات مبتدعة من متأخري
الصوفية .

(2) قال ابن تيمية - هذا مأثور عن بعض السلف وهو عام صحيح .

(3) رواه : أحمد في مسنده - مسلم - وأبو داود - وابن ماجه - عن جابر وهو صحيح

الله مع التسبب فيها بفعل طاعة أو ترك معصية ، فهذا هو الرجاء المحمود ،
والثانية الرجاء مع التفريط والعصيان فهذا غرور .. والثالثة أن يقوى
الرجاء حتى يبلغ الأمن ، فهذا حرام ، والناس في الرجاء على ثلاث
مقامات : فمقام العامة رجاء ثواب الله ، ومقام الخاصة رجاء رضوان الله ،
ومقام خاصة الخاصة رجاء لقاء الله حبا فيه وشوقا إليه « ان رحمة الله
قريب من المحسنين »

ذكر الله واطمئنان القلوب به

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قرآن كريم .

الذكر هو ما اشتمل على تلاوة القرآن - وهو أفضلها - وذكر اسم الجلالة ، وتسبيح وتقديس واستغفار ، ودعاء وصلاة على النبي ﷺ ، ذكر الله هو تذكره في استحضار جلاله ، وعظمته ، وقدرته وكل ما له - سبحانه من صفات الجلال والكمال ... فإذا ذكر الإنسان ربه واستحضر جلاله وعظمته كان من هذا الذكر في ظل ظليل من جلال الله وعظمته ، وفي حماه ورعايته ، وفي عصمته : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ﴾ (سورة آل عمران 101) .

فالذي يذكر الله وهو موقن به طامع في رحمته معتم بجلاله محتم بحماه لائذ بفضل عائد به من هموم الدنيا ، ومن ظلم الظالمين وبغي الباغين يكون قريبا منه سامعا دعاءه مستجيبا له قال تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وقال : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ (سورة البقرة 186) . وليس ذكر الله الذي تطمئن به القلوب ، هذا الذكر الذي تردده الألسنة ترديدا آليا ، دون أن يكون نابعا من القلب ، ذافئا بجملة الإيمان ، منطلقا بقوة اليقين ، فثل هذا الذكر لا يعدو أن يكون أصواتا مرددة ، أشبه بالحث الهامدة ، لا روح فيه ، ولا معقول له ومن هنا تكون آفته فلا يطمئن به قلب ، ولا ينشرح له صدر ...

أما الذكر الذي يقول فيه سبحانه وتعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ ثم يؤكد بقوله : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ فهو الذكر الذي ينبع عن إيمان ، فتهزله المشاعر تثلج به الصدور ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الإيمان على الذكر حتى يكون للذكر أصل يرجع اليه ، ومنطلق ينطلق منه وهو الإيمان ، ولا يكون الذكر لله

إلا إذا كان مشتملا على صفات الكمال والجلال لله عز وجل ، فذلك هو الذي يفيض على القلب خشية ، وهو الذي يستثير مشاعر الولاء لله ، والابخات له ، فتتشعر الجلود وتدمع العيون ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (سورة الأنفال آية 2) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الْخَبِيثِينَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (سورة الحج 34-35) ، وقوله جل شأنه : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر آية 23) .

فإذا ذكر المؤمن ربه واستولت عليه تلك المشاعر قرب من الله ودنا من مواقع رحمته ، وأحس ببرد السكينة يغمر قلبه ، ووجد ريح الأمن والطمأنينة تهب عليه معطرة الأنفاس زاكية الأرواح .

فإذا ذكر الإنسان ربه هذا الذكر الذي يدينه من ربه ، والذي يشهد منه ما يشهده من جلاله وعظمته وقدرته ارتفع عن هذا العالم الترابي واصتصر كل شيء فيه ، فلا يأسى على فائت ، ولا يطير فرحا ، ولا يأشر بطرا ، بما يقع ليديه من حطام هذه الدنيا ، وهذا هو الإطمئنان الذي يسكن به القلب وتقر العين حيث لا حزن ولا جزع ولا خوف !!!!

إن الداء الذي يغتال أمن الناس ، ويقض مضاجعهم هو ما يدخل عليهم من هموم الدنيا ، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها ...

وانه لا دواء لهذا الداء إلا باللجوء الى الله والفرع اليه ، وذلك بذكره وذكر سلطانه المبسوط على هذا الوجود ، وأمره القائم على كل موجود ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وفي التعبير عن الإيمان بالفعل الماضي (آمنوا) وعن الإطمئنان بفعل

المستقبل (تطمئن) في هذا إشارة الى أن الإيمان حال لا يحول عنها المؤمن وانه لا يوصف بالإيمان إلا إذا كان مؤمنا ، بخلاف الإطمئنان فإنه غير ملازم للمؤمن في كل حال ، وإنما الإطمئنان عند ذكر الله .

وكلما ذكر المؤمن ربه يطمئن قلبه إذا كان حاضر القلب .

يحسن للذاكر أو الداعي أن يذكر اسم الله للحالة التي يناسبها ذلك الاسم . مثلا : إن كان الإنسان في مواجهة مرض في نفسه ، أو نفس من يجب ذكر الله الرحمن الرحيم ، وذكر قدرته على كشف هذا الضر . وإذا كان في يد سلطان جائر ، أو عدو متسلط قاهر ذكر الله القوي القاهر الجبار المنتقم فرآه ذلك مآل هذا السلطان ، وصغر شأن هذا العدو .

وهكذا يذكر الذاكر ربه فيشعر في قلبه بقوة الله وقدرته على حمايته من كل بلاء فيطمئن قلبه وتسكن جوارحه . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ (سورة الأعراف 180) . فالإسم الذي تدعو الله به تجد له في نفسك أثراً يبعد عنك هما أو حزنا أو خوفا أو ضعفا أو أنكسارا فتشملك الطمأنينة الكاملة فلا ترى الناس من حولك إلا سائلين فضله ورضوانه .

قال الله عز وجل : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ (سورة البقرة 152) ، فالله سبحانه لا ينسى حتى يذكر فيذكر ، بل هو يذكرنا دائما ذكرناه أو لم نذكره .

ولكن المراد بذكره لنا هنا إذا ذكرناه وجدناه حاضرا في قلوبنا وعقولنا ولكن هذا الحضور لا نحس به ولا نتأثر له . فإذا ذكر المؤمن ربه وجده تجاهه ذكر ربه وأشرف عليه بنوره السني البهي .

وفي الحديث الشريف القدسي : « **من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** » (1) .

(1) رواه أحمد في مسنده - والشيخان - الترمذي - ابن ماجه - عن أبي هريرة - وهو صحيح - أخرجه الترمذي بصيغة المفرد وردّه إلى صيغة الجمع .

فذكر الله وامتلاء القلب به يفيض على الذاكر نورا من جلال الله وبهائه فإذا هو في جمى عزيز لا ينام ، وفي ضمان وثيق من أن يهون أو يذل لغير الله الواحد القهار .

وأسمى الذكر هو ذكر العارفين بالله معرفة يطلعون منها على ما يملأ قلوبهم جلالاته وخشية الله حيث يشهدون من كالات الله ما لا يشهده إلا المقربون الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًا ۝ ﴾ .

وهذا الود إنما يناله أولئك الذين يذكرون الله ، فيذكرهم الله ، ويعرفونه فيعرفهم : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ۝ ﴾ . فهذا الذكر هو الذي يضيء الطريق للمسالك إلى ربه فيرى على جانبيه نور الخالق وجلاله وعظمته ، فيخشع قلبه وتسكن وساوسه .

الرجاء الذي يقوم على غير إيمان ، ويستند إلى غير طاعة ، فهو مكر الله وخداع للنفس ، وعدوان على سنن الحياة التي أقام الله عباده عليها فجعل لكل عامل عمله ولكل غارس ثمرة غرسه .

وينبغي أن يحسن العبد الظن بربه ، بل وأن يبالغ ما شاء في هذا الظن ولكن يشترط أن يكون ذلك الظن نابعا من الإيمان بالله .

وتأمل كيف قال الله تعالى في آية الذكر : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً ۝ ﴾ وفي آية الدعاء ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً ۝ ﴾ .

فذكر التضرع فيها معا ، وهو التذلل والتسكن والانكسار ، وهو روح الذكر والدعاء ، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته والمحبة مالم تقترن بالخوف ، فإنها لا تنفع صاحبها ، بل تضره لأنها توجب الإدلال والانسياط . وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات ...

والمقصود من العبادات انما هو عبادة القلب ، واقباله على الله ومحبته له
وتأليه له ، فإذا حصل المقصود ، فالاشتغال بالوسيلة باطل

وبعد فإن ذكر الله بالقلب واللسان هو خير زاد يتزود به الإنسان في
رحلة الحياة وخير رفيق يؤنس في طريقه الموحش ، والله سبحانه وتعالى
يقول : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن
ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ صدق الله
مولانا العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وألف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم وانصرهم على عدوك وعدوهم واهدهم سبل السلام ، واخرجهم من الظلمات الى النور ، وجنبهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لهم في أسماعهم وأبصارهم ما أبقيتهم ، اللهم اجعلهم شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها عليهم يا رب العالمين .

اللهم انصر كتابك ودينك وعبادك المؤمنين واطهر الهدى ودين الحق الذي بعثت به نبينا محمدا ﷺ على الدين كله ، اللهم عذب الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيلك ويبدلون دينك ويعادون المؤمنين ، اللهم خالف كلمتهم ، وشئت بين قلوبهم ، واجعل تدميرهم في تدبيرهم وأدر عليهم دائرة السوء وانزل بهم بأسك الذي لا يرد على القوم المجرمين اللهم مجرى السحاب ومنزل الكتاب وهازم الأحزاب أهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم ، ربنا أعنا ولا تعن علينا وانصرنا ولا تنصر علينا وامكركلنا ولا تمكركلنا واهدنا ويسر الهدى لنا وانصرنا على من بغى علينا ربنا اجعلنا لك شاكرين مطاعين محبتين أوأهين منيبين ربنا تقبل توبتنا واغسل حوبتنا وثبت حجتنا واهدى قلوبنا وسدد ألسنتنا واسلل سخائم صدورنا « صدق رسول الله ﷺ رواه الترمذي .

أقدم هذا الكتاب الى القراء الأفاضل راجين من الله أن يكون نافعا للمسلمين ، واني لا أدعي الكمال ، وإنما الكمال لا يكون إلا لله ، فالمرء ضعيف بنفسه قوي بإخوانه ، فمن وصل بيده هذا الكتاب وقرأه ووجد فيه خطأ أو نقصا أو ملاحظة فليقتدها وليبعث بها اليّ إن شاء الله نجعلها في الطبعة الثانية وإني لا أنسى الطلبة الذين أعانوني على تصحيح هذا الكتاب واخراج آياته وترقيتها وضربه على الراقنة واخراج أحاديثه وانساها الى مصادرها فأشكرهم على ذلك شكرا جزيلا .

المصادر

- تفسير القرآن العظيم عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير
- تفسير القيم لابن القيم الجوزية
- تفسير الطبري لابن جرير الطبري
- التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب
- تفسير كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للإمام الحافظ أبي القاسم محمد بن أحمد لابن جزى الكلبي الغرناطي .
- أحكام المرتد في الشريعة الإسلامية لنعمان عبد الرزاق الساماراني
- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية ، شيخ الإسلام بن أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم .
- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ منصور علي ناصف
- النبي محمد انسان الإنسانية ونبي الأنبياء عبد الكريم الخطيب .
- الله ذاتا وموضوعا عبد الكريم الخطيب
- العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي
- البحوث الإسلامية للمؤتمر الرابع (مصر) المؤتمر الرابع
- الزواجر على اقتراف الكبائر ابن العباس أحمد بن محمد علي ابن حجر المكي الهيثم
- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د/محمد البهي
- العقائد الإسلامية سيد سابق
- الكواشف الحلية من معاني الواسطية عبد العزيز محمد السلمان
- حاشية الشيخ إبراهيم البيجوري المسماة بتحفة المريد على جوهرة التوحيد .
- الدستور القرآني في شؤون الحياة محمد عزة دروزة
- القضاء والقدر أبو الوفاء محمد درويش
- رسالة التوحيد الشيخ محمد عبده

الفهرست

العنوان	الصفحة
دعاء الاستفتاح	6
نصائح اقدمها الى الشباب المسلم	8
المقدمة	14
التعريف بالتوحيد	15
اعراض المسلمين عن القرآن	17
التكاليف الشرعية العامة : منها العينية والكفائية	29
بماذا يكون ايمان المكلف ؟ وما هي الوسائل التي يستعملها ليكون مؤمناً	36
لا تكليف الا بشرط العقل	40
من ثمرة العقل معرفة الله الضرورية والمكتسبة	45
البحث عن معرفة الله سبحانه وتعالى	50
أقسام التوحيد	59
مفهوم الألوهية في الشريعة الاسلامية	63
التوحيد نوعان :	71
باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب	72
الدعوة الى شهادة أن لا اله الا الله	75
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله	76
من الشرك ليس الحلقة والحيط ونحوهما	79
الذبائح لغير الله	80
من الشرك النذر لغير الله	81
الاستعاذة بغير الله شرك	83
الاستعاذة بالله من شر ما خلق	86
من الشرك ان يستغيث المكلف بغير الله أو يدعوه غيره	90
العقيدة الاسلامية	95
بعض معالم التوحيد في العقيدة	98
علاقة الله بالانسان	99

103	التعريف باسم الجلالة
104	ارتباط الخلق بالاسماء الثلاثة
106	تنزيه الله جل جلاله
110	الايان بالغيب
113	الايان بالرسل أجمعين
116	النبوة رحمة
119	الرسالة المحمدية
124	البعثة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة وأزكى التسليم
135	محبة النبي ﷺ
139	التعريف بالايان
143	الصبر من الايمان
146	الطريق الى الله هو العلم
150	المؤمن يتصف بالعزة
156	الايان بالملائكة
160	الايان بكتب الله المنزل
162	الرسالة الاسلامية
165	دعوة نوح (عليه السلام)
166	دعوة هود (عليه السلام)
167	دعوة صالح (عليه السلام)
168	دعوة شعيب (عليه السلام)
170	دعوة إبراهيم (عليه السلام)
171	دعوة موسى (عليه السلام)
175	أسلوب القرآن في الدعوة الى الله
180	الايان باليوم الآخر
183	البعث
184	النفخات الثلاث
186	كل شيء هالك الا وجهه
187	اختلاف الناس عند البعث

189	الحساب الحق
192	الصراف
192	العرش والكرسي
192	الحوض
194	الشفاعة
195	رأى الاستاذ محمد عبده في الشفاعة
198	الركن السادس (الايمان بالقدر)
200	مشيئة الله
203	خلاصة في القدر والمشيئة
203	حكمة الايمان بالقدر
206	حرية الانسان
207	تقرير الاسلام حرية الارادة
210	مشيئة الرب ومشيئة العبد
210	الهداية والاضلال
212	خاتمة القضاء والقدر
213	الاقدار
215	القضاء
217	الانسان والاقدار
224	لاتم مصالح الابدافعة الاقدار
227	أمر الله
228	إرادة الله
230	دفع اعتراض
235	التوفيق والخذلان
237	اصلاح المجتمعات الحالية من الانحراف والفساد عن طريق الدين
244	بعض الاشياء من الشرك
247	مقام المراقبة
252	ذكر الله واطمئنان القلوب اليه
257	الخاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ
- ١٤٢١ -